

الامام  
علي بن أبي طالب

الجزء السابع

تأليف  
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة الوقفان  
بيروت

هدية الشهيد السيد  
السيد من الدين بصر العلوم  
لمكتبة الروضة العيدرية

٣٩٢٣٢







## الفصل الأول

هدية الشهيد الشهيد  
السيد عز الدين بن عبد السلام  
مكتبة الروضة الشيعية

الى المدى الذى تستطيعه خطا التغافل المتثاقلة ، مشى الدواء  
الذى استطب به ابن أبى بكر من محنة مصر على درب الوقت ، جنباً  
الى جنب ، مع غد كسبح تبنته الكوفة !..

محنة مطوطة ، ودواء كأنه داء . وليل بلا صباح ..

ولم تكن الحاضرة الاسلامية ، حينذاك ، تشكو من عجز أو من  
قلة . فجمعها غفير ، وخيرها كثير .. ولكنها بدت كالمضيّع في بيداء  
قد مسه جنون الظما ، فحار ابن يتجه الى الماء . اذا لاحت لعينه مظاهر  
الحياة في بقعة بين اثناء الرمل ، خايله بها شبح الهلاك وقد ظنها صورة  
موهتها يد السراب . واذا طالعه وهمه بخضرة نضرة ، ظنها واحة  
فيحاء فيها ما ينقع صداه . فهو بين الحقيقة التى تريبه ، والسراب  
الذى يستهويه ، لا يننى يحرك الخطا على تردد ، يقدم ليحجم ، ويقبل  
لينكص ، ثم لا يجاوز آخر الأمر ، مهما جد في السعى وأسرفت عليه  
قدماه بالطواف ، غير دائرة التيه !..

تلك آونة سيطر الضياع فيها على دولة الامام بما رحبت وبمن  
ضمت من جماهير كثيفة من سكانها في كل مكان .. في الكوفة والبصرة .  
في اليمن والحجاز . في مصر وفارس . في الشغور والاطراف . لا فرق  
في جموعهم بين عامة وسادة ، رعية وحكام ، همل وأشراف ..

أمة أخذتها غفوة فنام فيها الشعور وهمد التفكير .. لا مبالاة  
ولا اكتراث . تعيش واقعها الثقيل صاغرة كأنه قضاء نازل وقدر  
محتوم . وترنو الى الأحداث بعين مطبقة الجفون مسترخية الاهداب .  
وتجرفها الدنيا في تيارها الهادر الى غد تعلم حق العلم أنه ظلم أو أنه  
ظلام فلا تحاول ان تنهيا للقاء الكريه المنتظر وفي يمينها سلاح  
أو ذبالة مصباح !..

وياما كثر على سنتها الكلام !.. وياما توات الوعود والعهود !  
ولكنها ظلت دائماً حريصة على الإخلاد للواقع ، والالتصاق به ، كأنه

الحياة ولا حياة سواه .. تماما كالحالم يغزو أقطار الأرض ، ويشل عروشها ، ويطا بقدميه المعربدين صوالجها وتيجانها وهو ملتحف بدفء الفراش !.. تماما كالثمل يستعلى على الناس ، ويستذلهم في رؤاه المخمورة ، وهو يتمرغ عند مواطنهم في الوحل والتراب !..

أيام طويلة تمضي والموقف هو الموقف ، والوضع هو الوضع بلا تغيير .. الوعود تثرى ، ولكنها دائما حبيسة قول معسول . الأقدام تتحرك ولكنها دائما لا تسير . السلاح يجتمع ولكنه دائما في الأغمد .. ومالك بن كعب من ورأئهم يستحث التنفيذ فلا يظفر إلا بالموعد الذي لا يحين - بكلمة « غدا » ، وغدا كما هو معلوم ، موعد يتجدد ، ويتأجل الى الأبد الأبد ، مع كل نهار !..

ولم يملك الإمام إلا الصبر ، أو هو لم يملك سوى القنوط . وما حيلته في هذا البلاء الداهم الذي يحييه في مجتمع لا يجمعه رأى ، ولا تفضيه حمية ، ولا يحمسه دين ؟.. ما قصاره والقوم يتشبهون بالدعة لأنها تهبهم الحياة ، ويؤثرون العيش وإن تلمسوه في كنف الخزي والدل والهوان ..؟

وبذلك انقضى الموعد المضروب على سيرهم لمصر مع مالك بن كعب لنجدة عاملها ، والانتصاف لاهلها وأرضها من عدوان الشام . فمصر عندئذ تحفها المكاره ، وسيرهم اليها يسلبهم الدعة ، والقتال عليها - كأي قتال - هو في حسابان ضمائرهم الفاقية وجه مكروه . ولو أنك استبطنت دخائلهم اليوم ، لرايتهم يكرهونه ، ويقعدون عنه ، وإن دوهموا في الكوفة بجيش صغير !..

شهر من الزمان فات على الوعد والأعداد عاشه ابن أبي بكر في جحيم الانتظار .. لا اثر لنجدة . لا ظل لندوب . لا كلمة تقبل عليه من صوب الكوفة تبشره بجيش الانقاذ . إنما الأنباء تأتيه سراعا بتقدم عمرو على أرض النيل بأعداد من الجند لعل القلق في خياله ضاعفهم بضعة أضعاف . وبجموع من الشائرين عليه ، يلحقون بهم ، أو يزودونهم بالمون والسلاح ، ويبسطون أمامهم ما جهلوا من فجاج ودروب في تيه الصحراء وعلى التربة الخضراء .. ومع ذلك فقد نشر الفتى ما بجمعبته ، ونشط ومن معه لساعة الفصل ، وإن جهد وسعه ليستأخر بها حتى حين عسى الأيام أن تطلع عليه بأمله قبل أن تحين !.

كالبخيل الذى يمسك كفه ، وينفق بقدر مقدور لا يجاوز الكفاف ، أطلق الفتى جيشه للقاء المغيرين . لم يلقيهم بكل حشده ، وان كان ذلك « الكل » لا يكاد يعنى شيئا في منطق الحروب ، ولا يكاد ايضا يعنى امام قوة عدوه التى بارحت الشام لتعز عدة ونفرا بالدين استلحقت وأزروها من النافرين والمتقضين ووعالب خريتا التى ابرزت مخالبا وخرجت من أوجرتها مسفرة بعد طول انجحار . . سرح محمد بن أبى بكر الى جيش عمرو مقدمته ، في ألفين ، عليهم كنانة بن بشر ، كأنما يرجو بهم أن يناوش القوم ويؤخر تقدمهم ما وسعه التأخير حتى يقدم عليه المدد الموعود . ولقد أصاب حين فعل ، لانه لاءم بين الأمل ، والقدرة الممكنة ، وظرف اللقاء . ولقد أصاب ايضا ، لان غريمه سلك حياله مسلك مخدوع فلم يرمه بكل قوته وهى عندئذ طرفان حرى بأن يفرق قوة الدفاع ، وينهى المعركة في سوية يفتح امامه بعدها الطريق الى القسطنطين . . لكن ابن العاص ، فيما بدا - عن هيبة أو عن تريث - أثر أن يدنو على حذر ، كأنما ليتحسس الأرض تحته أو يسبر غور خصمه ، أو ينتقص رويدا رويدا من مقاومته ، فراح يرميه بكتائب الشام : كتيبة كتيبة ، أملا في نصر رخيص لا يكلفه سوى القليل . .

موجة بعد موجة توالى الهجمات الشامية على جيش الدفاع الصغير فاذا هى تتكسر على صخرته ، ثم ترتد لتنحسر ويهدأ الصراع فترة ليثيب من جديد . ما تقدمت كتيبة منها الى الجيش المصرى ، تحاول أن تقتحم عليه موقعه ، الا ثبت لها ابن بشر برجاله ثم ضربها فأعادها مقهورة إلى ما وراء الشقة الحرام . وما تراجعت كتيبة بعد فشل ، تلعق الدم ، وتضمد الجروح ، وتلتقط الأنفاس ، الا تقدمت أخرى الى الميدان تحاول بدورها كسر حدة الغريم العنيد . لكن كنانة ابن بشر لم يكن لينكسر ، ولم يكن لينكص وينقلب على عقبيه ، وأمامه شهادة أو نصر كلاهما تشتتاه نفسه ، زيادا عن الحق ودفعاً لقوى الباطل أن تنتصر وتسود .

واخذت مراحل ذلك الصراع تتعاقب حلقات متشابهة في سلسلة طويلة بلا مدى معلوم . فلا الهجوم ينتصر ، ولا الدفاع ينكسر ، ولا أى الفريقين يحول بخاطره أن يطفىء سفير القتال ، أو يجنح لراحة في هدنة مطلقة أو محدودة يكف عنه ، أبداً أو الى حين ، عوادي الهلاك .

إنما مضى الموت ، على ظبا الأسنة ، يتخطف من شاء من هنا ومن هناك .  
وراحت الخسائر في الأرواح والسلاح ، تنتقص من الجيشين ما شاء  
لها الأضرار .

وكانى بعمره قد ايقن أن خطته تلك غير مبلغته غايته من النصر  
الرخيص الذى ارتجاه .. لعله توجس أن يكون وراء هذا الثبات  
العنيد خدعة ينكشف عنها طول أمد القتال . ربما لمح بارقة خطر ،  
أو خشى أن يطلع الغد عليه بمدد يؤازر عدوه فيهدم رجاءه ، ويتكسر  
لواءه ، ويسلمه وجيشه العادى إلى مصير مهين ..

كيفما كان تقدير الرجل آنذاك فإنه مل لعبته ، أو خطته ، وركبه من  
ملله تطلع الى حسم الأمر بما لا يدع مجالا لنشوء احتمال آخر ، غير  
النصر ، يلون النتيجة . وما كان له إلا أن يسارع بذلك بعد أن تكرر  
ارتداد كتائبه ، وتكسرت أمواجه تباعا على صخرة المقاومة العنيدة .  
وماله اذن لا يدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، والأمور قد جرت أخيرا  
بما اشتهى فاكتمل له ، من خارجة مصر ، جند كثيف ، كأنه الجراد ،  
لو انه انتشر على أديم الموقعة وخلق بينه وبين عدوه لاجتثه وما ترك  
منه عودا أخضر ؟ ..

وعلى الأثر بعث الى معاوية بن حديج الكندى ، يستمده ويستنجد  
به من الموقف المتميع الذى وضع فيه نفسه واجناده .. فان هو  
الا قليل حتى جاءه الرجل ، في أعداد من أنصاره مثل الدهم ، يزحمون  
الميدان ، ويسدون على القوة المصرية المدافعة منافذ الخلاص من  
كل ناحية ..

حتى الحركة لم تعد ميسورة لفرقة الدفاع . وحتى الارتداد  
لتقويم الخطوط وتنظيم تكتل متماسك يكر على العدو من بعض اطرافه  
لم يكن في الطاقة .. فقد رمت الخارجة بكل ثقلها في وجه كنانة ومن  
حوله . وضغطت عليه ضغطا شديدا التصق فيه الناس بالناس .  
وحطت تغشيه من أقطار ساحة المعركة ، تماما كما يحط الجراد  
على شجرة خضراء يغطى الجذع والورق والفروع ثم لا يطير عنها  
إلا وهى خشبة يابسة جرداء ! ..

ولم يجزع ابن بشر . ولم الجزع وهذا احد أمليه يأتيه ؟ ..  
الشهادة الآن على كذب منه . الجنة تخايله وتناديه ، وليس بينه



وبينها الا ان يثبت حيث كان ، يستقبل الموت وهو راض قرير ..

ونشط للجحافل الكثيفة ومن معه من بقية المدافعين يحاول ان ينقب سورهم الادمى ويهدم جدره ما وسع سيفه ان يضرب ، ووسع فرسه ان تثبت على قوائمها ، وتتحرك به في تلك الرحلة القصيرة الميته .. انه يكر ويرمى بنفسه على عدوه فاذا الكرة ترجعه ولا تدفعه الى الامام كأنما يصطدم بمطاط ..! وانه ليثغر في صفوفهم فاذا الثغرة التى يفتحها تلتئم على الفور كأنما هو يحفر في ماء ..! حتى اذا رأى فرسه عجزت عن الحركة ، لفرط تراحم عدوه عليه ، وثب عن ظهرها الى الارض ، وارتمى على الحشود المطوقة يعمل فيها سيفاً يتحرك كشیطان ..!

واخذ يتلو وهو يضرب في ذلك السور الادمى المنيع :

« وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا .. » .

وملكت سورة القتال اصحابه فنزلوا جميعا نزوله ، يخالطون عدوهم ، وينازعونهم مواقع الاقدام . وتفشيت الموقف غاشية من الاضطراب والغموض لا يكاد احد يعرف في ظلامها مدافعا من مهاجم ، ولا وليا من خصم ، ولا بشائر نصر من بوادر هزيمة .. فالصراع لم يعد معركة حربية تحكمها قواعد التنظيم وتناسق التحركات بقدر ما غدا لقاءات عشواء او شبه عشواء ، تشتبك فيها اليد باليد ، ويصطدم الجسد بالجسد ، ويصطرع القوم في نطاقها على الشبر من الارض ليتيح للرجل منهم موضعا لقدم واحدة تحمله ، وعلى كوة في جدار الاجسام الملتصقة المرصوفة ، تفسح له في نشقة هواء ..!

غير ان الايمان والشجاعة والاصرار لم تكن وحدها العوامل التى ترجح كفة كنانة ، وتشيل كفة ابن العاص .. فلقد فرغت الجعبة ، وجف الزيت ، واخذت الذبالة تترنح وهى تخفق خفقاتها الاخيرة .. لم تعد في المقاومة بقية جهد ولا ذماء طاقة . حانت الخاتمة . حم القضاء . جاءت الشهادة تجتبي الاخيار ..

واستشهد ابن بشر وهو على تل من الجماجم ..! فلو استطعت عندئذ معاينة سيفه ، لوجدت على شفرته قطرة دم من كل قتيل . ولو استطاعت جثثهم ان تنطق ، لعابته على حدة الطعن وعبقرية

القتال !.. واستشهد مع القائد الباسل جمع جم من رجاله خلا  
بموتهم الميدان وفتح الطريق امام العادين ..

وعندما وسع ابن العاص ان يسترد بعض نفسه المبهور ، وينقشع  
عنه كابوس غمة الدفاع الرهيب ، ثم يتحرك ليفضى ببقية من معه  
إلى مؤخرة جيش مصر ، لم تكن ثمة حياله مقدمة ولا مؤخرة ، لأن  
القتال التهم من ثبت ، والهزيمة طارت بمن امتد به أجله ، وطوحته  
بعيدا ، بعيدا ، عن الميدان .

عن ابن بكر ، بعد أن مات كنانة وتقطعت الوسائل بقيادة  
الدفاع ، انفضت بقية جنوده ، وتفرقوا فرادى وقد أعزل الموقف  
بهم ، وأيسوا من جدوى الثبات والمقاومة دع توقع الغلبة  
والانتصار . بل لعلمهم وجدوا الثبات عندئذ عصيا عليهم ، لا يداني  
نطاق القدرة وان دخل في نطاق الرؤى والأحلام !.. بل لعلمهم  
— والألوف المعادية تضغطهم — رأوا انهم على حافة منزلق لا يملكون  
عندها غير التردى من عل في هاوية بعيدة المهوى ، غائرة القاع !..

تلك كانت الحال ، وذاك كان السلوك الذى سلكه جيش ابن أبى  
بكر والستائر تنسدل على « المنشأة » كمعركة مصر .. وإذا كان  
القدر قد شاء فان مشيئته لم تكن غير صدى لهمة الكوفة وأهلها  
القاعدين !.. وإذا كانت بقايا الدفاع عن مصر قد أكرهت على التفرق  
والانسحاب من الميدان . فان كنانة بن بشر كان خير أسوة لهم لو  
انتفعوا بالقدوة ، فعقدوا العزم وتمسكوا بالثبات . وإذا كانت ظنونهم  
قد خالت التشبث بمواقع الاقدام يعد مصرع كنانة ومحنة قواته  
محالا من المحال ، فان الشهادة — في حالة ابن بشر ، وفي كل حالة —  
ليست ضربا من المحال !.

طبيعة البشر ، بلا شك ، أضافت سطورا - عبارة - كلمة واحدة - إلى سفر الأسباب التي أدت إلى هزيمة جيش محمد بن أبى بكر ، ذلك اليوم من صفر ، في « المنشأة » على مسافة غير بعيدة من القسطنطينية . فنفره قليل وعدوه وفرة كاثرت بهزيمة ضعاف . . وضغط الواقعة عليه فاق قوة الاحتمال . والرجاء في نجدة عاجلة نشد أزره لاح أعصى من المحال . . . واليأس المضيع ، الذى يشق عليه الصبر ، حين تبدى له ثغرة في سور الموت المحيط به من كل جانب ، لا يحركه عندئذ عقله ، وانما تقوده غريزة حب البقاء . .

على هذا النحو أصبحت بقية القوة الدفاعية بعد تلك الأمواج الهادرة المتلاحقة من الهجوم ، وبعد طوفان خارقة خربت وانصار الشغب وسيطرتهم على ساحة القتال . . ولا لوم هنا على رجال ابن أبى بكر حين ينفضون أيديهم من قتال لا غناء فيه ولا جدوى لهم من ورائه - طال أو قصر - غير الهلاك ، ما دما نقيسهم بمقياس الطبيعة البشرية ، التى تدور في فلك « الممكن » لا في فلك « الأمثل » الذى ينبغى أن يكون . . ولا لوم أيضا على محمد لو أخضعته هذه الطبيعة لسلطانها ، وجرفته بعيدا عن ساحة الموت إذ يتلفت فإذا المكان حوله خال ، قد هجره أصحابه ، فلا ناصر ، ولا رفيق . . .

شريدا مضى الفتى عن موقع القتال ، يضرب في الأرض على مهل أو على ذهول ، إلى غير غاية . . وهل من مقصد لتائه مضيع ؟ . . وهل من هاد لوحيد حيران ؟ . . بل لا يفرق بين مشرق ومغرب ، نهار وليل ، أخضر وجذب ، معمر وخراب . . وعينه انطمس ، وجمرة فكره تحولت إلى رماد . يتخبط في ظلمة . . يهيم في ضياع . . يفكر بتقديمه ؟ . .

أهل الكوفة أيضا كانوا يفكرون بالقدم الضالة التى لا تعرف الى ابن تيسير ، فاما كابن أبى بكر وان اختلف بينه وبينهم المعيار ، اذ تكرهه طبيعة محتته وتتحكم فيه ، بينما يصرون هم ، في سلوكهم الزائغ ،

عن اختيار!.. فما حركهم حدث . ولا حمسهم خطر ، ولا القوا  
السمع لدعوة داع تحثهم على العمل ، وتبصرتهم بعواقب الجمود  
الذى آتروه .. وحتى حين حفزتهم النخوة اخيرا ، وشاءت لهم أن  
يلبسوا رداء المروءة ، كان كل قصاراهم بضع مئين غاية ما يقال عنهم  
إنهم « لافتة » جيش ، أو « شعار » يعلن عن الرغبة في النجدة - مجرد  
رغبة! - وليسوا بقوة حربية فعالة ، تستطيع أن تؤثر في مصير معركة  
النيل ..

كانوا نوعا من التظاهر بالانصياع لأمر الامام ، والولاء الذى  
لا يستبطن الطاعة الجدية وإن خلع ثوب العصيان!.. أم لا جدواهم  
ولما ينتظم لهم عقد إلا بعد مرور شهر وبضعة أيام على دعوة الاستصراخ  
والاستنجد!.. ما جدواهم وانهم لالفان يعلمون حق العلم أن  
اجتيازهم مراحل السفر البعيدة الى مصر سيضعهم في مواجهة عدد  
يقارب ثلاثين الفا كلهم مطيع مصابر عنيذ!.. فان يكونوا تخيلوا  
القدرة على المواجهة ، أو غرهم في أنفسهم شيء ، أفكانوا يحسبون  
الأحداث رهن مشيئتهم ، تجمد حيث هى فلا تتحرك الا اذا تحركوا  
وشدوا معهم الشمس لتسطع على ساعة اللقاء التى يريدون!..

بل هو وهم ما خالوا ، وعبث ما فعلوا ، وهباء وقبض الريح  
ما توقعوا أن يكون!.. فالمقدمات هى التى تنجب الخواتيم . والعاقبة  
مرئية معلومة ، لكل إدراك ناقب نابه أو ساذج غرير . والفاجعة  
مقدورة محتومة ، من قبل أن تتحرك اليها قدم ، أو تطيف بموقعها  
عين .. وكفاهم دلالة عليها ، أن الإمام إذ خرج يشيعهم . قد أقتحم  
جمعهم المتدائب القليل بعين غائمة ، وهتف في هدوء حزين :

« سيروا .. والله ما أنتم!.. ما أخالكم تدركون القوم حتى  
ينقضى أمرهم!.. » .

فانطلقوا ..

لكنها انطلاقة الكرة من المطاط لا تلبث أن تعود ادراجها حيث  
كانت حين يستقبلها جدار!.. فإن هى إلا خمس ليال يسيرونها بين  
اثناء الرمل على دروب الصحراء ، حتى كان القدر قد أبرم قراره ،  
وجاء بنبئه رسولان من الشام ومن مصر يحملانه إلى الكوفة ..

من الشام قدم عبد الرحمن بن مسيب الفزارى ، وعلى وجهه  
ذهول المبغوت ، فدخل على الامام يخبره الخبر .. كان الرجل عينا  
في الارض الاموية لعل ، يشيم الأخبار ، ويستقرى حركات القوم  
وسكناتهم ليقضى إلى صاحبه بما تكن أو تعلن ، ليكون من أمرهم على  
بينة .. فلما دهمه أمر المنشأة ، تسلل بليل يحث مطيته إلى  
أمير المؤمنين ..

قال يرسم مشاهده :

« .. ما خرجت من الشام حتى قدمت البشرى إليها من قبل  
عمرو بن العاص ، يتبع بعضها بعضا بفتح مصر .. »  
ثم ؟ ..

« .. وقتل محمد بن أبى بكر .. »  
ثم ؟ ..

« .. واذن معاوية على منبر دمشق بقتله ؟ .. »

سلسلة طويلة من الهم والوصب والعذاب طوت مراحلها بضع  
عبارات مجردة جافة لا تكاد تفصح عما لعل الفتى عاناه ، أو تومىء  
إلى صدى الدوى الذى تفجر في نفس السامع وهو يصفى بأذن مرهفة ،  
ووجه جامد متوتر الأسارير .. ولكنها لا ريب كانت طعنة مصمية  
تمزق القلب وتحطم الكيان .  
واكمل الفزارى حديثه :

« .. ووالله ، يا أمير المؤمنين ، ما رايت قط سرورا مثل سرور  
رأيت به بالشام حين قتل محمد .. » .

فلم يزد الامام على أن خفض رأسه ، كأنما ليخفى عن صاحبه  
دمعة أسي همت أن تنحدر على وجنتيه ، وهو يقول :

« .. لقد فقدنا حبيبا ، وفقدوا بغيضا ! .. أما أن حزننا على  
قتله لعل قدر سرورهم به ، لا ، بل يزيد أضعافا .. » .

والكلام ، أبلغ الكلام ، لا يستطيع في مثل هذا المقام أن يصور  
العاطفة ، أو يكون أداة قادرة على التعبير . هو عندئذ أشبه بمرآة

نقية الصفحة ، .ينعكس على صقالها الشكل عن الأصل ، دقيقا واضحا بكل تفاصيله ولكنه لا يزيد بعد عن مجرد صورة بلا حياة !.. وهل يسع عبارة ما أن تنقل تفجع الامام على محمد ، وتلم بألمه أو تبلغ مداه ، وما كان منه كولده بل كان ولده حقا بكل المشاعر والأحاسيس والمقومات المادية والنفسية التي تربط الابن بأبيه ؟.. وإذا كانت بنوة الولد ، فعلا للفراش ، وبالنطف ، ومن الأصلاب ، فإنهما أيضا تكون بالصلة الروحية والتربية والرعاية .. وإذا كان محمد ولدا - بالدم - لأبى بكر ، فإنه كان أيضا للإمام ولدا - بالحضانة - منذ يتم وهو طفل ، وآمت أمه أسماء بنت عميس تم دخلت تحت على زوجا بعد ترملها بقليل .. فالفتى من طفولته أوى الى ظله .. شب عن الطوق في حجره .. روى من عطفه وحبه .. عاش واحدا من أبنائه لا يعرف أبا غيره ، حتى لقد كان الامام نفسه يقول عنه :

« محمد ابنى من صلب أبى بكر .. » .

.. ومن مصر قدم الحجاج بن غزية الانصارى ، وعلى وجهه وجمة الناعى .. كان أحد رجال محمد ، صحبه بها ، وعاش معه ، وشهد مشاهدته ثم غاص واياه في قاع المحنة .. فلما وقعت الواقعة ، وهاض الدقاع ، وتلبس الأفق بالسواد ، ثم تفرق عن عامل مصر أصحابه وراح مشردا يهيم في الأرض حتى عاجله مصرعه ، أفلت الحجاج بحياته ، وأقبل ، والفاجعة ما زالت تملأ قلبه وعينيه ، ليروى لأمير المؤمنين الخاتمة المرة ..

وما كان مصرعا كالمصارع ، ولا فاجعة كالفاجعات .. وكيف يكون ، وقد اقتلع فيها الانسان قلبه الأدمى ، وتجرد من بشريته ، وأبرز الظفر والناب ليغزو وحشا كأقسى ما تستطيعه وحشية الحيوان .. ؟

نيس غير الدهول ما نعله ران على الامام في تلك اللحظة وهو يصفى إلى القصة المحزنة . وليس غير التفجع على نكسة النفس البشرية ، واتحداها الى قعر الشر .. لكنه عرف كيف يحكم تقززها ، ويعالج شعوره بالغثيان ، وهو يصبر النفس ويوطنها على تقبل المكروه ..

وهتف متجلدا وقلبه يذوب :

« رحم الله محمدا .. » .

وعندما وسعه من بعد ان يخلو الى افكاره ، ويسترجع في باله  
صور الأحداث التي أدت الى المصراع المفجع ، همست شفتاه :

« رحم الله محمداً .. كان غلاماً حدثاً .. لقد كنت أردت ان  
اولى المرقال هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله ، لو وليها ، لما خلى  
لابن العاص واعوانه العرصه ، ولا انهزم الفرصة .. ولا قتل  
الا وسيفه في يده .. » .

غير انه ما لبث ان نفذ الانسياق في التحسر على ما لا سبيل له  
إلى اسرجاعه لأن « ليت » لا تصلح الأمور ولا تمنع المحذور المقدور ..  
ثم استدرك وقد أخذه حنانه ينتصف للصريع :

« بلا ذم لمحمد ؟ .. فلقد اجهد نفسه ، وقضى ما عليه .. » .

ولم يبرحه بعدها جزعه على الفتى حتى لقد كان هذا الجزع  
- وإن جهد لإخفائه تصبراً ومجالدة - يظهر في وجهه وحركاته ..  
وكم تحدث القوم بالأمر ، وكم حدثوه فيه رغبة منهم في كفه عنه  
والتهوين عليه ، فيقولون :

« لقد جزعت على محمد بن أبي بكر ، يا امير المؤمنين .. » .

فلا ينكر ، ولا يعتذر ، بل يقول :

« وما يمنعني ؟ .. إنه كان لى ربيبا ، وكان لبني آخا ، وكنت له  
والدا أعده ولدا .. » .

ونعاه إلى الناس ، وهو يعلن عليهم اغتصاب مصر ، فيحسن  
الثناء عليه ولا يعفيهم من جريرة الكارثة . بدا فقال :

« .. الا وان مصر قد افتتحها الفجرة ، اولياء الجور والظلم ،  
الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الاسلام عوجا .. الا وان محمد  
ابن أبي بكر قد استشهد رحمه الله وعند الله نحتسبه .. اما والله لقد  
كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ،  
ويحب سميت المؤمن ... » .

ثم عرج عليهم :

« .. وانتم القوم لا يدرك بكم الثار ، ولا تنقض لكم الاوتار ! .. »

دعوتكم إلى غياث اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فخرجتم على جرجرة الجمل الأسر ، وتشاقلتم إلى الأرض تشاقل من لا نية له في الجهاد . ولا رأى له في الاكتساب للأجر . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ! .. » .

ولقد بلغ من حزنه أن كاد يعتزل الناس لا يخالطهم ولا يضمهم وإياه جمع ما وسعه أن ينأى عنهم ويعزف بنفسه عن اللقاء ، ضيقا بهم ، وزهادة فيهم ، بل قد بلغ منه أن برم بالحياة وود لو عاجله أجله فيرحمه ليغيب عن دنياهم إذ الموت خير من صحبتهم هذه التي تشقيه وتثقل عليه ..

بعث عندئذ إلى ابن عباس يكشفه شعوره :

« .. استشهد محمد بن أبي بكر .. وقد كنت كتبت إلى الناس ، وتقدمت إليهم في بدء الأمر ، وأمرتهم باغائته قبل الواقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، عودا وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا .. أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجا ، وأن يريحنى منهم عاجلا .. فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى في الشهادة ، وتوطئنى نفسى على ذلك لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا .. » .

لكن لا غناء في حسرة ، ولا جدوى في جزع ، ولا دافع لبلاء حل فدهم ، ونزل فقصم .. فمصر ذهبت إلى غير عود ، واجتزت من دولته كما تبت الساق التي لا قدرة بغيرها لصاحبها على الاستباق ! .. اقتطعت مصر وانها - بقوله - أعظم من الشام ، وخير أهلا ، بقاؤها في يديه وأيدي شيعته عز لهم ، وكبت لعدوهم .. واحتجب ابنائها عن طاعته وتثبيت أمره وإنهم لدعامة قوته ، وأحسن أجناده .. وأسدل الستار بها على محنة محمد بن أبي بكر فإذا هى محنة مصر ، ومحنة الأمة الإسلامية ، ومحنة القيم الإنسانية .. وإذا هى فصل من فصول الرواية ، يستشرف الخاتمة ويؤذن ببداية النهاية ! ..



وهذه هي الفاجعة ..

بلا رفيق مضى محمد على وجهه ، يهيم في الفضاء الرحب الممتد  
حياله الى مدى الرؤية مطموس الخطوط مبهم المعالم تذوب حدوده  
في محيط الأفق الأشهب المطبق عليه .. بلا رفيق من صاحب يؤنس  
وحشة ، ولا من قلب يستشعر ثقة ، ولا من ذهن يتطلع لغاية ..

كان جزءا من الفراغ الذي سرح فيه . ومن الصمت الذي علق  
بالجو كقطرات بخار . ومن الركود الرهيب الذي سيطر على المكان ..  
وما عسى يبقى من امرىء سلب الهدف والوعى والرجاء ..

خيال حياة ! .. هيئة ذات ابعاد وأعماق ، بسطح ، ومظهر ،  
وحجم ، وباطن أجوف ملؤه خواء ! .. هيكل بشر : بالشكل ، بالسمت ،  
بالقوام ، بالاهاب ، بالشباب ! .. كأنه ظل . كأنه عود غاب ! ..

وعلى مدارج الرمل انسابت قدماء تطويان مسافات ليس يدرى  
أهى مفضية به الى شرق أم غرب ، أمام أم وراء ، مكمين هلكة أم مورد  
نجاة .. وفوق طين الحقول ترنحتا بخطا ذاهل ، مشلول الوعى معطل  
الارادة .. فلو انه عندئذ أدرك لعرف أنهما تكادان تلتويان تحت ثقله  
وتتقصان ! .. ولو أنهما أيضا أدركتا لثبتتا به — من اعياء — لا تبرحان ! ..  
لكنه مضى بهما يقطع مراحل الوقت والمكان بحركة آلية قسرتة عليها  
قوة دافعة مجهولة لعلها غريزة حب البقاء ! ..

غير أن الجهد الذى أضناه ، بعد طول السرى والسير ، عطل  
الآلة ! .. فالتعب استنزف القدرة . والرمل برى القدم . والطين  
اثقل الخطا ، ولفح الهواء الساخن في قيظ الصيف المصرى لف جوارح  
البدن كلها بالخمول ..

وزحف على لهثاته إلى موئل ظليل ! ..

عند منأى بعيد عن الطريق المطروق ، على حافة الخلاء ، تبين

طللاً يتداعى ، ما زالت به بقية من « روح » تمسك بعض جذره البالية  
— كالثوب الخلق — أن تنهار .. الى هذا الحطام رنت مواجهه ،  
واضطربت تحته رجلاه وهما نخطان في الأرض إذ يجرحهما معه كما  
تجر غرارتى رمل ينوء بثقلهما العزم وينقسم الظهر وتنهر الأنفاس ..  
ونحت أثر من سقف لا يكاد يسر عن العين طلعة السماء ، أوى بالمكان  
إلى ظل أرقط نقطت صفحته الداكنة بقع بيضاء من نور تسللت من  
ثقوب السطح الأخرم .. وعندما وسعه أن يفرش الظل ، ويلتحف  
بعض الشعاع المنحدر ، عزف بسمعه عن أنين عظامه وراح في سبات .

في هذه الخربة التى انتهى اليها شروده ، انطوى محمد بن أبى بكر  
على محنته ، ونامت عيناه ، لا يجاوره في ملاذه الموحش — مع الفراغ —  
إلا قدر يقظان ! .. فما خابته في الوحدة رؤى نعاس ، ولا أحلام تطلع ،  
ولا ذكريات غابر .. وانى له ووعيه المحطم المنهوك قد فقد القدرة على  
الحركة ليخرج من نطاق عالم الخمود الذى عاش — بل دفن ! — تلك  
الآونة فيه ؟ .. وإذا كانت الراحة عندئذ قد قربت رويدا رويدا إلى  
أوصاله ، واخذ بدنه المتهالك يمتص منها على مهل كما يمتص الجذر  
الظامى قطرات الماء من بين الصخر ، فانها الراحة التى يغلب المرء  
عليها وتسير في جسده بالخدر سير طليعة تفسح الطريق فيه للهمود  
الآخر ! ..

فكم بقى محمد من ساعات بموئله المهجور ؟ .. وكم لان تحته  
الحصا والتراب ؟ .. وكم نعمت بمرقدها الخشن عظامه ، ورقأت بعض  
دمع الأنين ؟ ..

فترة من عمره لعلها برهة ، ولعلها سويعات ، ولعلها فوق هذا  
أو دونه وإن كانت لا تحسب بمقياس الزمن لأنها لم تكن في مجال  
الشعور ! .. لكنها ترجمت لبقاء موقوف ، وارتبطت بموئل — قصر  
أو طال مكثه فيه — ليس بالخافي البعيد عن « الجار » اليقظ ، ذى العين  
الساهرة أبدا التى لا تغفل ، واليد الطولى التى لا نحد ذرعها أميال ! ..  
وكيف لا وهذا قدره معه ، قد استدرجه الى مستقره ثم تركه يأمن  
ما شاء وانه ليتربص به لحظة الأجل المحتوم ! ..

ولم تتلكأ عليه النهاية .. فالطريدة أثخنها الإعياء . وكلاب الصيد  
ذات أعين يواظظ ، وآذان لا قطة ، وأنوف مرهفة ، ترى بها الدر

والهباء في فحمة الليل ، وتسمع ديبب النملة في هدير العاصفة ،  
وتشم الريح على مدى المراحل ..

ما كان بعسير على العدوان أن يطلق نغمته وراء الفتى ، تتابع خبره ،  
وترصد اتجاهه ، ونشم حركاته .. وللعرب عامة قدرة على اقتفاء  
الأثر ، ليس يعيها أن تقر ما خطته مواقع قدميه أينما سار ، على  
الرمل وفي الطين ، لتعلم أين أفضى به الفرار ..

لكأن بعض ريح الجنوب قد أسفت غبارها فطمست المواقع ..  
أو كأن جيرة الطلل كانت من مدر ليس يحفظ الأثر .. فالمكان أخرس .  
وحجارة الخربة المتناثرة فوقه صماء . والأرض حولها بلا وشم  
ولا علامة ، كصحيفة في يد أمي لا يعرف كيف يمسك بقلم ! .. والكلاب  
المسعورة التي تراحمت على الأديم الأجرد ، تلف وتدور في ضياع  
وحيرة ، كأن كل واحد منها كان يحاول أن يلحق بذيله ! ..

لكن كبير الكلاب لم ترده هذه الصورة من الخواء عن السعى  
الدائب لإشباع نغمته .. بإصرار عنيد راح معاوية بن حديج ، زعيم  
خارجة مصر ، وصاحب فتنها ، يتابع أثر الطريد . على مدى  
المسافات تابعه ، ومد البصر ، وشطحة الظنون ! .. وأينما وسعه أن  
يحرك قدميه ، أو يوجه رجاله ، أو يتخيل مكانا يؤمه شريد مدعور ،  
راح يستقرئ السمات ، ويفتش الحصى والصخر ، وينشر الأرض  
ويطويها وهو يكاد ينفذها نفذا كأنها بساط ! .. وعندما خذله جهده ،  
وقصر خياله عن تلمس الملاذ المجهول ، أخذ يستشفه في إخلاد كل من  
لقى من عابري الطريق ..

ما ترك معاوية عندئذ أحدا عرض له في طوافه إلا سأل ، ثم  
استفسره ، ثم ألح عليه بالسؤال والاستفسار وهو يجمع الكلمة إلى  
الكلمة ، ويزن الرد بالرد ، ويصفى القول بمصفاة الشواهد والاحتمالات  
لعل خيطا من ضوء ، ولو كبصيص جمرة ، يقوده إلى ما يريد ..

ولم يمل التجوال ، ولا أسامته الخيبة . بل قد كان عناده يتجدد  
كلما باء من بحثه بفشل يبعد محمدا إلى حين عن برائته وأنيابه ، كأنما  
الفشل المتوالى كان وقودا لنغمته يؤرث نارها الحاقدة ويريدها التهابا  
وفورة . وهل لباله أن يهدأ ، ولعينه أن تطبق جفنيها على طمانينة

وغريمه ما برح حر الحركة مطلق السراح ان اختفى اليوم فانه في غد خليك بئن يظهر في صفوف جديدة من اعوانه تتناثر في جوانب الاقليم وتكون مراكز مقاومة تتصدى للجيش الغازى ، وتترصد له بمراصد الهلاك ؟ ..

وان اخيرا لبذرة الحقد ان ثمر ، فاذا ابن حديج يبلغ من الخلاء ناحية على صفحتها اثار أقدام ما زالت ندية لم يطمسها الزمن ولا سفت عليها الريح .. عندئذ عاوده امله ، والحت عليه احقاده ، فاقتفى الاثر على بحر من عرقه ونبضات أنفاسه المشتعلة حتى افضى به السير الى جماعة من علوج الروم تخذل الى الراحة بأعلى الطريق . فما أسرع ما التقط الخيط ! وما أسرع ما كان بينهم ، يرميهم بعين صقر ، ويتفحصهم بنظراته ! .. فلما تبين ان ابن أبى بكر ليس فيهم ، راح يحاورهم ، ويتقصى الأمر .

وسألهم بعد طول استقصاء :

« أرايتموه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

قال :

« هل مر بكم احد تنكرونه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

وأوشك ان يرد طرفه عنهم ، وهو حسير ، ويعود أدراجه ، لولا أن الكلمة التى تحسر المد ، وتنحرف بالتيار ، وتغير المصير قفزت فجأة على شفتى علق منهم ، ينفثها عفوا وهو لا يكاد يدرك لماذا يقولها ، وما اثرها في عقبى الأمور ..

قال العلق ، بلا مبالاة :

« انى دخلت هناك ، فاذا رجل جالس .. » .

وأشار إلى الخربة ..

عندئذ انتفض قلب ابن حديج ، وبرقت عيناه ، ثم طارت به قدماه إلى الطلل البالى وما انتهى العليج من عبارته .. وان هى إلا نظرة مخالسة ، رمى بها من بين أحجار الخربة ، حتى هتف بأصحابه بهمة طروب :

« هو ! .. هو وزب الكعبة ! .. » .

فانطلقت كلاب الصيد تركض إلى الماوى المهجور .. إلى الطريدة المهيضة التى برتها الشقة ، وحطمها الإعياء .

وانصبوا ، فاذا هم كالجرف يدفعه السيل فيملاً الفجاج حوله ويفطى وجه الأرض بما يحمل من حطام .. من كل جانب تراحموا على النائم الذى خدره تعب ، فما أنسحوا له في ثغرة يلتقط منها أنفاسه ..

ولم يكونوا بحاجة إلى الحذر منه ، ولا إلى الأطباق عليه هذا الإطباق الذى يكاد يعصره ، وهو لا يملك يدا للمقاومة ، ولا قدما للحركة ، ولا نهمة ترد عنه عادية خطر ، أو تبلغ به نطاق طمأنينة .. لكن الليث هو الليث . والكلاب حرية بأن تخشاه وهو متوثب في غابه ، أو هامد في اهابه ! ..

ليس بالكلمة وحدها يمكن أن ترسم قصة الأسير .. ليس بالجري ، أيضا ، وراء قدرة التخيل . فالواقع ، في كثير من الأحيان . أبغ إفصاحا عن نفسه وأدق من عبارة تنقله إلى ذهن السامع وكل قصاراها أن تكون ظلا لأصل ، وصدى لهدير ! ..

فوق طاقة البشر ذلك الهول الذي عاشه ابن ابى بكر منذ وقعوا عليه في الخبرة المهجورة . وفوق قمة الشر ذلك العنف الذي عاناه .. من مهاده الخشن اقلعوه فما كانوا ، اذ فعلوا ، ارفق به منك على نبتة انتزعتها ، في لحظة عبث ، من تربتها وليس يعنيك ، أو بضرك ، أخرج سليلة أم يتمزق منها الجذر وينقصف العود .. وفي سربهم الصاحب قاده على الطريق لا يهمهم أن يسوقوه امامهم راجلا يعالج تحريك قدميه أو يجروه زاحفا على الشوك والحصا والتراب ..

بشراسة الفهد ، وخسة النعلب ، وقسوة الزبانية تعاوروه .. كانوا عصابة من الحقد والمقت والضعفينة . خلقا في هيئة بشر وما هم ببشر . أجسادا معتمة ، كالات بلا قلوب ! ..

ولم يحفل بهم . ولا ألقى بالا الى ما يجترحون .. ولم احتفاله وفي دخيلته جانب مشرق ما زال يمدده بشعاع هاد هو ايمانه بانهم لا يملكون له إلا قدرا قدره الله ؟ .. وكيف يكثرث ووعيه الناضب الذي استنزفه الاعياء لم يعد يتأثر بشيء يصيبه ، وبدنه المنهوك قد ارتوى من التعب ومن الآلام الى ما فوق حق التشبع ؟ ..

وكانت مراحل السير عديدة ، طويلة عليهم ذونه . مضنية لهم لا له . فطول المسافة ، وتعاقب الوقت ، كلاهما ينبع من الاحساس بالزمان والمكان ، ولهما أبعاد لا يحددها إلا وعى المرء ، لا عدد الأميال أو كر الساعات ! ..

على الأرض الصلبة ، التي شققها قيظ الصيف ، سار الفتى في موكب العذاب .. الى الفسطاط سار . الشمس فوقه لهب . الهواء

نار . الانفاس تحترق . الفضاء بخار وغبار . . وعندما شارف نهاية المطاف ، كان قطعة من الضنى والتهافت ، ومن الجفاف والنضوب ، كجمرة اكلت نفسها حتى بردت ، وغدت كومة هشة من رماد . او كفصن اجتز من شجرتة ، وترك في ملافح الحر ومهاب الريح فتبخر ماؤه ، ويبس ، وتحول الى هشيم . .

ووقفت الحاضرة المصرية ، على قدم ، تستقبل الأسير . . تتطلع إلى الأفق على تحرق ، وتصفى إلى الصدى والنائمة ، فتسمع خطاه في كل صوت يند ، وترى طلعتة في كل غيرة تثور . . ثم تتعجل لقاءه ، فتستبق الوقت إلى مواعده على جناح الحدس والتوقع لا على ظهور الرواحل وخطوات الاقدام . فالخبر عنه كان طليعة مركبه المرتقب ، بلغها وانه لبعيد محجوب عن الأعين وراء المراحل ، مستور دونها بالأميال ، لأن للخبر دائما قدرة أى قدرة على التنقل واجتياز المسافات - سباحة في الزمن - بسرعة البرق في الأفق وهدة الرعد في الاثير . .

غير ان هذا التعجل الذى كابدته الفسطاط ، ذلك اليوم الصائف الملهب من صفر ، كان ينبعث من عاطفتين متعارضتين ، كلناهما على نقيض . . في جانب كانت اللهفة ، وفي الآخر كانت الشماتة . . فالذين يكونون للفتى المنكوب نفحة ود او اثر ولاء تقطعت نفوسهم عليه حشرات وماتوا موة بعد موة بعدد اللحظات التى عاشوها وهم في انتظار ظهوره وفي خشية من الردى ان يسبق إليه نظراتهم المبعثرة في الأفق ترقبا للموكب الحزين . . والذين يتنفسون الحقد والضعينة راحوا يسوطون الوقت مستحثينه ان يطلع عليهم بالأسير المقهور ليعملوا عيونهم بمحنته ، ويثلجوا صدورهم بمصيره . . وفيما بين أولئك وهؤلاء استوت مدينة الفسطاط نفسا بشرية بشرية بشرية والشر في طبيعة الإنسان انزعا إلى الشفافية والسمو ، ونزعا إلى الظلام والهبوط . . !

اذ ذاك قست قلوب وذابت قلوب . تسعرت أعين وغامت أعين . تلمظت شفاه شماتة وتقمة واختلجت شغاه تفجعا ومرحمة . . على ان مظهر الشركان اغلب واظهر . بل كانت السيادة له في الحشد المنتظر وقد وضع كل مشفق راحم وكل راث حزين على وجوههم اقنعة من

الجمود والتنكر لمشاعرهم اتقاء غضبة الوحش المتحفز في دخيلة الآخرين ..!

لكن فتى من الراحمين آده هذا التظاهر ، فلم يملك نفسه ان يتململ من قلق ، ويضطرب من خشية ، ويتذأب على قدميه يمنة ويسرة لا تستقران تحته كأنما يقف على جمر احمر ..! وكان كالثلمل او كالمحموم . في مقلتيه لهب الحميا أو الحمى ، ونظراته تزيع في الفضاء ، والأرض تدور به وتميد ..

ذاك عبد الرحمن ..! وهى بدنا ونفسا حتى لأوشك أن يتهاوى كحطام . خذله أخيرا رياؤه وخانه تصبره . فما كانت له - قبل - مسكة من صبر تعينه على ما هو فيه وان حرص طويلا على ان يبدى الجلد والثبات .. وما عاد - بعد - يتشبث بأمل موهوم ينسجه خياله ، هو أو هى من خيط عنكبوت ، وارق من شعرة حملت صخرة !. وهل غيره في القوم ، خيرهم وشرهم على السواء ، من كان لا يستشف من خلل الساعات القلائل المقبلة ، ذلك المصير القاتم المحتوم ، الذى ينتظر - لا محالة - أخاه الأسير ..؟

فلعله عندئذ قد أدمى شفته وهو يعض عليها ، ليكظم غيظه ، ويداجى حسرته ، ويخفى بعض ما يعانى أن تشى به ملامحه المهزوزة .. إنه لينقم الآن على صحبه ، وعلى نفسه ، وعلى هذه الدنيا التى استهواه منها العرض والزخرف ، وراودنه عن دينه ، فمال إلى صفها عن صف أخيه ، ينصرها ولا ينصره ، ويخطبها ويتنكر له ، ويسير في ركابها ويدع محمدا في موكب العذاب .. فلو أنه أصفى لاحق لما نابع معاوية وحزبه ، ولكان الآن يستدبر جحيم الهوى ويستقبل جنة الضمير .. ولو أنه اطلع على الغد ، لسمع على لسان أموى خالص ، بأى عصبة ظالمة لحق ، وأى عاهل جائر ظاهر ونصر .. لكن زينة الدنيا أعمته ، ورنين ذهبها أصم أذنيه ، وكثافة طبيعته طمست قلبه فلم يستطع - وهو بين ظهرانى الحزب الباغى - أن يفطن لفيهم ، أفيبراً منهم كما برا معاوية بن يزيد من اثمهم بعد سنين وسنين ..

وهذه هى براءة الخليفة الشاب ..

من فوق منبر دمشق ، راح يكشف للملأأسواة أهله .. كان



عندئذ فتى في ضحوة العمر التى يطيب فيها الانس إلى الدنيا ، متعة  
وسطوة . وكانت امرة الدولة قد افضت اليه بعد أبيه . لكن ضميره  
ابى عليه أن يتعم بالملك فيلبس ثوبا ليس له ، ويسير سيرة أبيه وجده  
الذين ابتزا الحكم من كان له - دونهما - الحق فيه . فاذا هو  
يفاجىء أمته وذويه ، معلنا على الاشهاد :

« أيها الناس .. »

الا إن جدى معاوية نازع الامر اهله ومن هو احق به منه لقربته  
من رسول الله وسابقته في الاسلام . وهو على بن ابي طالب .. ولقد  
ركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته ، فصار في قبره ، رهين أعماله ..  
ثم تقلد أبى يزيد الامر من بعده ، فكان « خير ! » .. أهل له ..  
ركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل . ثم صار في قبره ، رهين  
ذنبه ، وأسير اثمه .. وان من اعظم الامور علينا علما بسوء منقلبه .. »  
واستطرد الفتى الذى استنارت بصيرته ، وعجزت الدنيا أن  
تخدعه وتأخذ منه :

« أيها الناس .. »

ما انا بالمتقلد امركم ، ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فاختراروا لانفسكم ..  
والله لئن كانت الدنيا خيرا ، فلقد نلنا منها حظا . ولئن كانت شرا ،  
فكفى ذرية ابن أبى سفيان ما اصابوا .. » .

لكن عبد الرحمن بن أبى بكر لم يكن في صفاء معاوية بن يزيد ،  
ولو كانت له نفس زاجرة .. وان يكن شيء قد حرك الآن قلبه فهو  
موقفه بين جماعة غرقت في حماة الكراهية ، واخذت تتلمظ كالوحش  
لتنهش لحم أخيه .. فما كان اغيظ له من هذا الموقف الذى غرسه  
فيه القدر كما تغرس الزرعة في ارض محل ، فلا بتربتها ماء ولا بسمائها  
غيمة .. وما كان اقسى عليه من لحظة لن تلبث أن تقبل فيرى ابن أبيه  
لقى مضيقا على الثرى ، أمام بصره ، وليس بمقدوره إلا أن يحضر ،  
مع الحشد الشامت ، مصرعه بعين جامدة ، ولسان أخرس ، ويد  
شلاء !...

ولم يعد يطيق الانتظار .. بل انتفض يبارح الجمع ، وينطلق

كزوبعة مجنونة!.. ليس عن بقضة روح ، ولا استنارة بصيرة كان  
سعيه . ليس في نصرة الحق ومحقق الباطل كان انطلاقه .. لكنه انعطاف  
الأخوة ، ونداء الدم ما وجه قدميه الى ابن العاص يستنجد به  
ويستعينه ان ينقذ الأسير المقهور من براثن جلاده .. فللقربى ، حيناً ،  
قوة غامرة على تنقية النفس البشرية من الشر قدرتها ، أحياناً ،  
على تجريدتها من الخير!..

وخاطب قائده الظافر بصوت محموم :

« ابعث الى معاوية بن حديج فانه!.. » .

فأظهر له عمرو جانبه اللين ، اعلمه ان يهدأ بعض هدوء ..

لكن روعه لم يسكن .. وصاح :

« لا والله ، لا يقتل أخى صبراً... » .

واستبدت به ثورة عاطفته .

حينئذ ارسل ابن العاص رسولا الى معاوية بن حديج ، يقول له :

« أئتنى بمحمد .. » .

غير ان الجلاد كان أنأى سمعا عن الاصفاء لهذا الأمر الذي انبعث ،  
لا ريب ، عن مروءة عارضة ان لم يكن عن مراعاة ، قبل ان ينبعث عن  
اقتناع بضراعة الضارع أو ايمان بحق الأسير .. فما ان سمع الرجل  
قول الرسول حتى عقد جبينه ، وضيق عينيه ، وبرز نابيه ، ثم أفاض  
من حقه على ملامحه كأنما كانت لذلك الأمر سن حديدة وخزت قلبه  
فأسالت من الكراهية بعض ما فيه!..

وبكل مرارة الشماتة ، وبكل حرارة البغضاء ، اجاب بلهجة كضربة  
السيف :

« لا والله!.. اقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمى ، واخلى عن محمد!..  
هيهات هيهات!.. » .

ثم تلا ، وهو يسخر :

« اكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة في الزبر!.. »

وانثنى يتفرغ لآسيره ..

ما الذى بقى من محمد ؟ ..

سوى قوة ايمانه ام تكن فيه عزيمة تقيمه بينهم مشدود القوام كالرمح ، شامخ الراس كالجبل ، متدفق اليقظة كشعاع النور .. طوال الطريق إلى الفسطاط ، في لفح القيظ وعلى جمر الرمل ، لم تلق لهم قناته .. لم يخفض أنفه .. لم يغض من طرفه الى مواطنه ، لم يذل لجلاديه بكلمة ولا ايماءة . انما ظل على ترفعه وكبريائه ، متساميا على الضعف والتعب والالام ..

ونداكت المدينة ، من بعد ، عليه بكل صخبها وشغبها ، وما استبطنت او اظهرت من امتهان وشماتة . فما اكرث . ولا استقبل هديرها الوحشى باهتمام .. إن يكنلقى أذنه مليا إلى الضجيج ، ورمى عينه ، فلا من رهبة فعل ، بل من تطلع تلقائي صادر عن طبيعة المهمة الوظيفية لكلا حاستي السمع والبصر فيه ! .. فالجموع الحاشدة حياله لم تزد ، في خلده ، عن مجرد صورة مسطحة بغير عمق ولا بروز . وهرج الاصوات المنبعث عن الحركة او الصياح ، لم يكن غير صدى طرقات على طبل أجوف ..

حتى حين وقعت عيناه على ابن العاص بين الحشد المتربص ، لم يحس في قلبه حسرة ، ولا بحلقه غصة . فما قصارى الرجل ؟ .. وما قصارى حشوده وجنوده ؟ .. وما قصارى البشر كلهم أن يفعلوا به إلا ما قدر له ؟ .. إن نفسه لمطمئنة إلى قضاء الله ..

ولم يكن ، بعد رحلته الشاقة ، يكاد يشعر بجوع . فبطنه قد التصق بظهره ولم يعد بجوفه فراغ لطعام ! .. وشهوة الاكل تفتت مع طول الطوى كما تخدم النار اذا غاب عنها الوقود ! .. لكن الجسد الذى أضواه الاعياء ، واعتصره الحر ، كان يهفو - كالغصن الذابل - الى ما يربط جفافه ، ويبل صداه ..

وتلفت ولسانه قد التصق بحلقه ، يسال من حوله بصوت خشن  
متعثر ، كأنما كلماته تضطرب في شقوق حلقه الجاف :

« اسقوني .. »

وحسب نداءه قد تاه في صخب ضجيجهم حينما لم يستجب له  
مجيب .. فعاد يقول :

« .. قطرة ماء .. »

فكم في القوم عطفهم الرحمة ، ورقت نفوسهم لرغبة الفتى الذى  
أحرقه الظمأ ، وأوشك الصدى أن يستنزف ما بقى فيه من حياة ؟ ..  
ان تكن كثرة ، أو قلة ، في الحشد الزاخر تحركت قلوبهم في جنوبهم  
حنانا ، فان واحدا منهم لم يجسر على التلبية وان أرهف السمع  
للاصغاء ..

وعلى الأثر وثبت ضراوة الوحش من صدر ابن حديج وثبة  
زلزلت كيانه ، وسمرت ناظريه ، وبعثته يفع كالأفعوان :

« قطرة ماء ؟ .. لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا ! .. »

فمن اية شرعة استقى هذا الحكم الهمجى المتكرر لكافة القيم  
الانسانية ومبادئ الاخلاق ؟ .. امن شرعة الحرب ، والحرب لا تستبيح  
دما إلا في ظلال الأسنة ، واوان التراشق بالهلاك ، ثم تحققه ، حين  
تسكن رحي القتال ، على الأعزل والمغلوب والأسير ؟ .. أم من شرعة  
القصاص ، وانها لعين بعين ، وسن بسن ، وقتيل بقتيل ؟ .. أم من  
شرعة الوحش في غابه وهى عندئذ تنازع على البقاء يمارسه احتفاظا  
بحياته لا رغبة رعناء في تبديد حياة كل ما عداه ؟ ..

لكنه اسلوب معاوية بن حديج في القضاء ! ..

وتلبث الرجل المدل ببأسه على من لا يملك دفع الضر عن نفسه  
بالبنان دع السنان ! .. فلما ان لقف بعض لهثات حقه التى شاطت  
على نارها شفتاه ، حاول ان يبرر مسلكه ، فأردف ، وهو مزهو ،  
مصعرا خده يقول في شماتة :

« .. انكم منعمتم عثمان ان يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما ،

فسقاه الله من الرحيق المختوم . . . . والله لاقتلك يا ابن ابي بكر  
وانت ظمان ، ويسقيك الله من الحميم والغسلين ! . . »

فلم يهز وعيده شيئاً من شجاعة محمد ، ولا شاب ايمانه بشائبة  
شك ، بل زاده ثباتاً دفع الكلمات تتدفق كالحمم من فيه :

« يا ابن اليهودية النساجة ! . . ليس ذلك اليوم اليك ، ولا الى  
عثمان . انما ذلك الى الله يسقى اوليائه ، ويظمى اعداءه وهم انت  
وقرناؤك ومن تولاك وتوليته . . والله لو كان سيفى في يدى ما بلغت  
منى ما بلغت . . »

فحمى غضب الجلاد ، وصاح :

« او تدرى ما اصنع بك ؟ . . »

فتساءل الاسير دون اكتراث :

« وما تصنع ؟ . . »

فكأثما اثاره هدوء غريمه ، فقال واسنانه تصرف من غيظ :

« ادخلك جوف هذا الخمار الميت ثم احرقه عليك بالنار ! . . » .

واشار الى جيقة ملقاة ، اعداها لغرضه الخبيث .

فما زاد وعيده الفتى الا سكينه رسمت بسمة رقيقة على شففيه  
ونورت محياه . .

وقال محمد وثقته في ربه تتدفق من فيه :

« ان فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله . . »

ثم اجتاح بنظراته الثابتة المطمئنة جمعهم الحاشد ومن ضم من  
رعوس واذناب ، ومضى بلهجة المؤمن يكمل الحديث :

« . . . وايم الله انى لارجو ان يجعل الله هذه النار التى تخوفنى  
بها برداً وسلاماً كما جعلها الله على ابراهيم خليله . وان يجعلها عليك ،  
وعلى اوليائك ، كما جعلها على نمرود وأوليائه . . . وانى لارجو ان  
يحرقك الله وامامك مساوية ، وهذا . . » - ورمى بمين الى  
ابن العاص - « . . بنار تطفى ، كلما خبت زادها الله عليكم سعيراً . . »

وكادت هذه العبارات النابعة من ذوب قلب عارف بحقه ، مؤمن بقضاء الله ، تتجسد كيانا مخلقا له شواظ ودخان وحسيس ، يحيط بمعاوية ابن حديج ويملك عليه الفضاء حتى لأحس لسعا للنار يحرق أنفاسه ، ويهراً جلده ، ويشوى عظامه !.. فإذا هو يرتج من رهبة ، ويتداعى من خوف ، ثم لا يجد لنفسه سبيلا إلا أن يبرر فعلته ، ويقدم بين يديها العذر الذى يسندها لعله يشفع له فيخفف عنه أو ينجيهِ !..

قال وصوته بشى باضطرابه :

« انى .. لا اقتلك ظلما .. انما .. اقتلك بعثمان ... »

فلم يمهله محمد حنى بادره :

« وما أنت وعثمان ؟ .. »

وتريث هنيهة ، فلما لم يسعف معاوية لسانه ، استطرده يقول :

« ... رجل عمل بالجور ، وبذل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » — « فأولئك هم الظالمون » — « فأولئك هم الفاسقون » ... فنقمنا عليه اشياء عملها ، فأردنا أن يخلع من الخلافة علنا ، فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس ... »

ولا مجادلة هنا لما أحدث عثمان أو قارف ، أيوفي به فعله على ما يحل دمه ويستبيحه ، أم هو الحدث الذى تختلف فيه الآراء وتتفرق المذاهب بين طرفي العقوبة من تقرير يتسع للعفو الى تحريم يوجب القصاص ؟.. ولكنه ، على أى حال قد أحدث ، وركبه الناس في حدثه بعنف غالوا فيه حتى اغتالوه . ونهز بنو أمية الفرصة ، سعيا وراء السلطان ، فألزموا عليا دمه ، تارة بحجة أنه مالا ، وأخرى بحجة أنه أمر ، وإنهم لعلى بينة من أمره ، يعلمون أنه على كلا الحالين برىء .. فإذا لم تكن الحقيقة أسفرت عن وجهها لهم وهم في مستهل افتراءهم عليه ، فانه بادر فطالعهما بما يفند ادعاءهم ، ويدحض تهمتهم ، بالحجة البالغة التى يعلمون صدقها ثم لا يمتري فيها إلا ممار مغلف القلب والجنان ...

في ذلك المقام قال الامام :

« .. او لم ينه بنى امية علمها بى عن قرفى ؟ .. او ما وزع الجهال  
سابقتي عن تهمتي ، ولما وعظهم الله ابلغ من لسانى ؟ .. »

بلى لقد علموا . راوا الحق وتعاموا عنه . وحسب عليا نافيا  
لتهمتهم ان فضله معلوم لهم ، يرتفع به عن كل دنية ، وسابقته تطهره  
وتنأى به عن كل معصية . ولقد بين الله لهم في كتابه فقال عنه وعن  
زوجته وبنيه :

« انما يريد الله ان يذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهركم  
تطهيرا .. »

وقال الرسول الكريم له :

« انت منى بمنزلة هارون من موسى .. »

فاذا لم يكن في منزلته العالية في الدين التى لم يبلغها غيره من  
المسلمين ما يكف السنتهم عن رميه بهذه التهمة الفاحشة ، واذا لم  
يكن في شهادة الله وشهادة رسوله ما يعصمه عن مقارفة ما طعنوا  
به عليه ، فأى النازل اذن واى الشهادات تركيه ؟ ..

كيفما تعنت القوم واستطابوا البغى ، فقد بدا ابن حديج كان  
قد جبهته عبارة الأسير ، واشعرته الهوان وذهنه عندئذ يسبح في  
عالم رحب من ذكريات الدعوة الاسلامية ليس من بينها الا ما يسمو  
بشأن على وينزل بشأن مناوئيه .. لكأن قدره انكفات ، وكأن كفته  
شالت ، وكان محمدا ، وهو متهم ، قد غدا قاضيا يحاكم قاضيه ! ..

إن سطعة الحق التى انبعثت عندئذ من عبارة ابن أبى بكر ، تومض  
كالبرق من ثنايا الضمام ، قد خالجت بصيرة معاوية بما جعلها تطرف  
كعين النائم حين يفتحها بعد ظلمة الوسن فيفجأها النور . وبادرت  
قلبه الاصم بهدرة الرعد التى تصاحبها فهزته وزلزله بين جنبيه ..  
لكنها ومضة موقوتة ، ورجفة الى اجل معلوم ليس عمره في حساب  
الزمن الا مقدار ما تمكك لمعة البرق في جانب الافق المعتم او تعيش  
العرشة على هذب محموم ! .. فالعيون العمياء قد تحس الضياء  
ولكنها لا تراه ثم لا تتأثر به ولا توليه حقه من التقدير . والقلوب

الغلف تعلم بالرحمة ولكنها لا تمارس الرحمة . ومعاوية بن حديج ،  
كأبما رجل غيره في الجمع الزاخر المحتشد على ضفينة وموجدة ، قد  
كمه قلبا ، وعمى بصيرة ، واختنق في دخيلته صوت الضمير ..  
ما من امرئ في الجمع ، تلك اللحظة ، إلا كان يعرف الحق  
ثم يباعد ما بينه وبين نفسه لكي لا يجمعهما طريق . ما من امرئ  
إلا أثر المكابرة والالتواء لأنه كالخفاش لا يستطيع أن يعيش في النور  
.. حتى عبد الرحمن الذي عطفته رحمه حيناً على محمد ، وقف في  
القوم كالمسحور ، لا يعرف كيف يحرك بنانا لحماية أخيه ، وقد  
استغرقه حرصه على دنياه ، أو جمدته ، في القليل - صعقه ذهول !  
وحتى ابن العاص ، الذي نبدى منذ أيام قبيل الواقعة ، مترفقا بالفتى  
يضمن بحياته ، ومنذ ساعات حريصا على تجنبه بطش معاوية ،  
لاح كان قد أخذته سورة حقه ، فاستمر الفاجعة ، وراح يتابع  
آخر حلقة فيها بلذة المستمتع المشغوف ! ..  
وكذلك بدا المشهد الأخير ...

بعناء المكابر ، وعتو الطاغية ، مشى ابن حديج على مدرجة ضفينته  
إلى ابن أبي بكر .. خطواته بطيئة ككابوس . عينه باردة كعين ثعبان .  
هيئته كئيبه كالموت ... وقبل أن ترتد عنه نظرة ، وتتبدد في الهواء  
زفرة ، سقط أسيره الأعزل على الثرى في كف من دم ! ..



قضى الحقد من ابن ابى بكر وطره ..

قتله معاوية بن حديج . ذبحه كما تدبح سائمة ، وانه حينذاك لوحيد بلا صاحب ، أعزل بلا سلاح ، معدم لا يملك فدية تشتري نفسه ان نسيل دما مسفوحا على نرى الفسطاظ ..

جهرة كان مصرعه . على ملا ذبحه الطاغية غير متأثم ، وما من القوم من رفع بنانا يزجر ، أو حرك لسانا ينكر .. انما استقبلوا الحدث البشع على هدوء وسكينة ان لم يكن على رضى واقرار .. وكم منهم من طرب قلبه !.. وكم منهم من سالت الشماتة على شذقيه !.. بل لعل جمعا كبيرا منهم قد اختلط هتاف نشوته بقصفة السيف وهو يهوى فيفصل الرأس عن عنقه ..

ولم يدر احد اين توارت شيم المروءة والنجدة وغوث الملهوف التي لا زالت دائما طبيعة الإنسان العربى وكانت بضعة من سجاياه . لا شيء منها بدا أو ظهر . لا هيئة ولا اثر . لكنما انسى القوم نحلتهم وانسلخوا انسلخا من خلائقهم الكريمة في نزوة عاصفة من نزوات الهمجية التي لا تجرد المرء من جنسه فحسب وانما تجرده ايضا من انسانيته ..

وأردف معاوية بن حديج ضغن القتلة بضغن المثلة . فما سقط صريعه ينتفض بدنه ببعض رجفة الحياة فيه ، حتى اشار الى زبائنه فاحتملوا الجسد والرأس جميعا والدم يلطخ ايديهم فوضعوهما في الدابة النافقة ، يخلطونهما بأحشائها ، ثم يفلقون عليهما بطنها المبتور .

واشعلوا الخطب . وعلقوا محمدا مغلفا بجثة الحمار يشوونه واياها في اللهب المتأجج ، وهم يقلبونه على السنة النار وجمرها المتقد كما تقلب الذبيحة على السفود استعدادا لوليمة !..

ما كان أفظعها مثلة !.. وما كان أعتاها قسوة تلك الأنفس التي وقفت تشهد هذا الحفل الذي يكرمون به الشيطان !..

فلمن الغلبة ؟.. لمن عقبى الأمر اليوم ؟.. لمن الخاتمة التي انطوى بها سجل الفتى وراحت بعدها حياته سيرة على شفة راوية وبين أسطر كتاب ؟.. لا لله ، ولا للحق ، ولا للمبادئ الرفيعة والمثل العليا وقيم الفضيلة التي شرعها الدين .. بل الوحشية القابعة في جوف الإنسان هي التي نهشت الجسد الممزق وراحت تلتهم لحمه وعظمه .. بل بفضاؤهم الصديانة هي التي ارتوت من دمه ..

عندئذ جف من قلوبهم نبع إنسانية البشر ، وتمزقت شريعة الله ثم احترقت وتناثرت رمادا ، كبدن الأسير ، تحت الأقدام . وانتصرت الجاهلية العمياء وعزت كعهدا قبل الإسلام ..

مع الريح ذهب هدى القرآن . امحت تعاليمه . انطمست معالم تلك الأمثال التي ضربها محمد رسول الله للناس تساميا بغرائزهم الفجة ، ونكريما وتحقيقا لإنسانيتهم ، وتنزيها لهم عن الانحدار في حمأة الحيوانية .. ولو أن بتلك الطغمة المتجبرة الضالة من له قلب يعى وذهن يذكر ، لكره القتلة والمثلة جميعا ثم أباهما على أصحابه المقترفين وردهم عنهما ردا جميلا أو غير جميل ، وله في الرسول الكريم الأسوة ، وفي القرآن المنهاج ..

لو استرجع القوم أمسهم الداني ، وعادوا إلى الوراء صفحة من تاريخ الهدى النبوي ، لراوا رسول الله على أرض أحد يتلمس ، بعد المعركة ، عمه حمزة في القتلى . فاذا عثر به ، ووجده مبقور البطن قد اقتلعت كبده من صدره وألقيت ممزقة على الثرى ، أخذه من الحزن ما يطير بالجنان فقال وهو محنق ينجيه وبعده الانتقام :

« لن أصاب بمثلك أبدا .. ما وقفت موقفا قط هو أغبط إلى من هذا .. ولئن أظفرن الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم .. » .

لكنه لا يلبث أن يهدأ ويصبر ، امتثالا لأمر ربه :

« وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم .... »

ثم ينهى المسلمين عن المثلة :

« اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .. »

ولو استرجع القوم ايضا اسمهم الدانى ، وعادوا صفحة أخرى إلى الوراء في تاريخهم ، لذكروا أن أصحاب محمد الذين خلفوه في أمته ، قد ساروا على سنته ، احتذاء بهديه ، ورعاية لكرامة الانسانية وإن في شخص عدو مشاق لدود يتنسب بكفره ، ويدودهم بالسلاح أن ينشروا دعوة الله .. وها هم أولاء لا ريب قد أدركوا أبا بكر الصديق أبا القتيل ، وسمعوه يقول لأسامة وجيشه وهو يتقدمهم إلى الشام :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. »

ولقد كان أخرى امرىء فيهم بأن يلتزم هذه الجادة عمرو بن العاص صاحب أمرهم وقائدهم اذ اجتاز نجربة خالف فيها الخلق الاسلامى وغدا بها محور لوم الخليفة الأول وتثريبه ..

كان اذ ذاك على رأس القوات العربية المغيرة لفتح فلسطين والاسلام عندئذ في مطلع فجره ، فلما اظفره الله النصر ، واستخفته الفرحة ، شاء أن يدل بالظفر الذى حازه عسى أن يرتفع درجة في عيني الخليفة ، فبعث إليه بالمدينة بشرى نصره ، رأس بنان بطريق الروم ، أعدى اعداء المسلمين ، واشد قومه عليهم في ساحة القتال ..

ولم ترض القعدة أبا بكر ، بل روعته واستخطته على عمرو . وكانما شاء بعض من حضر الموقف أن يهون الامر عليه ، ويبرر مسلك القائد الظافر فقال له :

« لكنهم يصنعون ذلك بنا ، يا خليفة رسول الله .. »

فلم يزد هذا العذر الا ثورة .. وزجر محدثه في انكار :

« أتستنون بفارس والروم ! .. »

ثملقى بأمره :

« .. الا لا يحمل الى رأس . انما يكفى الكتاب والخبر .. »  
هذا هو رأى الاسلام ، وجادة سلوكه مع المسلم وغير المسلم على

السواء اذ هم جميعا ، في حساب خالقهم ، وبمعيار قيم الاخلاق ،  
بشر كرمهم الله ، وفضلهم على كافة خلقه ..

غير ان الطغمة الجائرة المتجبرة جنحت الى جاهليتها الاولى تحيى  
شرعتها البالية . وتقتدى القدوة التي لا يطيب لها ان تقتدى بسواها ،  
متنكرة لقيم الانسانية ، ومخالفة قواعد الدين .. وهل كان ادنى  
الى نفوسها المدخولة ، واقرب الى قلوبها الغلف الصماء التي لم يمس  
منها الاسلام غير قشرتها ، من تلك القدوة الاموية التي رسمتها هند  
ابنة عتبة ، ام عاهلهم معاوية ، وانحدرت مع دمها في عروقهم بطنا  
في عقب بطن ، وجيلا في اثر جيل ؟ ..

وما لها لا تكون قدوتهم وها هم اولاء يبارونها في الضراوة ؟ ..  
لكأنهم آنروا احياء سنتها ، إمعانا في الحقد واتباعا لنهمه ، فاستحضروها  
في اخيلتهم وهي تدور كالضبع على ارض معركة احد تعبت بالقتلى ،  
فتلعق الدماء وتنهش الأشلاء ! .. لكأنما طاب لهم ان يروها بعين  
التصور - وقد اغرت بحمزة من قتله - ان تاخذ جثته وتبقر بطنه  
وتقتلع كبده ثم تلوكها في فيها كلبوة لتأكل منها ما لعلها تسيغ ! ..  
لكأنما استهواهم ان راحت ، وصواحبيها القرشيات ، يجدعن انوف  
شهداء المسلمين ويقطعن آذانهم ، ليتخذنها لهن حلبة : عقودا وقلائد  
تزين الاجياد والصدور الملساء ! .. لكأنما شاءوا لاتفسهم ان يغدوا  
حلقة في سلسلة المثلة التي تصل بين بنت عتبة وبين حفيدها يزيد  
ابن معاوية إذ اندفع زبانيته يتلعبون بجثة الحسين سبط الرسول ،  
وقد اصببت بسبعين طعنة ، فيدوسها عشرة من فرسانهم بخيلهم  
مرارا مرارا ، ذهابا وجيئة ، حتى دقوا عظمها وهرسوا لحمها وسووها  
بالارض ، فلما اعياهم التركاض احتزوا راسها وحملوه لسيدهم  
ينكت في ثغره بفضيب معه ، تشفيا وشماتة ، محطما ثناياه ..

تلك طائفة من الناس كان التعذيب - فيما يلوح - لديها ملهاة ،  
وكانت المثلة تسلية ! ..

لو كان بهذه الفئة فضلة من طباع السباع - دون البشر - لعافت  
ما فعلت بابن ابي بكر بعد مصرعه ، ولانفض سامرها الخبيث ذلك  
اليوم بشهود راسه وهو يسقط على شفرة سيف ابن حديج ما دام  
حقدًا حملها على قتله .. فالوحش قد يصرع فريسته دفعا لاذاها

عن نفسه ، وقد يلتهم لحمها سدا لجوعته وحفظا لحباته ، ولكنه يدعها ولا يتلاعب بعد هذا بجيبتها ما دام قد قضى منها وطره ..

أفكانوا اذن قوما - كما تضمنت سيرتهم - شغفوا بالشر وكلفوا به يجترحونه لذاته ، ويقترفونه للذاته ؟ .. بارئهم أعلم بهم ، وبما اكنت قلوبهم وركب في طبائعهم .. ولكنهم دائما دائما مضوا على هذا السنن لا يخرجون عنه . فاذا أعوزهم من عدوهم ما يبيع - في شرعتهم - تعذيبه وقتله والتمثيل بجثته ، لجأوا الى ركوبه بهجر القول ومقدع السباب إدلالا عليه بسطوتهم وإذلالا له . وحين خلا لهم الميدان من بعد ، واستطاعوا أن يخفتوا صوت الحق ويرزأوا اهله مجردينهم من كل سلاح حتى سلاح الكلمة ، غلوا في الفجور الى غايته ، وراحوا يفظعون في تحطيم اقدار خصمهم وتشويه سيرتهم على الأشهاد وهم آمنون منهم أن يدفعوا الافتراء عن انفسهم ، ويكيلوا الكيل لهم بمثله .. حالهم كحال المبارز الذي ينازل خصمه بعد أن يشد وثاقه ! ..

عواهل امية وعمالهم أسرفوا في هذه النزعة ما شاءوا وشاءت الضفينة ، ينالون بأذاهم عليا ومن تبعه ، اهله وصحبه ، موتى واحياء .. ولقد اخذ معاوية يسبه ويفرئ به رجاله يلعنونه على المنابر .. ولقد قيل انه لم يقلع من هذا الفحش بعد موت الامام ، بل أمعن فيه .. فما أن افضى اليه الأمر ، عام الجماعة ، حتى كتب - وعهد الصلح بينه وبين الحسن بن علي لما يجف مداده - يأمر عماله :

« برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته .. »

ثم تعقبه وخلقائه ، في نسله وفي شيعته ، يطاردونهم وينكلون بهم في الذات وفي المال ، لا يجيزون لأحدهم شهادة ولا يؤدون له عطاءه .. وكم اهلكوا من حرث وأحرقوا من دور ! .. وكم عذبوا ستملا للأعين وقطعا للأيدي والأرجل ! وكم قتلوا وصلبوا على جذوع النخل وحملوا رءوسا على الحراب ! .. لقد كانوا يأخذون الناس بالظنة ، وبالقربى ، وبالصلات الفكرية ويجتاحونهم بالحملات الارهابية حتى أن الرجل منهم ليقال عنه : زنديق أو كافر ! سلم له وأبقى عليه من أن يقال من شيعة الامام ! ..

ومع ذلك فلم يعدم الزمن أن يطلع لهم من يثبت لبغيتهم وهو مجرد من كل سلاح الا كلمة حق تنبعث من ايمانه وتلصق بشفتيه فاذا هو لا يكتمها بل يلفظها في وجوههم وان كان فيها حينه !.. من هذه الشاكلة التي التزمت الهدى واستمسكت بقداسة الراى : قيس بن مھر الصيداوى ، رسول الحسين الى ابن عمه مسلم بن عقيل بالكوفة .. دخل البلدة ومعه رسالة تعلن لمسلم مقدم ابن عمه بعد اذ دعاه اهلها وباعوا له ، فاذا هو بقع في يدى عبيد الله بن زياد عامل بنى أمية عليها بعد ان خانت الكوفة عهدا ، وتكثت كلمتها ، وصبأت ثانية الى طعة يزيد ...

وجيء بقيس اسيرا فلاينه عبيد الله مليا ، كأنما سيفسح له في عفوه ، حتى إذا حسب انه اطمأن ، قال يغريه بلعن الحسين وابيه على الأشهاد :

« اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب .. »

فأظهر الرجل الانصياع . واعتلى الدار يشرف من فوقها على اهل الكوفة ، فلما اجتمع ملؤهم ، خطبهم يقول :

« أيها الناس .. هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وابن فاطمة بنت رسول الله ، قادم عليكم .. وانا رسوله اليكم .. فأجيئوه .. » ثم تمهل قليلا وصاح :

« اللهم العن عبيد الله بن زياد واباه .. اللهم العن .. »

ولم يكفه عن ترديد لعناته الا أن أمر ابن زياد رجاله فآلقوا به من فوق القصر ..

وحتى النساء اقتحمن هذا المجال المحفوف بالمكاره ، غير هائبات غشما ولا خائفات لسطوة وانهن انى احلك الظروف واشدها عليهن وجبروت القوم عندئذ على ارفع ذراه .. وهل نمة احلك من يوم مقتل سيد الشهداء وآل بيته وصحبه ؟..

كان ذلك وقد حملت الرؤوس بعد المذبحة الى يزيد ، واحاط به ذووه وأشراف اهل الشام ، فدعا بمن سلم حيا من اهل الحسين ، صبية ونساء فأدخلوا عليه ..

وكانما عطفت الرحم يحيى بن الحكم ، اخا مروان عليهم وقد غاب  
عنهم سيد بيتهم بأجله ، وخلفوا وراءهم رجالهم جيشا على ارض  
الوقعة تصهرها الشمس وتسفى عليها الريح ، فقال وهو يرثى لحالهم ،  
ويذكر قرابتهم :

« اهام بجانب الطف أدنى قرابة  
من ابن زياد العبد ذى النسب الدغل

سمية امسى نسلها عدد الحصى  
وليس لال المصطفى اليوم من نسل »

فعاجله يزيد بضرب في صدره ، ليكفه عن رفته :

« اسكت !.. »

وجلس الصبية والنساء ينتظرن ما يكون من العاهل . فاذا رجل  
من رجاله قد اخذت عينه فاطمة ابنة الحسين ، اذ رآها وضيئة ريانة ،  
يقبل على يزيد يحدثه :

« يا امير المؤمنين .. هب لى هذه .. »

وارتاعت الصغيرة . وملكها خوف غامر دفعها ان تلتصق بزئب ،  
وتستتر بها عن هذا الشامى الاحمق ، تلتمس عندها الحماية ..  
وعلى الأثر انبرت زئب للرجل تزجره ، وتضعه حيث يجب ان  
يكون :

« كذبت والله ولؤمت !.. ما ذلك لك ولا له !.. »

واشارت الى يزيد ..

فأغضبت العاهل الأموى جراتها التى لعله رآها تنتقص من  
سلطانه ، وتخفض مقداره في أعين بطانته ، وصاح بها مدلا بجبروته :

« بل كذبت انت !.. والله ان ذلك لى ، ولو شئت ان افعله

لفعلت .. »

كانما آل الرسول قد غدوا ملك يمينه ، يبيع منهم من شاء ،

ويهب من شاء لمن شاء !..

لكن ادعاءه لم يرهبها ، واجابت :

« كلا والله !.. ما جعل الله ذلك لك الا ان تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .. »

فاستطار غيظا ، وألحت عليه المكابرة فعصف يقول :

« آياى تستقبلين بهذا ؟.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك .. »

قالت وراسها رافع وأنفها اشم ، ترد عليه الرد الذى لا رد غيره يقومه ويخزيه :

« بدين الله .. دين جدى وأبى وأخى ، اهتديت أنت وأبوك وجدك .. » .

فلما أبى إلا اللجاج وقال :

« كذبت يا عدوة الله .. » .

اجابته في هدوء :

« أنت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسططانك !.. » .

وكان قولها فصل الخطاب ..

.. لا مرأى اذن في جنوح اولئك القوم الى الغشم ، ما انفسح لهم ميدانه ، وتوافرت لديهم وسائله . يقارفونه بالفعل والقول : مثلة وقتلة وتعذيبا ، أو لعنا وشتما وافتراء على الخصم وهم آمنون منه ان يرد فعلهم وقولهم عليهم ، لانهم يملكون دونه سطوة البطش وصولا الارهاب ..

وكذلك فعلوا ، يومهم هذا ، بابن أبى بكر ..

عذبوه ، ثم قتلوه ، ثم أحرقوه وهو لا يملك دُفعا عن نفسه الا بالكلمة .. لهوا به ما شاءوا ، ليطعموا الحقد ويرووا الشماتة .. صباوا إلى شرعة جاهليتهم العمياء فثاروا ومثلوا . وهم بين الثأر وبين المثلة يجدون المتعة التى اياها يحرمهم القصاص العادل ، او الصفح الكريم ..



وتصاعد حولهم في الجو دخان لحمه المحترق وان انوفهم لتكاد تنتهيه . وان لعابهم ليوشك معه ان يسيل كحال الجائع المتضور يلتذ بريح الشواء قبل التهامه !.. ام لا فكم منهم من تقزز وقرف والنار تتلهب وتشوى امامه جثة آدمية يفوح منها ما يعلا خياشيمه ؟.. كم منهم من غنت نفسه فجهد ليعبد عن الوليمة الكريهة ؟.. كم منهم ، في اقل القليل ، من حاول ، ولو باللسان ، ان يدعوهم الى سلوك مسلك غراب ابنى نوح ليواروا سواة القتل وهو - ما بلغت العداوة - اخ لهم في الانسانية ؟..

وبلغ هذا البلاء عائشة فأذهلها النبا ، وجمد الدمع في مآقيها ان تذرفه ، وحبس الحزن في صدرها ان تنفثه حتى آدها الكظم فتسخت دما وهي تلجأ الى الله بمسجدها ، تبثه شكواها في وجوم ، سليبة اللب مثقلة القلب معقودة اللسان .. وعندما وسعها من بعد ان تثوب ، حرمت على نفسها الشواء لا تذوقه ما عاشت .. وكيف تسيغه وهو لحم كلحم ، ورائحة كرائحة ، يستحضران امامها جثة أخيها وهي تشوى على النار ؟..

وظلت السيدة حياتها مكروبة ، تجتر أساها على محمد ، ولا تتوقف عن هذا الاجترار كأنما لتعيش مع الاخ الحبيب في حزنها عليه !.. ولم يكن في طوقها ان تأخذ له من جلاديه فقد وكلتهم الى الله . ولكنها اخذت نفسها بما في قصاراها فاستراحت الى الدعوة عليهم ، كلما عثرت هتفت في لهفة وألم من قرار فؤادها المحطم المصدوع :

« تعس ابن ابى سفيان !. تعس ابن العاص !. تعس ابن حديج !. » .

وصدق رسول الله .

فلقد أوشك من قبل ان يلهم نبأ هذه المحنة الذي ختمت حياة محمد بن أبى بكر وانه عندئذ حمل مستور في بطن أمه لم يكشف الغيب عنه .. ومن غير رسول الله أولى بأن يفتح له ربه ، حين تشاء قدرته سبحانه ، ابواب غيبه ، ليطلع من خصاصها على بعض ما فيه ؟.

ذاك ما تجلى له في رؤيا أسماء ، ذات ليلة في مستهل الدعوة ، وقد خرج ابو بكر في غزاة .. فقد رأت السيدة زوجها الغائب ، في المنام ،

مخضوب الرأس واللحية بالحناء ، وعليه ثياب بيض . فأقبلت تقص رؤياها على عائشة ، وتلتمس من لدنها التأويل .  
وربعت عائشة لما سمعت ، وجزعت على أبيها . . ولكنها صارحت السيدة :

« ان صدقت رؤياك فقد قتل ابو بكر . . ان خضابه الدم ، وان ثيابه اكفانه » . .

وند دمع اسماء ، وعلا صوتها تبكى زوجها ، حتى سمعها رسول الله . .

فسال :

« ما أبكاها ؟ . . »

قيل له :

« ما أبكاها أحد ، ولكنها ذكرت رؤيا لابی بكر » .

وقصوا عليه الحلم وتأويله :

عندئذ قال :

« ليس كما عبرت عائشة . ولكن يرجع ابو بكر صالحا ، فيلقى اسماء ، فتحمل منه بطلا ، فتسميه محمدا يجعله الله غيظا على الكافرين والمنافقين » .

وسلم الصديق . وأنجب غلاما كان من صفته ما ذكره الرسول ، وعبر عنه على من بعد بقوله : « يفيض شكل الفاجر » . . وكان من قدره أنه هو الذى خضبت رأسه ولحيته بالحناء ! .

## الفصل الثاني

تطير معاوية وهو يصفى لبعضه خاصته حين حملوا اليه راى الفلك  
في بعثته التى شاء اشخاصها الى العراق . فالطالع نحس . والنجوم  
تحذره ان يوفدها في هذا الموعد . والخطر الذى يستشفه من مخالفة  
مشورة منجميه لا تجمل معه مجازفة .

وعلى الأثر كتب الى ابن الحضرمي يأمره :

« لا تبرح .. حتى يأتيك امرى . » .

وكذلك توقفت الى حين بعثة الارهاب والتخذييل التى اعددها  
لاغتصاب البصرة . الى غير هذه الساعة من يومه أرجأ سيرها  
واجله .. الى ساعة يمن تقبل فيقرن بها السير .. وماله لا يفعل حتى  
تأذن الأنجم .. ويقطع القمر في رحلة فلكه شوطا ينقله من برج نحسه  
إلى برج سعد يحسن برجاله الانطلاق في ابانه نحو غرضه بين يدي  
البركة واليمن الى الظفر ؟ ..

ان العاهل ليتطير . وانه ليسترشد بأجرام السماء والكواكب  
استرشاد مستقرىء للغيب لا مهتد بها في بر او بحر ، كأنما في استطاعتها  
الكشف له عن تفع يقتنصه او شر يجتنبه .. ولو انه علم لادرك ان  
ايمانه هذا بما يظنها تومىء اليه وتنبئه به هو أدنى الى الوثوق بقدرتها  
على تشكيل مصائر الخلق وتلوينها فهو ادعى الى الحمل على محمل  
الشرك بالله ..

فلعله لا يعلم . او لعله يعلم ولم ينتفع بما يعلم .. ومنذ قريب  
اجتاز الامام نفس تجربته فابى على الكواكب قدرتها ، ونها اصحابه  
عن الاصفاء لما يظنون انها تشير به ، لان استنباء الأنجم عقبى الأحداث  
ومصائر الناس ضرب من الكهانة ، من صدق به فقد كذب بالقرآن ..

على أن معاوية ، فيما بدا ، أثر الرضوخ للخرافة ، او لهذا  
الانحراف عن جادة الإيمان الخالص بربه ، فأنس إلى مشورة منجميه .

وبقى من بعد أياما عدة يرقب صاحب بعثته حتى لقد حسب الرجل انه عدل عن رأيه . ثم مكث يصابر الوقت ، ويهدىء - ما وسعه - من فورة رغبته الجامحة في العصف بالمصر من داخله ، بلوغا الى تمزيق وحدة اهله وانتفاضهم على عدوه .

وراح يشغل الوقت عندئذ بتدبر خطئه ويحاول تجسيدها - بدءا ونتيجة - في خياله ، ويسطر العوامل التى دفعت الى رسمها ، والأسباب التى علق بها امله ..

ولم يملك عندئذ الا الاقرار بالفضل لعباس بن الضحاك العبدى صنيعته بالبصرة . فهو موحى فكرة هذه البعثة اليه ، وغارس بذرتها في روعه . وهو عين له بالبلدة وعون ، خرج من اجل نصرته على اجماع قومه . وهو ، بعد هذا وقبله ، واضع الخطة ، ومبين دواعيها ، والمشير عليه بما يجمل اتباعه ..

فلقد كتب له ذلك الصنيعة ، غب غزو أرض النيل ، ودخولها في حوزة الشام ، يقول :

« ... بلغنا وقعتك بأهل مصر ، الذين بغوا على امامهم ، وقتلوا خليفتهم .. فقرت بذلك العيون .. وبردت افئدة اقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين .. ان ابن عباس غائب عن المصر . فان رأيت أن تبعث انينا أميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين ، للطلب بدم عثمان ، فعلت . فإنى لا اخال الناس إلا مجمعين عليك ... »

واعجبت الخطة معاوية ، فأجاب :

« ... قبلت مشورتك ، رحمتك الله وسددك .. فائيت ، هداك الله ، على رأيك الرشيد . فكأنك بالرجل الذى سألت قد اتاك . وكانك بالجيش قد اطل عليك .. »

وكانت الخطة يسيرة على التنفيذ ، خليفة بالنجاح .

فالفراغ الذى تركه رحيل عبد الله بن عباس ، عامل البصرة ، عنها إلى الكوفة ، ليواسى ابن عمه في فجيعته بمحمد بن أبى بكر ، وليهون عليه بعض ما لقى من محنة مصر .. ..

والمرارة التي ما زالت بقية منها ، لا يغفل قدرها ، عالقة بحلق  
كثرة من البصريين منذ وقعة الجمل ، التي كبرت قواتهم ، وخضدت  
شوكتهم ، وجرحت كبرياءهم ، وقهرتهم على الخضوع للإمام  
كارهين .. ..

ودعوة التار المكتومة في صدور عديدة للدماء والدموع التي فجرتها  
تلك الوقعة في كل اسرة . وبجستها من كل عين .. ..

وشراذم العثمانية اللائذة بالمصر ، والعائذة باظهار الطاعة لعل  
رياء ومداجاة حتى تلوح في الأفق فرصة للقيود لعثمان من العهد الذي  
الصقوا به - ظالمين أو مخدوعين - جريرة قتله .. ..

والتناحر القبلي - تيتها بالبأس ، ومفاخرة بالأصل - بين العشائر  
المقيمة بالبصرة والضاربة على تخومها وفي ربوعها . كالآزد ومضر  
وربيعة ، وما كان دائما يشيره هذا الاحساس الفج في نفوس رجالها من  
تنافس جموح قد يبلغ بهم ذروة التباغض ، ومن تنافر في المجتمع  
البصري يكاد يشق وحدته ويضعه على حافة هاوية الانقسام .. ..

كل هذه عوامل لم تكن بخافية وان توارت - بعد الجمل - خلف  
حجاب غير كثيف من الهدوء قرابة عامين ، لا اقرارا بالهدوء ولا ايمانا  
بجدواه وانما لانصراف الاذهان حينذاك الى ما كان يدور بالدولة من  
احداث عامة خطيرة ، متابطة لها ، وانشغالا بها عما عداها من ظروف  
خاصة ومن دواع محلية محصورة في نطاق الاقليم .

ولقد كان معاوية ، بطبيعة الحال ، خليقا بأن يعلم الكثير عن ذلك  
التمزق الذي ينخر في جسد البصرة ، وان يدرك أنه « جند » له  
لا يلبث ، حين تأزف الأزقة ، أن يدعم قواته او يكون طليعتها الى فتح  
البصرة وانتزاعها من يد الامام . ولعل يومه هذا لم يكن اول ما خيلته  
فيه الفكرة . غير ان الهيبة التي القاها على نفوس اهل البصرة  
بانتصاره الساحق في « الجمل » على احزاب معارضية ، والاستقرار  
الذي ساد فيها طوال ولاية ابن عباس واجتمع به شعث طوائفها  
المتناحرة تحت راية الولاء للإمام ، والاحداث التي تعاقبت سراعا  
وشغلت عاهل الشام بنفسه وباقليمه عن كل ما عداه ، كلها لم تدع  
لمعاوية من قبل سبيلا الى الاقدام على تنفيذ ما عساه خيله واجتياز

تجربة قد لا تؤمن مغبتها وخلق بها ، لو اخفقت ، أن تدفنه تحت  
انقاض حلمه العريض !.

لكنه اليوم ، إذ جاءت مشورة العبدى ، غيره أمس ، بعد أن حالفه  
قدره وفتح عليه أرض النيل . فانتصار جيش ابن العاص قد اعز  
شأنه ، ونفخ في روح أنصاره بكل مكن ، وألقى هيبته في قلوب  
المسلمين بأرضه وأرض عدوه على السواء ، وأتاح له تأمين حدود  
دولته من ناحية فلسطين ، وضمن له ، إلى جوار هذا كله ، موارد  
مصر من المال والرجال التى لا تعدلها موارد غيرها من الولايات . .  
فإذا هو الآن نازعته نفسه إلى فتح البصرة فإنه نزوع من أمن العاقبة  
واطمان للنتيجة وقد غدا صاحب النجم الصاعد واليد العليا في  
الصراع المرير الناشب بينه وبين غريمه على السلطان .

ولم يخالف معاوية عن طبعه وهو يبنى « الخطة البصرية » على  
تلك العوامل المواتية الى هياتها له الظروف وراها كفيلة بتحقيق  
غرضه . فما كان ليتنكر لطبيعته الحذرة التى تؤثر الريث وتكاد تقدم  
الاحجام على الامر على الافدام عليه ما وسعه ان يرجىء ويتمهل  
ما دامت في الأفق بارقة رجاء في مطلع غد أنسب لغرضه وأجدى عليه .  
وما كان ليركن الى احتمالات تحدثه برجحان كفته ان هى دفعته  
لركوب مخاطرة قد نباغته فيها احتمالات غيرها معاكسة لم تطف  
بتقديره . وما كان ليجازف باقتحام خطر — وان كان اوهى من بيت  
عنكبوت — ليصل من خلاله إلى مغنم دان براوده ويلمع له ، ضنا  
بما في يده ان يضع او خانه طالعه وأخفق في انقضاضه على ذلك  
المغنم الذى في يد سواه .

وها هى البصرة الآن . . انها كالثمرة اليانعة ، قد انضجت لها  
الظروف فثقل بها غصنها ودنت للقاطف ، مغرية تخلب اللب ، شهية  
تثير الرغبة ، عاطلة من الشوك ، مستباحة بلا سياج . . ولكنه يكبح  
نفسه ، ويملك طموحه ان يعد اليها يده جهرة امام العيون . . وهل  
كان ليفعل وقد علمته تجربة الامس القاسية بصفين أن خيره كل خيره  
هو في السير الى آرابه في دروب خفية تحتية ، وأن دواعى الحال  
تقتضيه تجنب العلانية والمواجهة والأخذ بأسلوب الالتفاف والالتواء ؟

بل قد تعلم درس صفين ووعاه ، وخلص منه بحقيقة واضحة

لا يشوبها ظل من ريبة تومىء بكل أصابعها الى قصور جهده وعجز قدرته عن الثبات للامام في ميدان قتال . . وليس هو بمن يهدر التجربة . . ولا بمن تستخفه مخايل الظفر الميسور الذى يهيب به الآن - بلسان عوامل التمزق الضاربة في البصرة - ان يبعث الى البلدة بجيش ما ان يقارب مشارفها حتى نهبه الولاء . . ولئن كانت مصر ، منذ قليل ، قد دانت له بقوة الفتح ، فان الظروف غير الظروف ، ومصر غير البصرة ، والشقة من الكوفة الى كل منهما غير الشقة ، لأنها الى الاولى ابعد مدى واعسر مراحل ، والى الثانية ادنى وايسر . ولن يكون مصر البصرة كمصر مصر لانها بموضعها من العراق تكاد تقع على قيد الشبر من على ان لم تكن في قبضة يمينه . وفي نطاق المحال لا ريب ان يفلح جيش أموى ، مهما كانت خفة حركته وسرعة انتفاضه ، ان ينتزعها ويطيح بها هدية لصاحب الشام ! .

لا قبل اذن لمعاوية ، في ظل ذلك الوضع ، بحرب سافرة في البصرة ما بلغت قوة العوامل المرجحة لانتصاره . فالمرحلة إليها من دمشق طويلة . وجيشه الفايز سينتشر على مسافات ترق بها كثافته وتتبعثر قواته . واللقاء عندئذ وسط أرض غريبة عنه ، يعوزه فيها تأمين خطوطه . وعنصر المباغتة لا سبيل إلى تحقيقه والاعتماد عليه . والمقارنة بعد هذا بين كفاءة القيادة في كلا الجيشتين المتناجزين ترجح بلا جدال كفة الامام .

فكانى بالرجل ، وقد استحضر كل هذا في باله ، يعدل عن الحرب المكشوفة الى الحرب المستترة ، وعن الغزو الى التسلل ، وعن اقتحام البصرة عنوة بجيش فاتح الى دخولها خلسة بفريق من اصحابه لهم القدرة على اثارة الخواطر واشاعة القلق ، وضرب أهلها بعضهم ببعض توسيعا لهوة الانقسام بينهم وتوهينا لوحدهتهم . فاذا هو استطاع أن يبلغ من هذا وطره ، فقد وقعت الفتنة التى يعز بها حزبه ، وتشتد قوة أنصاره ، وتعلو بها هيئته بقدر ما تهبط هيبة غريمه .

وكذلك ابرم معاوية أمره ، وعدل خطته . فلأن يعصف بالبصرة من داخلها لهو أسلم عقبى من غزوها بجيش مغير . ولأن يقلب الحكم بها على الولي الشرعى لهو ايسر وأضمن نتيجة . ولن تكون هى عندئذ



أعصى عليه من مصر التي ما دانت له - في حقيقة الحال - إلا بانتشار  
دعوته ، واشتداد ساعد جيشه « السرى » فيها ، أو « طابوره  
الخامس » بالتعبير الحديث !.

خطة يسيرة ، وجهد أيسر ثم تسقط الثمرة الناضجة تحت  
قدميه ..

ودبر الرجل كيدته ، فأعد بعثة ابن الحضرمي لتسلل الى البصرة ،  
لا في بزة قتال بل في صياصة دعاء يتباكون على الحق ويحشون على  
اتباعه . وكان الحق الذي يراه رحبا فسيحا يتسع لكل خدعة من  
أخاديعه ودعوى ظالمة لا تقرها حقائق الواقع ولا شرائع الأخلاق . فهو  
اثارة الأحقاد . وهو صدع الوحدة . وهو التنادي بالشار . وهو  
الاتهام الظالم والافتراء ، كلها مغلفة بالانتصاف لعثمان .

ومع ذلك فقد تردد معاوية مليا قبل أن ينفذ البعثة وأن كاد  
يوقن أنها تحالف الظفر وتسير في ركابه . فلعلها طيرته قد جعلته  
عندئذ لا يحسم .. ولعلها أيضا رويته التي تشده دائما إلى التريث .  
ولعله ، فوق هذه وتلك ، ذلك الاحساس الثقيل بالفراغ الذي كان  
يملأ عليه حياته بعد غياب مشيره ومبدع الرأي الأثير عنده بعيدا عنه  
حينئذ على شاطئ النيل .

ونشط من لحظته الى كتاب ديجّه الى رفيق كيدته وشريك خدعه  
وصاحب شوره عمرو بن العاص :

« ... رأيت رأيا هممت بامضائه ولم يخذلني عنه الا استطلاع  
رايك ، فان توافقتني أحمد الله .. .. »

انى نظرت في أمر البصرة فوجدت معظم أهلها لنا وليا ، ولعل  
« وشيعته عدوا وقد أوقع بهم الواقعة التي علمت فأحقاد تلك الدماء  
في صدورهم لا تبرح .. .. »

وقد علمت أن قتلنا ابن أبى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد اطفأت  
نيران على في الآفاق ، ورفعت رعوس أتباعنا أينما كانوا .. وقد بلغ  
من كان بالبصرة على رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحد أكثر  
عددا ولا أضر خلافا على من أولئك .. » .

ومضى في كتابه يوجز امره الذي ألقاه لابن الحضرمي ، صاحب  
البعثة الموفدة لاحداث الفتنة بالبصرة :

« ... ينزل في مضر ، ويتودد الأزدي ، ويحذر ربيعة ، ويبتغي  
دم ابن عفان . ويذكرهم وقعة على بهم التي اهلكت صالحى اخوانهم  
وآبائهم وابنائهم . فقد رجوت عند ذلك ان يفسد على على وشيعته  
ذلك الفرج من الارض ... » .

وختم يتعجل رده :

« .. هذا رأى فما رايك ؟ .. لا تحبس رسولى الا قدر مضى  
الساعة التى ينتظر فيها جواب كتابى .. والسلام » .

## ٢

المحور الذى كان لا بد ان تدور عليه أية فتنة ينشعبها القوم ضد  
على هو دعوة الثار لعثمان . فهى باعثة وقعة الجمل . وهى سبب  
ضباع مصر . وهى الباب الواسع المفتوح على مصراعيه الى قلوب  
العامة لالهاب مشاعرهم ، وتحريك احقادهم النائمة ، واثارة كوامن  
اعتزازهم بالمروءة والنجدة والانتصاف للمظلوم . وهى دون هذا  
وفوقه دعوة اكتست ثوبا براقا يبهى الاعين ويستهوى الانفس ثم  
لا يكاد يفتقر - فى خواطر الجماهير التى تغرها القشور والمظاهر -  
من مسحة حق بعد ان ارتفعت بها من قبل أصوات عائشة والزبير  
وطليحة وفريق غيرهم من القوم من بين الصفوة الذين لهم فى الأمة  
مكانة وذكر ، وفى القلوب هيبة واكبار ، وفى الاسلام قدم وسابقة ..  
ولقد كان من الطبيعى ان يقر عمرو بن العاص صاحبه على رايه  
الذى ساقه ويحثه على اتفاده . فمعاوية اليوم ذو نجم بازغ ، وصاحب  
دنيا مقبلة يفسح فيها لكل طامع تستدله شهوة النفس فلا يانف ان  
يشترى منها اربه ولو بدينه ، أو بالمثل العالية ، أو بمكارم الاخلاق .  
وعمر بن العاص نهم بالنفوذ واسباب الجاه لا يكاد يشبع ولا تكف امانيه  
الكبار من مخايلته منها بمزيد . واذا كان هاهل الشام قد اطعمه

مصر بملكها الثرى العريض ، فتلك طعمة لا تملأ حوفه ، ورايه المؤيد  
التبيع خليق بن بوطد ثقة سيده فيه ، وبدعم رضائه عنه ، وليس  
بالمستبعد أن يفى عليه طعمة جديدة !.

ولا غرابة ، مع ذلك ، إن هو انس للرأى واقره لأن التآمر بعض  
شيمته ، والكبد لعل سلكه ومولاه في خيط ، وادعاء الانتصاف لعثمان  
بالانتقام والثار مبدا التزامه ، منذ بدء تحالفهما عقب الجمل ، وسيلة  
خادعة وناجعة ، لانتزاع السلطان .

وكتب في جوابه :

« .. فهمت رأيك الذى رايتہ .. وان الذى ألقاه في روعك هو  
الثار لابن عفان والطالب بدمه .. ولم يك منك ، ولا منا - منذ نهضنا  
في هذه الحروب - ولا رى الناس رأيا اضر على عدوك ولا أسر لوليك  
من هذا الأمر الذى ألهمته .. فامض رأيك ! .. » .

وآن لجأش معاوية عندئذ أن يثبت ، ولباله أن يهدأ وقد اشاع كتاب  
عمرو في قلبه الثقة بنفسه ، وهون عليه وطأة احساسه بالفراغ لغياب  
مشيره .. فكأنما اطمأن الى صواب تدبيره . وكأنما طالعت النجوم  
أخيرا ببرج سعده وأذنت له أن ينفذ بعته . فاذا هو يخف من فوره  
فيدعو اليه عبد الله بن عامر بن الحضرمي الذى لقنه الخطة وأعدده  
لانتزاع البصرة من يد على ويأمره بالسير :

« سر على بركة الله .. » .

ولم ينس وهو يكرر عليه ثنية خطته تلك التى تقوم على ايقاع  
الفرقة واثارة الأحقاد ودعوة الثار أن يقرن ما ذكره بعنصر آخر درج  
دائما على أن يكون من أسلحته في النزاع ، هو عنصر الاغواء يزخرف  
المال الذى لا يستطيع أن يقاومه من النفوس الا القليل :

« .. ومن لمن سمع وأطاع دنيا لا تفنى ، وأثرة لا يفقدها حتى  
يفقدنا أو نفقده .. » .

ثم لم يدع وعده هذا الذى يبتعث النهم ويسيل له لعب الأطماع  
مجرد كلمة في فم ابن الحضرمي لو شاء بلعها أو شاء لفظها ووضعها  
في الاسماع . وانما سجله عهدا على نفسه في كتاب مختوم يقطعه لكل

الذين يستهويهم نشبه وبتحرفون اليه ، ويثمن به الفتنة في قائمة الأسعار !..

قال في كتابه مع مبعوثه الى اولئك الذين ايقن انهم لا بد - من أجل الدنيا - مناصروه ، وخارجون وراء دعوته على النظام العام والولاء للامام :

« .. وان لكم ان اعطيكم في السنة عطاءين !.. ولا احتمل فضلا من فيئكم عنكم ابدا .. فسارعوا الى ما تدعون اليه .. » ..

وما كانوا بالقليل . ولا كان ينتظر منهم ان يتخرجوا او يتوانوا عن اتباع دعوته او دعواه وانهم ليطوون جوانحهم - منذ الجمل - على غل لعل مقيم وان تحاملوا طويلا على انفسهم راغمين فأبدوا من نعومة الطاعة مثل الزهو في جلد الثعبان !..

ومع طول الشقة من دمشق الى البصرة ، فقد اسنطاع ابن الحضرمي ان يمضي الطريق كله اليها آمنا موفور السلامة . واستطاع ان يتسلل الى مصر وليس من أحد - فيمن مر على كذب من ولاياتهم او اجتاز اراضيها - من عمال الامام من بدا انه تصدى له او حاول الوقوف في وجهه .. وهذه ظاهرة غالبية ومعجبة تكاد توميء الى ان هم كل عامل لم يكن الا منصرفا الى ضبط الأمن بداخل ولايته ما تعرضت لشغب محلي . فاما اذا مرت به ، أو بحدوده ، جماعة مريبة بل خارجة على الامام فذاك ما لا يكاد يعنيه ما دامت تدهض على حدوده ولا تعرض لأرضه بشيء ..

والأمثلة على هذا النوع من التهاون لا تغيب عن متقصيها . وهي توشك ان تنطق بضعف طائفة من العمال عن النهوض بتبعة واجبهم حيال الدولة جمعاء وافتقارهم الى القدرة على الارتفاع الى مستوى المسؤولية المسندة اليهم . وتوشك كذلك ان تدلنا على عجزهم عن المبادرة الذاتية لمواجهة أمثال هذه المواقف وإيثارهم الانتظار حتى يأتيهم الأمر عنها من حاضرة الدولة . ثم يوشك ثالثة ان يبديهم ذوى ادراك يقصر عن تفهم حقيقة السياسة العملية التي شرعها الامام واخذ نفسه واصحابه بانتهاجها حيال اعدائه أو مخالفيه لا يقاتحهم بحرب الا اذا هم بداوا العدوان . فاذا فهم بعض اولئك العمال من

هذا المبدأ الا يسدوا في ارضهم كل منفذ خلالها قد يجتازه مبتغى  
فتنه او غاز عاد الى ولاية اخرى في طاعة الامام فذاك فيه من التنكر  
للولاء ومن التفريط في الامانة اكثر مما فيه من تهاون وان حسنت  
النيات .

ولم يغب سوء عقبي مثل هذا السلوك عن على فحذر منه ، ولحا  
عليه احد عماله فكتب اليه :

« . . قد صرت جسرا لمن اراد الفارة من أعدائك على اوليائك ،  
غير شديد المنكب ، ولا مهيب الجانب ، ولا ساد ثغرة ، ولا كاسر لعدو  
شوكة ، ولا مفن عن اهل النصره ، ولا مجز عن اميره . . . » .

بلغ ابن الحضرمي اذن البصرة ، متسللا او على عين اولى الامر فيها  
فلم يلق من ينهض له ، او يحول بينه وبين دخولها لا بسيف ولا بكلمة .  
ومضى وجهته ، كما امره عاهله ، فنزل في بنى تميم الذين يؤمن له  
تأييدهم ، ويؤمن منهم مخالفتهم عليه . وكان اصحابه ، فيما بدا ،  
قد سعوا بين يديه في جنابات المصر يحدثون عنه ويبثون دعوته ، فاذا  
جموع العثمانية تنساب اليه من كل ناحية ، الاذنان والرءوس على  
السواء . واذا هو حين يلتفون به ويستشعر بينهم المنعة وعزة الجوار ،  
لا يجد بنفسه حاجة الى التزام اسلوب الدعاة الذي يبدأ عادة بالهوادة  
ولين الكلام تدرجا ويبدأ الى لب الدعوة وغرضها الخطير . انما يحمله  
ما شاع حوله من تأييد الى القفز دفعة واحدة الى مطالبتهم ، بغير  
مواربة ، بالتشرع للعنف والثار والانتقام :

« ايها الناس . . ان امامكم ، امام الهدى عثمان بن عفان ، قتله  
على بن ابي طالب ظلما . . فطلبتم بدمه ، وقتلتم من قتله ، واصيب  
منكم الملائكة الاخيار . . وقد جاءكم الله ياخوان لكم ، لهم بأس يتقى ،  
وعدد لا يحصى . . فمالئوهم وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم لتشفوا  
صدوركم من عدوكم . . » .

وكان حريا بدعوته ان تلقى في الصدور اصدااء مختلفة . بعضها  
يرحب ، وبعضها ينكر ، وبعضها يقف بين هذه وتلك - على تردد  
او بينة - لا يقطع الى اى الفريقين ينحاز . . فالبصرة كما علمنا ، من  
قبل الجمل ، جمعت في اهلها الطوائف الثلاث : العثمانية ، واصحاب

على ، ومن رأوا الحيدة عن كليهما ، لا إيثارا للسلامة بل إيمانا بجدوى حيدتهم على الخير العام وتجنب الأمة شر الانقسام . وهى اليوم كأمس وان عز نفر حزب وقل نفر آخر . ولكن الذى لا يستطيع اغفاله أن أناسا انضوا فى الماضى تحت لواء المناهضة للإمام أبوا الآن أن يعيدوا الكرة ويرجعوا كبدهم . بل استمسكوا بولائهم للدولة ، انتفاعا بعبرة الأحداث ..

وقام منهم من صاح فى وجه الداعية :

« قبح الله ما جئنا به !.. جئنا بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير .. أتينا وقد بايعنا عليا ، فكلمتنا واحدة .. فدعوانا الى الفرقة حتى ضربنا بعضنا بعض عدوانا وظلما .. فما سلمنا من عظيم وبال .. » .

فقطع عليه رجل من الحزب الآخر حديثه :

« اسكت فليست بأهل أن تتكلم فى أمر العامة .. » .

لكنه تابع قوله :

« .. نحن الآن مجتمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذى اقال العشرة ، وعفا عن الميئ ، واخذ بيعة غائبنا وشاهدنا .. » .

ثم التفت الى ابن الحضرمي يقول له كالساخر :

« .. افتأمرنا الآن أن نختلع اسياقنا من أغمارها ثم يضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدل بهذا الأمر عن علي ؟.. لا والله !.. ليوم من أيام على مع رسول الله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا فى الدنيا ما الدنيا باقية !.. » .

واشتبكت الآراء . واستمر الحديث حتى غدا سبابا وملاحاة . وأوشك العنف أن يصرف القوم عن ابن الحضرمي ويفرق دعوته فى لجنة التهاثر .. عندئذ تصدى لهم ، عبد الرحمن بن عمير ، أحد بنى تميم ، وهو يلوذ فى حديثه بهوادة الدعاة وترفقهم ، لعله يزخرف القول والموعظة الحسنة يهيب لدعوة الداعية فى نفوسهم ما لم يهيئه خشن الحديث .

قال فى هدوء :

« عباد الله ، انا لم ندعكم الى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد ان تقتتلوا .. انما ندعوكم ان تجمعوا كلمتكم ، وتؤازروا اخوانكم الذين هم على رأيكم .. وتصلحوا ذات بينكم .. فمهلا مهلا رحمكم الله ، واستمعوا لهذا الكتاب .... »

فألقوا السمع .

ونض امامهم كتاب معاوية ، ونثر عليهم ما فيه :

« .. ان سفك الدماء بغير حلها .... هلاك موبق وخسران مبین .. وقد رايتم آثار ابن عفان وسيرته . ومعدلته .... حتى توثب عليه المتوثبون ، وتظاهر الظالمون ، فقتلوه مسلما محرما ظمآن صائما لم يسفك فيهم دما .... وانما ندعوكم ، ايها المسلمون ، الى الطلب بدمه ، وقتال من قتله .... فاذا اجتمعت الكلمة ، اقر الظالمون الذين قتلوا امامهم بغير حق فأخذوا بجرائرهم .... »

دعوة ذكية . لانها مرسلة ، لا تحصر الاتهام في امرىء بعينه ، فليفهمها اذن من شاء وليؤولها كيف شاء ! .. وهى بعد دعوة عادلة ، في رأى كل مجتمع بشرى ، وفي رأى الدين ، لانها تحت على القود والقصاص ، انتصافا من القاتل للمقتول ..

ومع هذا فقد قرنها معاوية بالتلويح لمن سمعها وتابعه عليها بدنياه ، وانه ليعلم ان الدنيا احيانا اقرب الى استهواء الانفس واقدر من الدين ! .. وها هو الآن - على البعد - قد ضمن من الكثرة المجتمعة حول مبعوثه الانضمام اليه ، ان لم يكن من اجل الشرع ، فاستجابة لما وعدهم في كتابه من مضاعفة العطاء ! ..

وعقب ابن الحضرمي :

« اجيبونى الى الحق ، وانصرونى .... »

فنهض على الاثر ابن ضحاك العبدى ، صاحب خطة هذا البعث ، المشير به على معاوية ، يبادر بتلبية الدعوة :

« والذي له اسعى ، واياه اخشى ، لننصرتك بأسيافنا وأيدينا .. »

فما اكمل عبارته حتى تبعته كثرة من القوم ، لمعظمهم هوى - بلا شك - في نشب صاحب الشام وسخائه المعروض :

« سمعنا واطعنا .. »

وطفا على هزيم هتافهم ، طفو الزبد على الماء ، صوت خافت ،  
كأنما يعلن على استحياء عن رأى حزب الحياء بلسان الأحنف بن قيس :  
« اما انا فلا !.. لا ناقة لى ولا جمل في هذا الامر .... »

وعندما حسب انصار معاوية ان كلمة حزبهم قد طغت على ماعداها  
واستقر لهم الامر ، باغتهم المشنى بن مخرمة العبدى بصوته الجهر :  
« لا والذي لا اله الا هو !.. »

ثم رمق ابن الحضرمى بعين ملتهبة النظرة . وقال - توعدا  
وتهديدا - وهو بضبط على حروف كلماته ، إبانة عن العزم والاصرار :  
« .. لئن لم ترجع الى مكانك الذى اقبلت منه لنجاهدك !..  
اندع ابن عم رسول الله وسيد المسلمين وندخل في طاعة حزب من  
الاحزاب طاغ ؟.. والله لا يكون ذلك حتى تفلق السيوف السهام !.. »

### ٣

مع ما أسفر عنه الاتجاه العام من انتصار دعاة الانتقام ، فقد رأى  
ابن الحضرمى ان الحذر اولى به ما دامت ثمة طائفة بالبصرة ، كابن مخرمة ،  
لم ترهبها كثرة ناصره ، ولم يخدعها التلويح بجاه المال عما استمسكت  
به واخذت نفسها بالتزامه وفاء وطاعة ، وان غدت وقودا للنار ..

ولم يكن الرجل قد سعى بعد الى الازد يعرض نفسه وامره ،  
متوددا كراى عاهله ، او متحسسا نبضهم كما ينبغي على مشعل فتنة  
ان يفعل قبل ان يقدح الزناد !.. تلك خطوة تالية في منهج عمله ان له  
ان يقطعها بعد ان فرغ من لقائه الميمون الشهود . فماله لا يبحث الخطى  
الى حى اولئك الذين عليه ان يتالفهم ليجمعهم حوله فيأمن بانضمامهم  
اليه . ما قد لا يأمن اذا تركهم في صفوف اعدائه ، او على الاقل  
منحازين عنه ، لا يعادونه ولا ينصرونه !..



وكذلك مضى . واقبل على سيدهم يحدثه ، ويحرك في نفسه  
لواعج المواجد القديمة ، وحصاد « الجمل » الذى كان له فيهم بكل  
قلب ضغن ، وبكل بيت ضحية :

« يا صبرة .. انت رأس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ،  
واحد الطلبة بدم عثمان . راينا رايك ، ورايك راينا ، وبلاء القوم  
عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورايت .. فانصرنى وكن  
من دونى . »

فتفكر صبرة مليا يتدبر ..

انها لدعوة الى الثأر سافرة . والى الفتنة . والى الانسلاخ من  
الطاعة . لها بلا ريب صدى في قلب كل موتور .. ولقد وتره على  
ووتر قومه . ونال منهم يوم الواقعة اذ هم سور حول عائشة حتى  
شاعت فيهم المقتلة كما لم تشع في غيرهم من الناس .. ومع ذلك  
فذاك بالأمس ، والامس ذهب . الدم جف والجراح التامت . والعفو  
الكريم — مع القدرة — عن ارتدادهم عن بيعة على ، ونكثهم عهده ،  
قد مسح هونا على قلوبهم وماقيهم .. فهل يا ترى يعود كرة أخرى  
بقومه الى خلاف جديد ومحنة جديدة ؟ ..

لكانى به قد تذاب هنهة بين النكوث وبين الثبات . بين  
الاستجابة لدعوة الثأر والاستقامة على واجب الولاء . بين المشاركة  
في انقسام الامة وبين الابقاء على وحدتها التى كادت اخيرا تلتئم بعد  
دم وقعقة سلاح .. لكأنه كان نهبا بين واجبه وعاطفته . عقله  
وقلبه ، أمته وقبيله ..

تلك اللحظات القلائل التى عاشها الرجل عندئذ كانت — فيما  
يلوح — دهرا طويلا من الصراع النفسى في دخيلته ، عانى ابانه ما لم  
يعان من قبل مثله في كل ما قطع من سنى الحياة . فذلك تختبر  
الانفس . وكذلك تجرب الضمائر . والهنهات التى يواجه المرء فيها  
مفرق الطرق ليحسم الى أين وجهته هى اشق محنة يجتازها واقدرها  
على تشكيل مصيره وتغيير اتجاه التيار ..

وبدا من صبرة كأنما حزم أمره فطالع ضيفه بوجه باسر لا تكاد  
بشرته تنم عما وراءه ، ثم عرض عليه ما تمليه شيمة الاريحية العربية  
التى تابى أن ترد طالب حاجة ، لاثدا بالكنف ، عائذا بالجوار ..

قال في هدوء :

« ان انت اتيتنى فنزلت في دارى نصرتك ومنعتك .. »

فكان بهذا العرض ، من دعوة ضيفه ، لا الى الرفض ولا الى القبول ..

لكن هذا الرد منه راق ابن الحضرمي لانه نضح بالرد المأمول ، وأفسح له الأمل في نجاح بعثته . فلم ير خيرا من ان يقول ، كاشفا عن رضاه واعتذاره في آن :

« .. لولا ان امير المؤمنين معاوية امرنى ان انزل في قومه من مضر .... »

فعقب صبرة على الاثر :

« فاتبع ما امرك به .. »

وخرج وافد عاهل الشام من لدنه مطمئن البال وقد حسب انه كفى بهذا الحديث امر الأزدي فاحتواهم بجصبتة وضمهم لجمهور انصاره . ولو درى الرجل لسارع الى اقتناص دعوة الجوار التي عرضها صبرة عليه في لحظة أريحية ، ولما غادر الأزدي ليلحق بمضر وانه ليعلم ان هذه الأخيرة موالية لمولاه لا يغيرها عليه نزول وافده في غيرها من القبائل . ولكنه اثر التزام امر اميره واحتذاء خطته بالشبر والفتى ، بغير ترخص ولا تبديل ، فخلى جوار الأزدي لمن شاء - غيره - ان يلتمس فيه الحماية . وقضى بهذا على نفسه وامره بالوبال ..

والواقع ان طبيعة التقاليد العربية ، في تلك الآونة ، كان لها اكبر اثر في توجيه الأحداث ، وفي تحويلها أحيانا عديدة عن المجرى الذى ينظر انه كان لابد لها ان تسير فيه .. وما أكثر ما لهذه التقاليد من اصول وفروع ! .. وما أرحب جنبات الميدان الذى تمارس صولتها فيه ! .. فهي مرة منافرة ومباراة على التفوق بين خصمين رهانا برهان . وهى مرة ثانية نخوة وتعظيم ينشآن عادة من تملق الفرائز والعواطف الخرقاء فيسدر المرء - حتف عقله - في سلوك لا يلائم مقتضيات الواقع ولا تمليه طبيعة الاوضاع . وهى مرة ثالثة التزام اختيارى بحماية اللاجئين المستجير ، ولو كان عدوا موغلا في العداء ،

ومنعه كما يمنع الطفل والنساء .. وفي كل صورها والوانها نراها  
تفرض نفسها في المجتمع العربي على الأحداث كقوة محركة ، دافعة  
او معوقة ، تؤثر ابلغ الأثر في سير التاريخ ..

تقاليد قد تبدو لأول وهلة مجرد ظاهرات اجتماعية لا تزيد على  
ما عداها وأشباهاها من مألوف العادات ، ولا يكاد يظن لها أن تنشط  
الا بيئتها الطبيعية - في اطار سلوك الأفراد - فاذا هي لا تلبث أن  
تطفئ كالسيل وتستشرى كالنار ، فتقتحم السدود وتخرق الأسوار ،  
ثم نذهب في تغيير المصابر وتشكيل الغابات الى أبعد النتائج واقصى  
الآماد ..

ودع الامثلة فهي كثيرة تترى بها الصحف ، وتتواتر الروايات .  
فما خلت بعد أخيلة اعرب من بقية اثر لقصة المنافرة القديمة بين  
هاشم وأمية التى انشبت بين البيتين تنافسا عنيفا ، قوامه الإدلال  
بالقدرة ، ما زان يتحدر في عقبيهما حتى تمثل اليوم ، في على ومعاوية ،  
خلاف دمويا ترامى مجاله على طول ارض الإسلام . وما غابت ايضا عن  
الأذهان تلك النخوة الجامحة التى ابتعثها غلو عائشة في الشناء على  
العشائر العربية بالبصرة غلوا نحلهم من الفخر وعلو القدر ما فتنهم  
عن انفسهم فنقضوا بيعتهم ، ثم فتنهم بالجمال فزادوا عنه زيادهم  
عن اقدس المقدسات . وما يمكن الآن أن تغفل هذه الأريحية التى  
استقبل بها صبرة بن شيمان ضيفه وافد معاوية ، وعرض بها عليه  
حمايته ومنعه لو أنه نزل في رحابه وشاء لنفسه أن ينتفع بما تفرضه  
اصول الجوار ..

المنافرة يشبها هنا معاوية من جديد ، محاولا أن يحتاز البصرة  
بيمينه وسيلة من وسائل شتى اعدّها للسيطرة على الدولة بملكها  
الواسع العريض . والنخوة يثيرها ابن الحضرمي من خلال التلويح  
بما كان للأزد ، وغيرهم من اهل الإقليم ، من « أمجاد » أبان الجمل ،  
لا اعترافا بفضلهم بل تذكيرا بصراهم بوقف في نفوسهم ولعها الجاهلى  
للثأر . ومنعة الجار التى تسربت من بين أصابع مبعوث الشام ، تجد  
من ينقض عليها كالصقر ، يحوزها ، ويدفع بها الى حلبة الصراع ،  
لتلعب دورها التقليدى في تغيير سير الأحداث ،

كان زياد بن عبيد عند ذاك أميرا للبصرة بالاستخلاف . استخلفه ابن عباس عليها عند مخرجه للكوفة لتعزية الإمام في ابن أبي بكر . وكان ، مذ اقتحم ابن الحضرمي عليه أرضه ، يعيش كالمضيع . يوشك الا يعرف موضعا لقدمه في زحام الحوادث التي تتابعت سراعا ككسف الغيم في يوم عاصف وفد ندافتها الرياح الهوج ..

في خلال أيام ، وربما ساعات ، بدا للرجل كأنما نشابكت وانتكشت الخيوط . الأمور تضطرب . الصدور تموج . الهدوء يلتحف بالتذمر .. ليكاد يوقن الآن أن الأرض غير الأرض ، وأن الناس غير الناس . فالبصرة تغيرت عليه . رفاق امسه ذابوا في هرج النعمة . الولي تنكر والعدو تنمر . وهو بين أولئك وهؤلاء في حيرة . إن استطاع أن يفكر فلا يستطيع أن يدبر . وإن وسعه أن يعزم فلا يسعه أن يحسم . فما هو إلا خليفة لابن عباس على مصر ، ليس في نطاق مهمته غير أن يرقب ويتابع ، ثم يبعث بالخبر ويطلب الراي من الأمير ..

وهاله ان تتهاوى هيبة الدولة من حوله كقصر من الرمال .. فقد علا شأن ابن الحضرمي واستفحل . واكبته العشائر . ترامت اليه الجموع . كثر تبعه وعز ناصرته . أما شيعة على الذين كانت لهم من قبل الكلمة فقد غدوا على تخاذل . وأما من عسى كان يرتجى منهم العون سواهم من قادة الراي في الإقليم ، فقد وقفوا موقفا غريبا ليس أشبه بهم وليس أنسب له . أنأى عنهم ، وأبعد عن ظنه ! ..

وأحس أن ظله يتقلص . ما تحت يده من رقعة عمله أصبح الآن محصورا في دار الإمارة ، لا يمتد إلى ما يجاوز الجدران ! .. وهو بعد لا بدرى إلى متى يبقى له هذا الظل وما من رجل في أصحاب على يتقدم إليه بشيء من رأى أو من قوة يشد أزره ويسند ظهره ..

ولم يكن زياد بالذى يتطير . ولا بالكلف بالانحياز للريبة . ولكن سلوك ذوى ثقته لم يكشف له إلا عن الجوانب السوداء في الأمور . وكفاه ان دعا إليه بعض ساداتهم يعرض الموقف عليهم ، مستطلعا الراي ، وطالبا العون على كبح الفتنة المقبلة ، فلم يحظ منهم إلا بما يزيد قلقه ..

أوما لهم إلى دعوة ابن الحضرمي ، وانفجارها المدوي بين الناس :  
« .. إنكم انصار أمير المؤمنين وتقتنه . وقد جاءكم هذا الرجل بما  
قد بلغكم .. فأجيروني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورايه .. »  
وأما أحدهم فإنه موه ، فطالعه برد ظاهره استشارة قومه ، وباطنه  
تراخ وتخاذل .. إذ قال :

« هذا امر فيه نظر .. أرجع إلى من ورائي ، وانظر واستشير .. »  
وأما الآخر فقد أطلقها عبارة في كلماتها معنى الإقدام ، وفي جرسها  
فتور التردد :

« .. نحن فاعلون ، ولن نخذلك .. ولن نسلمك .. »

ولم يسترح زياد لما سمع . بل لعله ارتاح إذ عرف به خافية  
أنفسهم فأيس منهم وقد ايقن أنهم لابد قاعدون عنه أو خاذلوه ..  
فمعرفة الشر المنتظر خير من توقع خير موهوم . والياس راحة على  
أية حال !..

عندئذ نفى عنهم يده . فلا حيلة له فيهم . ولا طاقة بحملهم -  
حتف رغباتهم - على ما يشاء .

وقلب عينيه في اقوام اقليمه لعله يقع بينهم على نصير ، فإذا  
البصر يعود حسيرا إليه كأنما قد جال في فضاء رحب به ظلام فوقه  
ظلام !.. أو كأنما ارتاد غرفة مغلقة بغير كوى دارت بها النظرات حائرة  
تتخبط من جدار لجدار !.. فمضر عليه . وته م ترامت إلى عدوه .  
والأزد لا أمل فيهم وموقعة الجمل ما زالت تفصل بينهم وبين  
على بن أبي طالب بسور ضخمة من جماجم صرعاهم التي لا تنى تتنادى  
بالانتقام !..

وتذاكر الأمير الموقف وهو مثقل القلب والفكر ، مع رفيقه  
أبي الأسود الدؤلي ، لينفض بعض ما يضيق به صدره ، وإن علم أن  
الامر قد أعضل وغدا عصيا على المذاكرة والنقاش :

« أما ترى ؟.. صفى اهل البصرة إلى معاوية . وما في الأزد لي  
مطمع .. »

فالتمعت على الاثر عينا الدولى .

الازد !..

إن اللفظة لتحمل في حروفها قبسا من نور خليقا بأن يلقى شعاعا  
يضىء للأمير بعض الطريق !.. املا في غد !.. متفذا إلى الخلاص !..

كمثل خطفة البرق سطعت في خاطر ابى الاسود فكرة عابرة ..  
لعلها لمحة إلهام .. أو لعلها نتاج فطنة لم تكن - فيما بدا - لصاحبه ،  
وتفرد بها دونه عقل الدولى الذى هيأه طبيعته الذهنية للاستنباط  
الموفق السريع .. فلقد كانت للرجل - لا ريب - قدرة على استخلاص  
النتائج من المقدمات ، والنظريات من العموميات نعرفها له فيما  
استخرجه من كلام العرب من قواعد النحو التى تحكم اللغة وتسير بها  
على سننها السليم . وهذه القدرة هى التى يسرت له أن يغوص في  
الموقف الضنك الذى يقفه زياد ، ليأتى له بما قد يصلح شأنه ، ويحل  
عقدته . تماما كالفواص الذى لا تلفته ثورة البحر ولا ما يغطى صفحته  
من الزبد أو العشب عن انتجاع أبعد المواقع في قاعه وهو عليم بموضع  
اصدافه التى تحتوى درها الثمين ..

هنا يتبدى لنا ابو الاسود الدولى رجل سياسة متفتح الافق طويل  
الباع لا يعسر عليه ان يستقبل الأزمة العارضة بالعلاج الذى يكف  
عاديته ، ويروضها ترويض فارس بارع لفرس جموح . وكيف يعسر  
عليه ان يفعل ، وقد عايشها في بيئتها ، بكل ظروفها ودواعيها ، منشأ  
وغاية ؟ .. إنه إذن ليس باللفظن الذى يستنبط ويستخرج إن لم يسمعفه  
ذهنه باستخلاص « قاعدة » تستطيع أن تتحكم في الموقف وتسير به  
على النسق المرغوب !..

وتريث هنية وقد زوى ما بين عينيه ..

الازد !..

ثم قال للأمير :

« .. إن أصبحت فيهم منموك . »

فهذه هي القاعدة !.. ان يطوع الاوضاع الاجتماعية لخدمة  
قضيته . ان يستخلص من التقاليد العربية مفتاح الحل . ان يطبق  
نظرية « الجوار » !..

وقلبت عبارته الاوضاع !..

فقد هب زياد على الأثر ، يبعث لصبرة :

« يا بن شيمان .. انت سيد قومك ، واحد عظماء هذا المصر ،  
فإن يكن فيه احد هو اعظم اهله فأنت ذاك .. افلا تجيرنى ، وتمنعنى  
وتمنع بيت مال المسلمين فإنما انا امين عليه ؟.. »

ولم تتنكر الأريحية العربية لطبيعتها فلم يتأخر الجواب ..

رد صبرة :

« إن تحملت حتى تنزل في دارى منعك .. .. »

وعادت الطمئينة الى قلب زياد .

خرج من دار الإمارة بليل ، مستخفيا بالظلام . كأنما ليكنتم عن العدو حركته . أو ليتقى نظرات الأعين الشامتة . أو لينأى بمال المسلمين أن تفتصبه فئة قد هان عليها سلطانه . . فما كان يملك بعد أن يرد عن نفسه ، وما في يمينه ، عادية من قد يعرضون له بسوء وانه عندئذ لمستباح الحرمه لم يبلغ مامنه . .

وخلأ منه القصر كما عطل هو من سمة السلطة بخروجه وان يكن استبدل بهما كليهما دار طمأنينة هي أروح لباله وامنع له . . فالبصرة الآن مرتع ثرى هين لابن الحضرمى وأصحابه ، ينشرون بها دعوتهم المتمردة ما شاءوا . ويملكون منها ما شاءوا . وبغشونها بسطوتهم وقد غلبوا على أرجائها ونواحيها ، إلا ذلك الحى الأزدي الذى أصبح منها مثل جزيرة من الولاء في بحر صاخب من العدااء والخصومة . .

حتى معالم الإمرة المظهرية قد اغتصبوها منه . فلهم انتهت إمامة الصلاة . وهم الذين بجيئون المال . وفي أيديهم سياسة الأمور . والإقليم يعنو لهم ويخضع ثم يصفى وراءهم لمعاوبة صفيا كأنه قرية من قرى الشام تقع في نطاق سيفه وماله . . !

ومع ذلك فنحوة الأزدي كانت له . . بكل روحها ساندته . . بأيدها وغيرتها . ببأسها وشوكتها . ياندفاعها المقامر الذى جل عن تصوره وارتفع الى ما فوق طموحه . . فإن هى إلا ليلة قضاها في جوارهم حتى طلع عليه صبرة مع أول شروق يقول :

« . . ليس حسنا ان تقيم فينا مخفيا اكثر من يومك هذا . . » .

فرفع زياد إليه نظرة لعل فيها من اثر البغثة اكثر مما احتوته من ملامح التساؤل . . لكن الجواب المنتظر لم ترسمه عبارة ، وإنما جديته أعمال . .



فيما لا يكاد يستغرق وقتا ملحوظا كان سيد الأزد قد عوضه ما سلبته الفتنة من مظاهر السلطان .. أعد له مسجدا للصلاة ، ومنبرا للخطبة ، وسريرا للحكم ، وشرطا للأمن والحراسة . فهو إذن قد أرندت له مقومات الإمارة : هيئة وكلمة وعدة ، لولا ان انحسر ظله عن بعض رقعة الأرض التي كان يفشاها بنفوذ ..

ومارس زياد مهمته على الفور ، قام « شعبه » الأزد في صلاة الجمعة بمسجد الحدان الذي جعلوه مركز دعوته وحكمه . وصعد المنبر بخطب الجموع :

« يا معشر الأزد .. إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي .. ولو كنت في بني تميم وابن الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبدا وأنتم دوني . فلا يطمع ابن الحضرمي في وأنتم دوني .. »

وتمهل قليلا ، ثم عرج مترفقا على ماضيهم :

« .. يا معشر الأزد .. ليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار . وقد رأينا وقفتم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل .. »

ثم ختم كلامه :

« .. إنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تعذرون على الجبن .. وقد أصبحت فيكم مضمونا وأمانة مؤداة ! .. »

فالتهبت قلوبهم نخوة . وهب شيمان أبو صبرة يهيب بقومه :

« .. ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ! .. قد كنتم أمس على على فكونوا اليوم له .. فأنتم حتى مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء .. »

وعقب ابنه بعده :

« .. لسنا نخاف من على ما نخاف من معاوية .. وهذا

زياد جاركم والجار مضمون ، فهبوا لنا انفسكم ، وامنعوا جاركم  
او فأبلغوه مأمنه . . . »

وكذلك انشطرت البصرة شطرين بين الأزدي ومن عداهم كأنما  
غدت امارتين كل امارة منهما في طاعة امير وسلطانها تماما كأنقسام  
الدولة نفوذا وولاء بين على ومعاوية . ولئن قيل ان مبدا من المبادئ  
— جادا كان أو موهوما — هو الذي شطر وحدة الأمة الإسلامية ،  
فليس عن ذلك المبدأ نفسه ، ولا عن سواه ، انقسمت البصرة وافترق  
أهلها فرقتين ، وإنما الذي أدى بها إلى وضعها ذاك ما ركب في  
طبائع العرب من حرص بالغ على رعاية تقاليدهم والوفاء لها اعظم  
الوفاء وإن خاضوا إلى وفائهم هذا بحارا من الدم ، واجتازوا دروبا  
طويلة من الاشلاء والجماجم .

لا مرأى في ان انضمام الأزدي إلى زياد لم يكن منهم ولاء لعلى ،  
ولا رعاية لمبدا ، ولا نصرة لرأى ارتأوه إذ قامت الحجة على رجحانه  
فظاهروه على ما عداه . فلو كان لمبدا في نفوسهم مكانة تعطفهم حينذاك  
على الرجل لما رحب صاحبهم بابن الحضرمي عندما اقبل ولا اوشك  
ان يفسح له في رحابه . ولو أنهم حقا كانوا يكونون بضعة من ولاء  
لأمير المؤمنين لثاروا بوافد معاوية ، ولوقفوا دونه ودون بلدتهم ان  
يدخلها من البدء أو يجمع أهلها حول دعوته . ولو شاموا رأيا خليقا  
بالاتباع والمناصرة في حديث زياد لشمناه معهم ، فليس بالحديث  
ما يطالعنا بفكرة جديدة أو حجة مقنعة ، وكل عباراته استشارة للنخوة  
وتدريج بالجوار . .

إنما التفاخر هو الذي حركهم ودفعهم للالتفاف بالامير الذي  
انقض عنه الناس . فالعار كله ان يستنجد بهم فلا تسعفه نجدتهم ،  
وان ينزل في جوارهم فلا يجد عندهم حق الجوار ؛ والعار كله ،  
وقد أجاروه ، ان يعز جار تميم ويهون جارهم على أهل الإقليم .  
والعار كله ان يصبح ابن الحضرمي ذا صولة ويبقى زياد ، وهو بين  
ظهرانيهم ، عاطلا من مظاهر القوة ومقومات السلطان . .

هى إذن مناصرة بينهم وبين تميم ومباراة على اى الفريقين اثبت  
في المصمار واقدر على الانتصار .. اما مظاهره الحق على الباطل ،  
واما حمايه وحده الدولة ان تمزقها فتنة ، واما الطاعة لعل صاحب  
السلطة الشرعية في البلاد ، فكلها ليست اصلا لوقوفهم موقفهم هذا ،  
بل هى ذيل وتبع للغيرة على سمعتهم ان يقال اخلت الازد بواجب  
الجوار !..

على هذا النحو سارت الأزمة وابلغت الكوفة بأمرها في كتاب ،  
بعث به زياد إلى اميره ابن عباس :

« .. ان عبد الله بن عامر بن الحضرمي اقبل من قبل معاوية  
حتى نزل في بنى تميم ، ونعى ابن عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه  
جل أهل البصرة . فلما رأيت ذلك استجرت بالازد ، بصبرة بن شيمة  
وقومه لنفسى ، ولبيت مال المسلمين .. والقصر خال منا ومنهم  
.. فارفع الامر إلى امير المؤمنين ليرى فيه رايه ، وأعجل إلى  
بالذى ترى ان يكون منه فيه .. »

وليس هذا الكتاب — فيما اخال — بأول نبا وصل الكوفة عن  
دخول ابن الحضرمي البصرة ، ولا عن دعوته المعادية بها ، ولا عن  
اعتزاز شأنه فيها بامتناعه بمن بها من بنى تميم .. فلقد جرى الذكر  
بأن تميم الكوفة خشيت ان يستفحل الامر فتقع الحرب بين الازد  
وبين عشيرتهم في البصرة ، فأسرع منها من يشير على الإمام وهو  
يرجو السلامة لقومه من خلال ابتغاء السلام !..

قال له :

« يا امير المؤمنين .. ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادعه إلى  
طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم أزدعمان البعداء البغضاء !..  
فإن واحدا من قومك خير لك من عشرة من غيرهم .. »

وساءت عبارته هذه رفيقا من ازد الكوفة ، فثار :

« إن البعيد البغيض من عصى الله ، وخالف امير المؤمنين ، وهم

قومك !.. وأن الحبيب القريب من أطاع الله ، ونصر أمير المؤمنين ،  
وهم قومي !.. »

تفاخر آخر !.. ادلال بالمكانم والميزات يهم أن ينفث سمه ،  
ويوقع النفور والتباغض بين حليفى الكوفة وقوعهما بين عشيرتهما  
في أرض زياد !.. لكن الإمام كان أسرع إلى حسم الداء ، فصاح بهما  
ينهرهما ومن وراءهما لدنه من الأزد وتميم ، وبؤدبهم جميعا بأدب  
القرآن :

« .. تناهوا أيها الناس !.. وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغى  
والتهاذى ، ولتجتمع كلمتكم .. .. واذكروا إذ كنتم قليلا مشركين ،  
متباغضين متفرقين ، فألف بينكم الإسلام فكثرتكم .. فلا تفرقوا  
بعد إذ اجتمعتم . ولا تباغضوا بعد إذ تحاببتكم .. .. فأما تلك الحمية  
من خطرات الشيطان فانتهاوا عنها — لا أبا لكم ! — تفلحوا  
وتنجحوا .. »

وقد اخذ الإمام بالمشورة فاستنفر تميم الكوفة أن يفرقوا عن  
ابن الحضرمى عشيرتهم بالبصرة التى آوته ونصرته واعزت شأنه في  
الاقليم .. ومضى يكرر دعوته فيهم . ويحثهم أن ينهضوا لها حماية  
لقومهم أن تقع بينهم وبين جيرانهم الأزد حرب قد لا تحمد مغبتها  
عليهم ..

لكنهم ، فيما بدا ، لم يصغوا له ، وإن ظل أياما عدة يهيب بهم ،  
ويشتظر منهم أن يلبوا ندائه .. فما نهض منهم أحد . ولا قام عنهم  
بالأمر غيرهم من أصحابه . بل بقوا ، والكوفة وراءهم بجميع شعبيها ،  
كدابهم أجمعين في هذه الفترة في مختتم عهده ، سادرين فيما استعراوا  
من تهاون وتخاذل وثبوط همة ، يستقبلون ما يطرا من الحوادث —  
خطيرها كصغيرها — بغير احتفال !..

وضاق أخيرا بموقفهم :

« .. اليس من العجب أن ينصرنى الأزد وتخلدنى مضر !.. »

واعجب من ذلك تقاعد نميم الكوفة بى ، وخلاف تميم البصرة على ! ..  
وان استنجد بطائفة منها تشخصر إلى اخوانها فتدعوهم إلى الرشاد  
فإن أجابوا وإلا فالمنايذة والحرب فكأنى اخاطب صما بكما لا يفقهون  
حوارا .. جينا عن الناس ، وحبا للحياة ! .. »

وصمت هنيهة . إن العزم الذى كان يملأ القلوب بالأسى ، ويدفعها  
إلى اقتحام المكاره والغمرات ، اباء للضميم ، وأنفة من الاستسلام  
- ولو للأهل الأذنين - جدا في نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، قد فتر  
اليوم . خبت ناره . بردت جذوته التى كان الإيمان يمدّها من قبسه  
بما يشعل النفوس غيرة وتحولت إلى رماد ! ..

وأتبع يقول :

« .. .. » لقد كنا مع رسول الله فقتل آباءنا وأبناءنا وأخونا  
واعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما .. فلما رأى الله صدقنا ،  
أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل بنا النصر ، حتى استقر الإسلام .. ..  
ولعمري لو كنا نأتى ما أتيتم ، ما قام الدين عمود ، ولا اخضر للإيمان  
عود .. .. »

ثم رماهم بنظرة أسف وزرابة ، وهو ينهى حديثه :

« .. وايم الله لتحتلبنها دما ، ولتتبعنها ندما ! .. »

فلعل كلماته تلك فعلت بعض فعلها في نفوس طائفة منهم ،  
فتهاست مليا ، ولغطت ، ثم أقبل بعضها على بعض يتلاومون .. كيفما  
كان أمرهم فإن أحدهم قد حركه اللوم ، وأثار غيرته ، فأنبرى من بينهم  
يعتذر :

« لا نساء يا أمير المؤمنين . ولا يكن ما تكره .. »

« ألم يبلغك ، يا أعين ، أن قومك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمي  
بالبصرة ، يدعون الى فراقى وشقاقى ، ويساعدون الضلال القاسطين  
على ! .. »

« فابعثنى إليهم !.. انا لك زعيم بطاعتهم ، وتفريق جماعتهم ،  
ونفى ابن الحضرمى من البصرة او قتله .. »  
« فاخرج الساعة . »

غير أن الحوادث بمستقر الفتنة لم تكن لتقف حيث هى لا تتقدم  
حتى يقدم أعين بن ضبيعة من الكوفة ليهدى قومه .. فللحوادث  
أحيانا أقدام تمشى ، وأحيانا تعدو ، وأحيانا أخرى لها أجنحة ترفرف  
لتطير !.. والشرار يلد الشرار فينتشر وتندلع النار !..

في لحظة من لحظات زهوهم بما أدركوا من غلبة وبلغوا من نصر ،  
شاءت تميم وقيس أن تجمع لحزبها الظافر بالبصرة مظهر السلطة  
الى جوار قوة الحول وبسطة النفوذ .. فالكثرة لها . ورقة أرض  
الأقليم نحت ظلها إلا ناحية . والمال يأتيها من جوانب الولاية وأرجائها  
جباية . وهى من العدة والعدد على النحو الذى يمكن أن تستقيم  
لها به كافة الأمور .. فإذا هى شاءت أن يتوفر لها أيضا « شكل »  
الحكم فإنها إذن لا تطمع بهذه المشيئة إلى محال لأنها لا تتجاوز حدود  
ما هياها لها الواقع الملموس ..

وكذلك أرادوا الاستيلاء « رسميا » على السلطة — بعد استيلائهم  
فعلا عليها — تحقيقا للغرض الأصيل من وفادة مبعوث الشام .  
وهل شئ أيسر عليهم وأدنى منه وليس أمامهم غير خطأ قصيرة  
يقطعونها وينزل بعدها صاحبهم بقصر الإمارة المهجور ؟ ..

ورحب ابن الحضرمى لا ريب بالفكرة على الفور ، وقد راقه أنهم  
ترجموا عن ضميره ، وأخذوا أنفسهم بتنفيذ ما رسمه إلى آخر  
مداه .. فإن هى إلا ساعة من زمان ويبلغ وطره .. يقتعد الأريكة  
الخالية في القصر ، فيصبح عاملا على البصرة ، يضمها الى ملك الشام  
تحت سلطان صاحبه ابن أبى سفيان ..

واتعدوا ..

لكنهم ما تهيأوا للمسير حتى علمت الأزد فثاوت حمية .. وبرزت  
لهم في فرسان كفرسانهم ، وعدة كعدتهم ، وعلى عزيمة وتصميم

الا يدخل القوم القصر إلا بقتال !.. فلهوان كله ان يجلس ابن الحضرمي مجلس زياد . وان تنفرد تميم وقيس بتنصيب الوالي . وان يتحدث الناس ان الأزد لم تحفظ على جارها ما هو له ، وما لم يدعه - طائعا - لسواه . وليس ابن الحضرمي ، على أية حال ، لهم برضا يخلون بينه وبين الأمرة عليهم وسياسة الأمور في الاقليم .. فاما إذا كان لابد اليوم من أمير ، فليكن إذن رجلا يرضاه أولئك ويرضاه هؤلاء .. وتأنم الموقف ..

ذاع في الجو عرف الحرب وقد أبى كل فريق إلا ما رآه .. فإذا الصدور تغلى . وإذا القلوب تشتعل . وإذا السيوف تتعري وتبعث بريقها يخطف العيون .. لا معدى إذن عن لقاء دام بين الحزبين ، يحسم الخلاف ، ويضع الفخر منهما حيثما ينبغي ان يكون .

وهال الأحنف بن قيس ذلك الخطر المحلق على الرءوس ، فمشى إليهما جميعا يحاول ان يهديء الشائرة ، ويحد من الغلواء .. إن الرجل لعلى حيدة من كليهما ، قد كف يده منذ البدء عن الدخول في الأمر ، فهو لا إلى ابن الحضرمي ولا إلى زياد . لكنه يخشى ، إن هو تركهم وما هم فيه ، ان تنسع الهوة ، ويلجوا في عنادهم حتى الدم .. والحمية دائما عشواء عمياء !..

واستطاع بعد طول جهد ان يكبح الجماح ..

وانصرف الجمعان .

ومع ذلك فقد شق على جماعة ابن الحضرمي ما كان . فرأت أن ترمى القوم بسهم قاتل مما في جعبتها من مكر ، لعلها أن تخضد شوكتهم ، وتكسر حدتهم ، وتقضى على هذه المعارضة التي لا تظنهم - وإن جنحوا الآن للهدوء - مقلعين عنها ما بقى الجانبان في تنافس على نصره مستنصر أو حيازة نفوذ ..

وهذاها خبثها إلى خدعة هي السبيل المفتوح إلى تحقيق ما تريد .. فماذا عليها لو ادعت الحيدة من الخلاف الناشب بين العاهلين بالكوفة ودمشق ، ودعت خصمها ان يسلك وإياها سلوكا سلبيا

ازاءهما ، وازاء كل ما لعله قد يؤازر احدهما او الآخر ، من اشخاص واعمال .. ٤ . إنها إذن للسياسة الرشيدة الخليفة من كليهما بالاتباع ، والكفيلة بتجميد الموقف ثم حقن الدماء حتى تستبين الأمور .

وارسلت تميم الى الازد :

« اخرجوا صاحبكم ، ونحن نخرج صاحبنا ، فأي الاميرين غلب : على او معاوية ، دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .. »

لكن الحيلة لم تجز على الازد ، وكان جوابها على هذه الدعوة الخبيثة ، بلسان صبرة بن شيمان :

« لا ! .. إنما كان هذا يرجى عندنا قبل أن نجيره .. ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلا سواء .. .. »



لفترة هدات البصرة . قرت النفوس بها بعض قرار ، واطل ربوعها سلام ظاهر طفا على سطح الاضطراب !..

الأرد اراحها أن نجحت ، في حساباتها ، وقادة الأحنف بن قيس فوقف خصمها عند القصر لا يجتاز تلك « الشقة الحرام ! » التي تمنعه طبيعة الوضع السياسى القائم بالاقليم أن يجتازها ، أو يعيث بحرمتها ، ما دام مجموع السكان لم يتفق على التغيير .. فالحاكم الشرعى هو زياد . والقصر ما زال قاعدة حكمه وإن أخلاه . وامثال قيس وتميم ومن وراءهم نصيحة الأحنف بالكف عن اقتحامه فيه نسليم برأى الأزدي ، واعتراف - رمزى على الأقل - بقدرتها على حماية الجار ..

وانصار ابن الحضرمي قبلوا الانسحاب - انصياعا للتعقل واخذوا بسنة الدهاء - راضين ككارهين ، وكارهين كراضين !.. فأما الكره فلأنه حال بينهم وبين مظهر السلطة المنشود ، ولو إلى حين . وأما الرضا فلأنه أسلوب عمل صاحبهم وجادة سلوكه في حدود الخطة التي رسمتها الشام .. فما قطع وافد معاوية كل هذه المراحل الطويلة إلى الجنوب البعيد ليدخل البصرة عنوة ، أو ليغتصب أمارتها بحرب حامية على بحر هائج من الدماء هو القادم إليها في حفنة قليلة من الأعوان . بل قد جاء ليتسلل إلى نفوس أهلها ، وليختلس أرضها وسلطانها اختلاسا بانقلاب سلمى هادئ أو بثورة باردة بيضاء !..

غير أن الأحداث ابت إلا أن تعجل القوم عن هدوئهم وتسرع إليهم بلحظة الحسم التي كان لابد أن تكون . فليس من طبيعة الأمور أن يسود السلام اقليما انشق أهله ، وتنازع مصيره فريقان منهم يتصارعان على النفوذ . وليس أيضا بمقبول أن تجمد الدولة فلا تتحرك وهي ترى جزءا منها يوشك أن يقع في برائن فتنة تفصله

عنها وتقتطعه نهبا مباحا لمتنرد خارج على النظام . وليس كذلك  
مما يساغ ان يصبر إلى الابد على هذا الوضع المتميع فريق لمست  
الظفر انامله ثم لا يمد إليه يده قيد اصبع ليحتويه في قبضته !..  
تلك كانت العوامل والأحاسيس المحركة للظروف والموجهة  
للأحداث ووافد أمير المؤمنين يمضى شوطه من الكوفة ليدعو اهله  
وعشيرته بالبصرة ان يرشدوا فيلزموا الطاعة ويصموا الاذن عن  
وسوسة الشيطان !..

بدا أعين بن ضبيعة مهمته خير بدء ، وكما ينبغي ان يبدأ مثلها  
سفير . فلم يتجه لقومه وإن كانوا عساهم قد علموا بحضوره ، وإنما  
جعل همه ، من اول خطوة خطاها ، زيارة زياد ، إعلاما له من جانب  
بوفادته ، وإشعارا لجمهور السكان ، من جانب آخر ، إنه الأمير الذى  
يجب ان تحط عنده الرحال ولا محط لقادم عند سواه ..

وتذاكر الرجلان الأزمة . وأدلى كلاهما فيها بما يراه . ثم زودهما ،  
بعد قليل ، بريد الكوفة برأى أمير المؤمنين :

« .. إني قد بعثت بن ضبيعة ليفرق قومه عن ابن الحضرمي .  
فارتب ما يكون منه . فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به .. فهو مانح .  
وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان .. فجاهدهم ..  
وإلا فطاولهم .. فكان كتائب المسلمين قد أطلت عليك .. » .

وقال أعين لزياد وقد سمع ما في الكتاب :

« إني لأرجو أن يكفى هذا الأمر إن شاء الله .. » .

ثم خرج يشتد لتحقيق ما ندب له .

إن الكيل قد امتلأ وفاض . وسيرة الحسنى التى سارها الإمام  
في هذه الأرض - عفوا ورحمة - لم تلق ، فيما يلوح ، عند قومها  
ما هى أهله من العرفان والوفاء . فالصبر إذن عليهم نقيصة ،  
والتسامح ضعف ، وليس لهم عند حاكم يعرف تبعته ، ويستشعر  
حق امته عليه إلا الحزم الذى يقطع ويردع ، وآخر الدواء الكى فيما  
يقال !..

بهذه النظرة انطلق أعين ليجتمع ببعض قومه يبصرهم الأمر ،  
ويحثهم أن يجتنبوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة :  
« .. على ماذا تقتلون انفسكم ، وتهريقون دماءكم على الباطل مع  
السفهاء الأشرار ؟ .. » .

ثم حذرهم :

« .. إني والله ما جئت حتى عبيت إليكم الجنود . فإن تنيبروا إلى  
الحق بقبل منكم ، ويكف عنكم . وإن أبيتم فهو والله استئصالكم  
وبواركم .. » .

فقبلوا منه . ومضوا وإياه إلى إخوانهم الذين التفوا حول دعوة  
ابن الحضرمي ، يحاولون معه نصحتهم لعلهم يرشدون ..

لكن العصيان الذي خامرهم وترسبت في نفوسهم رواسبه حملهم  
على استقباله أسوا استقبال .. ما أن حل حيث كانوا حتى أسرعوا  
إليه بالسخط كأنما قد جاء يدعوهم لغير الوفاء والشرف والسلام ! ..  
بل قد خرجوا إليه مصطفين في العدة والسلاح ! .. بل قد حشدوا  
حشودهم له كأنه هو جيش وحده لا يجل بهم لقاءه إلا وهم على أهبة  
القتال ! .. بل قد قدموا ابن الحضرمي أمامهم يحفون به . ويلتفون  
حوله كأنه علم الكتيبة ، إمعانا في التحدي ، وإغراقا في المجاهرة الرعناء  
بالمخالفة والعداء ! ..

وعجب الرجل لهذا السلوك منهم وإنه لابن عشيرتهم ، الناصح  
لهم ، الأمين عليهم ، القادم عبر تلك الشقة الطويلة المضنية ليكف عنهم  
البلاء .. وراح من إشفاق يناشدهم الله :

« يا قوم .. لا تنكثوا بيعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم .. » .

ثم مضى يشرح ويبين ، أنا يذكر ، وأنا يحذر . فمنهم من يصفى ،  
ومنهم من يعزف عنه ، ومنهم من يقطع عليه الحديث في تبرم وإنكار  
أو في لدد سافر وعداء صريح ..

ومع ذلك فقد سار شوطه ، وشحذ كل منطقه وهو يحاور ويجادل ،  
يبصر وينور ، يمني وينذر . وماله لا يفعل وقد بدا له من ملامح

الوجوه ومن رشاش اللفظ المتناثر من هنا ومن هناك أن ثمة ما يومىء إلى تصدع طائفة غير قليلة من الحاضرين عن ابن الحزمى تصدعا يكاد يخرجها من صفوفه ، ويعود بها - وقد انجابت عن عيونها غشاوة الفى - إلى طاعة الإمام ؟ ..

ولقد كان من الطبيعى أن نهول هذه الظاهرة الخطرة حاملى دعوة ابن الحزمى الباذرين معه بذور الشقاق . فما مآل حديث أعين إلا أن يرفع الاكنة عن قلوب كثيرة فترى النور . وما غاية النور إلا أن يبين ويهدى ، فتهدأ الخواطر وتثوب الالباب . وما نتيجة استنارة العقول إلا تصدع جمعهم ، وانفضاض جمهرة اعوانهم عنهم التى تابعتهم من قبل بروح القطيع وتهافتت عليهم تهافت الفراش - مسلوب الإرادة - على النار ! ..

جزعت إذن هذه الفئة المشاقة الغالية في العداء للإمام وهى تلمح الأثر الذى يتزكه حوار ابن ضبيعة في الناس ، وختيت إن هى أملت له في الحديث أن ينقلب الأمر ، فتنطقىء نارها ، وتذهب قوتها ، ويتهاوى ذلك الصرح الشامخ للفتنة الذى أقامته بالخداع والدسيسة ليصبح غبارا تذروه الريح .. وعندئذ قشطت للعمل وأخذت نفسها بالتصدي لأعين ، وللذين مالوا إليه ، لعلها أن تدرا عاديته عن دعوتها ، وتخرج من المحنة التى أغرقها فيها بخير ما تستطيع ..

ولم يكن لها أن تقابله حجة بحجة وبرهانا ببرهان لأن الحوار في مثل هذا المقام له لا عليه . فهو ينضح عن قضية الوفاء بالعهد ، والولاء للدولة . وهو قادم لسلام يجنب الناس انقساماً يشدهم لا محالة إلى دم .. وهو يأخذ على يد القوم أن يصبأوا إلى الوقوع ثانية فيما علمتهم التجربة وبال الوقوع فيه . وهو بعد هذا في فريق من أهله إن لم تعطفهم إليه صلة الرحم فقد عطفهم حرصه عليهم أن تقصفهم المصارع وتتخطفهم الختوف ..

ليس بالمنطق يظهر صانعو الفتنة على أعين ، وإنما بدرء منطقهم أن يبلغ المسامع ويرسخ في الأفهام .. يعزل صاحب المنطق عن الناس وإن وقف فيهم لا تغيب هيئته عنهم ، وظل حديثه يجول بين الأذان .. بإقامة سور ضخمة من الضجيج والضوضاء بينه وبين الإصغاء ! ..

وفعلوا .

ضجوا على أعين ، وشغبوا على حديثه بأصوات نكراء كالعواء .

والشغب دائما سلاح كل متهور عاجز ، وسلاح كل فتنه تفتقر من الحق أو من القوة إلى ما تقدر به على التماس المسالك إلى العقول، لأنه السلاح الذى يستطيع صوته الهادر ان يطفى على ما عداه من اصوات ويملاً بهديره الأسماع . .

ولم يئأس الرجل ، بل ظل يعيد ما يقول ، ويكرر ما يعيد ، عسى أن تنفذ من ثغرة هنا أو ثغرة هناك في سور هذا الضجيج كلمة أو كلمات . . مرارا عديدة ثبت لهذه الضوضاء القاصفة ، وحاول أن يخترق سدها المنيع ، حتى مضت به عامة يومه ينصح واصحاب الفتنة يهدرون . يبصر وبضجون . يحذر ولا يكفون ، ومن ورائهم بقية الناس في معزل عن قوله ، لا يكادون يلقفون كلمة من عبارة ، ولا حرفا من كلمة ، أو يعرفون لهم منفذا إلى الاستماع . . حتى إذا آده عنت أصحاب الصخب ، وأعياء ان بحملهم على الإصغاء والهدوء . ثم آيس أن يرشدوا ويستقيموا ، صرح محاولا ان يذكرهم وبقية الجمع محنة امسهم القريب التى جرّها عليهم مسلكهم الاحمق حين آثروا الخلاف والعصيان . .

« . . يا قوم ، لا تجعلوا على انفسكم سبيلا . . قد رايتم وجريتم كيف صنع الله بكم ، عند نكنكم بيعتكم ، وخلافكم . . . » .

فإذا بمثيرى الفتنة ، وقد أضلهم هواهم ، وأعماهم عنادهم ، يشورون به أعنف ثورة تجزئه عن حرصه على سلامتهم شر جزاء . . فقد أفحشوا له في القول ، فلفطوا عليه بأقذع السباب . ثم نالوا منه باللفظ والإشارة . ثم أوشكوا أن يذيقوه حينه . .

ورأى الرجل ألا مناص — لحظته هذه — عن الانصراف عنهم ، فغادر مكانه وهو اسيف حزين وإن يكن قد استشعر الرضا وراحة الضمير . . فكفاه ان فئة منهم وعت قوله في مستهل الاجتماع ولعلها تكون نواة الهداية وبشائر الجنوح للسلام في الإقليم . وكفاه ان بلغ

رسالته للكافة ، ولم يكذبهم الرأى والمشورة ، مبينا لهم مغبة التمرد والانتقام ..

وهل هو إلا نذير ؟ ..

لكن اصحاب الشغب غالوا - إلى العمى - في سخطهم وحقدهم عليه ، حتى لقد نسوا أنه منهم . وأنه قد اتاهم برسالة سلام ووثام لا برسالة حرب وضغينة . وأنه آمن بينهم - أو ينبغي عليهم ان يكون - على ماله ونفسه إذ هو رسول ..

نسى القوم هذه العوامل ، ونسوا معها كل شيمة كريمة ، فابوا إلا التنكر لكافة ما تقضى به الشرائع ، وتوجيه قيم الأخلاق ، وتبرمه فروض التقاليد .. فإذا بجماعة منهم تتسلل إليه ، في جوف الليل ، وهو نائم برحله ، وحيدا بلا رفيق ، اعزل بلا سلاح ، وتنقض عليه بأسياها تتعاوره لتقتله غيلة ..

واوشك اعين ان يفر منهم بجراحه وقد ايقظته الطعنات . ولكنهم لم يدعوه . إنما تبعوه في الطريق الخالى على خيط دمه وانين أوجاعه ، حتى مزقوا جسده وقضوا عليه ..

ونجح القدر حيث اخفق الشغب فسكن المنطق الذى هالهم انتشار جرسه الوقور في الأذان ، وراعهم ان يسيطر على الأذهان .. والتهب الموقف في البصرة من جديد نتيجة لهذه الفعلة النكراء .. وعاد شبح الحرب ، كرة اخرى ، يطرق الباب ..

فلقد غضب مسجد الحدان لمصرع وافد الإمام .. غضب زياد ، وغضبت الأزد معه بطبيعة الحال . ربما كان غضبها انتصارا للوآقد ، وربما غير إنسانية للدم المراق .. لكنه لا ريب غضب قد انبعث من تشيعها لزياد ، ومن وفائها لتقاليدها العربية الكلفة عادة يكرام الضيف ، ورعاية النازح الغريب ، وتأمين الرسل واصحاب الوفادات إذ هم امنة ، في اعتبار كافة الشرائع ، أيما كانوا ، وكيفما كانت الرسالات ..

روعته النذر ..

في الجو رائحة عاصفة .. الهدوء يتحطم . الأفق الصافي ينجاب  
صفاءؤه ويتلون بالدكنة كأنما يلتف بدثار الليل . الغمام يتدافع  
ويتصارع ، ثم يتزاحم ويتلاحم ، ثم يلتئم كسفة واحدة شهباء تغشى  
السماء . البرق يخطف ويندلع كالخريق . الرعد يقصف فتترنح الأرض  
بهديره وترتعد رعدة محموم .. ومن وراء هذا كله سيول وصواعق  
تهم أن تنهمر وتنتثر ، لتنشر الغرق والنار والدمار ..

وتفكر مبعوث الشام .

وكان آونة كالحالم ، وآونة كالمبعوث .. فالصورة الآن أبعد عن  
ظنه واقرب إلى ما تسوقه صرعة كابوس ! .. وذهنه فيها تائه ، نرامت  
امامه الأبعاد نائية ، وعمقت الأغوار سحيقة ، فكاد من حيرة يدور حول  
نفسه كدوامة ! .. والخطر هذه المرة لا يخاليل الميون والعقول من  
بعيد ، ولا هو متربص متاهب ينتظر ويرقب ، بل يوشك أن يطير  
بجناح ! ..

وقلّب الرجل أمره ما أسعفه عند ذاك جنانه ..

افيكون اجدى عليه ، على نفسه ومجده ، واقوم لسياسة صاحبه  
القابع هناك بدمشق يخطط ويدبر ، أن يخوضها الآن حربا سافرة على  
اعدائه ؟ .. أم الخير في الطاولة - إرجاء للحظة الفصل ، إن وسعه  
إليها سبيل ؟ ..

كادت الغيلة الحمقاء أن تعجّله عن أمره ، وتفسد تدبيره ، وتدفعه  
دفعاً ، كأنما يحمله تيار جارف ، إلى مغادرة قلعة التريث المتحصن  
بها ، لتخرج به إلى الصراع في العراء المكشوف ! .. حتى أمسه كان  
آمناً في حصنه ، يعمل على مهل ، من وراء جدر الإعداد الخفى ،

واسوار التآمر والدس ، ناسجا شراكه المتينة الدقيقة ليقتنص النصر .  
ليختلسه .. ليمتصه قطرة قطرة والخواطر مسترخية او غافلة عنه ..  
اما وقد غدر اصحابه بأعين ، وقتلوه غيلة ، فتلك الغدره هي الوخزة  
المؤلة التي نبهت عدوه من الغفوة وحفزته .. فها هو زياد يتنمر بعد  
ضعف ووهن ، او بعد تماوت وقبوع إلى المسألة او الاستسلام ..  
ها هي الأزد تشتعل حمية أن يجللها سكوتها على الغدر بصاحب  
جارها الهوان والعار .. هاهم شيعة وأعوان آخر للإمام في الإقليم ،  
كانوا إلى الأمس في تردد ، يقهرهم الموقف - إذ انكشف عن بصيرتهم  
الغطاء - على نفى ذلك الجمود الذي صفدهم به ، طويلا ، التخاذل ،  
وكبلهم الثبوت ..

وحقا قد نهض زياد في السلاح ، بالأزد جميعا ، وبمن فاءوا إلى  
الهدى والطاعة من شيعة الإمام ، وبمن عساهم كذلك أثارتهم الغيرة  
الفاجرة بين اهل الإقليم .. ولم يكن له إلا أن ينهض نهوضه ، في لحظة  
تلك على الفور وقد جاءت حماقة تميم بفرصة العمر دون أن يجهد  
فتيلا لتحريك الأحداث .. ولم يكن له إلا أن يفيد ما استطاع من هذه  
البادرة التي - عن سوء تبصر وانطماس وعى - أهدتها زلة عدوه  
إليه ..

ونوشك أن نجد الآن من يقول إن هذا النزوع المفاجيء إلى العنف  
الذي باغتهم به زياد ، كان مجازفة غير مأمونة المغبة . خليفة بأن تصبح  
نتيجتها عليه ولا تصبح له لو استقبلها ابن الحضرمي وحزبه بعزم  
ثابت ، او برد جرى .. ولكنه قول من يحكم بعد أن تجمعت لديه  
شوارد الشواهد والأدلة من هنا وهناك ، وعرف مواطن الضعف  
والقوة في كلا الفريقين المتنافرين كأنما يقرأها في كتاب أو يزنها بكفتي  
ميزان ! .. وهو أيضا الرأي الحري بأن يبعد ، في تلك اللحظة ، عن ذهن  
ابن الحضرمي وأذهان أعوانه هم الذين كانوا - إلى امس ، بل إلى ثوان  
معدودات قبل انتفاضة زياد ! - يدلون بالصولة والجبروت  
ولا يعلمون لهم بالبصرة كفتا يباريهم ، زيادا كان أو غير زياد ! .. فإن  
يكن ، مع ذلك ، ما أقدم العامل عليه يعتبر في المجازفات ، فهي إذن



المجازفة التي لا سلوك غيرها أولى بالموقف ، ولا اليق منها بصاحبها ،  
أو افعل منها وابلغ اثرا في مثل هذا المقام ..

مجازفة فيها من اليمن قدر ما فيها من الأمن ، دلت عقباها على  
أنها المبادرة الحكيمة لا المخاطرة الرعناء !.. فقد اخذت العدو انصلف  
على غرة ، وفاجأت أفراده وجماعاته بغير ما قر في روعهم وخلد في  
اذهانهم حتى لأوحت إليهم أن بروز غريمهم لهم في السلاح هذا  
البروز لابد وراءه طاقة حرب مكثرة ، قد اعدّها خفية ، وعرض  
يها ما كان من افتقاره قبلها إلى القدرة على اللقاء !.. وهي - هكذا  
- كانت كفيلة بأن تهز ثقتهم القديمة بأنفسهم ، وتخرج بهم من  
نطاق الاعتزاز بشوكتهم ، والاطمئنان إلى ما لديهم من قوة وبأس ،  
وما ظنوه من تفوق واستعلاء .. وهي ، إلى جوار هذا وذاك ، بيان  
للناس ، يعلن للثهم أن سكوت العامل - إلى ما قبيل لحظة النهوض -  
على أصحاب الفتنة ، النافخين في حريق الخلاف ، لم يكن عن عجز  
أو رهبة ، بل كان صدى لميله الكريم إلى معالجة العصاة والخارجين  
على النظام بالصبر والترفق ، تجنباً للحرب ، وتشبهاً بالسلام ..

ومع هذا ، فليس يجمّل أن يزعم زاعم أن زيادا ، حين برز  
بأصحابه يومئذ في عدة الحرب ، كان قد بيته نيته على القتال ، فذاك  
ما لا تشف عنه شواهد الظروف ولا قرائن الأحوال .. إنما الأرجح  
الأدنى إلى منطق الأمور ، أن يذكر للرجل انه - بتعبير اليوم ! -  
قد « ناور » فأجاد المناورة ، أو موه فأحسن التمويه !.. فلا مرأى في  
أنه استطاع أن يظهر كمن كان على أهبة كاملة ، وعن طواعية واختيار ،  
لخوض معركة لا بد له من خوضها ليحسم موقفا شق عليه أخيرا  
احتماله ، وليستعيد أزمة الأمور في يديه .. فأما ما يبطن ويوارى  
عن العيون والأفهام فالرغبة كل الرغبة في أرجاء الالتحام - إن لم نقل  
تجنبه - امتثالا واعيا منه لمقتضيات الأوضاع وأحكام الظروف  
المهيمنة ، حتى ساعته تلك ، على الاقليم ..

كذلك لا نحسب الرجل قد استخفه أن عز جانبه بعد ضعف ،  
وزاد انصاره بعد قلة ، فظن الظروف والأوضاع قد تحولت له ،  
فدانت لأمره ، وحشدت في صفوفه كافة عوامل النصر وإن كنا

لا ننكر أنها ، حقا ، أبعدت عنه ، إلى مسافة غير قصيرة ، معظم احتمالات الهزيمة .. كلا . فما هو بالغافل عن الأغوار والأبعاد فتغره المظاهر ، ولا بالأحمق فيخدع نفسه ويركن إلى الأمانى والأحلام . وعندما نتعقب خبره ، ونتأثر خطاه على أرض الصراع إبان الأزمة ، لا نكاد نجد بسلوكه ، من قبل ومن بعد ، أثرا من نزق الحمق ولا من خلل الغفلة .. فما هو يرضى من الأزد قرارها القاضي بكف الحرب ، ولما نشب ، ولا يضيق به .. وما هو يجنح إلى الاستعانة كرة أخرى بمن عساه يعرض عليه ابن ضبيعة ويفرق بالدعوة أصحاب الفتنة ، فيحقق بالرفق ما قد يحقق القتال .. وما هو في تصرفه ، على نحويه ، يلتزم سياسة المطاولة التي نصحه بها الإمام ، ويؤثرها ، عادة ، كل حريص متبصر يأخذ نفسه بتجنب المخاطرة حتى تستقيم الأمور له ، وتتجمع في يديه مقومات الغلبة جميعها على وجه اليقين والقطع لا على وجه الاحتمال والترجيح ..

وإذن فلم يسؤ زيادا من الأزد أن تخطت عن القتال ، وفضت حشدها مستجيبة لطلب عدوه حين بعثت إليها تميم من يقول :  
« .. .. والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه .. .. فما تريدون إلى حربنا ، وإلى جارنا ! .. »

ما كان قط ليسوءه من انصاره موقفهم ذاك الذي مال بهم عن العنف إلى اللين ، وعن الحرب إلى الهدنة ، لانه في حقيقته ليس الموقف الذي لابد له أن ينصاع لقبوله ، بل لانه الموقف الذي كان يصبو إليه فعلا ويرجوه .. فكفاه أن بلغ بالمناورة في هذا المقام ما أغناه عن السلاح .. كفاه أن عز شأنه ، وبدت هيئته ، وظهرت للملا قوته وقد تصدعت عن غريمه كثرة من رجائه ، بعضهم من شيعة على فاءوا إلى الطاعة بعد عصيان ، وبعضهم من عشيرة أعين ومن سواها هالتهم الغيلة ، واسخطهم ما كشفت عنه من خسة القوم ، واجترأهم الآثم الفاجر على شريعة التقاليد .. كفاه أن اتحصر عن البصرة مد الموجة الإرهابية العاتية التي حركتها عصاية ابن الحضرمي ، وأوشكت أن تجرف في تيارها الناس أجمعين لولا هذه المبادرة المسلحة التي

فاجأت أعداءه ، وحطمت ما كان قد استقر في الأذهان من خرافة تفوقهم ، ثم كبحت فتنهم الهدامة أن تعم الاقليم ..

ولم يخف عن أمير المؤمنين انه رد نفسه عن لقاء القوم ، بعد أن اوشك أن يناجزهم ، لأسباب رأى إلا يعلنها بكتابه كأنما قد خشي أن تذيع ، وصارح الإمام بحرصه - دون القتال - على انتهاج سياسة سلمية ، مآلها في رأيه ، محق الفرقة ، وجمع الشمل ، ووقاية البصرة المصارع . فهو آمل أن يبلغ بالرفق ما قد يبلغ بالعنف ، راغب أن يحسم بالكلمة ما قد يحسم بالسيف ..

كتب في رسالته وهو يشير إلى الغيلة :

« .. فأردت أن أناهض ابن الحضرمي عند ذلك .. فحدث امر امرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين .. »  
فلعله يومئذ إلى مناورته التي جرت في إخلاد خصمه مجرى اليقين ..

ومضى يعرض رأيه :

« .. وقد رأيت ، إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصرة ، مطاع في العشيرة ، شديد على عدو أمير المؤمنين .. فإن يقدم ، فإنه يفرق بينهم بإذن الله .. »  
وأحسن الاختيار بدلالة الماضي والحاضر ، وبشهادة ما انتهت إليه وفادة جارية ، وآلت إليه بعدها الأمور ..

فلقد كان الوافد الجديد كما قال ، من الألى عرفوا بالعزم والصبر وقوة الشكيمة ، الذين يشتعلون حمية ، ويلتهبون غيرة ، ويكادون من ولائهم للإمام ، وتشيعهم له ، يحملون بين جنوبهم قلوبا من نار ، لا تكف لها فورة ، ولا يهدأ ضرام . إنما تغلى وتنوذب برغبة عاصفة مشبوبة السعير تهم أن تطلع على العدو بكل نقمة مدمرة ، وعذاب مهين .. ولا أدل على الإفصاح عما في نفسه ، مما قاله يوم مخرجه من الكوفة إلى البصرة لكعب بن قعين ..

يومها استأذنه كعب أن يستلحقه في مهمته الخطرة :  
« إن شئت كنت معك ، وإن شئت ملت إلى قومي ..  
فإذا هو على الفور يقول :

« بل معي !.. فوالله لوددت أن الطير والبهايم تنصرني عليهم ،  
فضلا عن الإنس !.. »

ومضى على الطريق كاعصار غاضب ، بين خمسين انتقامهم بطانة له  
من تميم الموتورة التي هاجها من أهلها بالبصرة أن شجبت الطاعة ،  
ووالت العصيان ، ولم ترع ذمة العشيرة ، ولا صلة الرحم في دم  
أعين المراق ..

وكان في قلبه حريق تتوئب للاندلاع !..



بدأ جارية بن قدامة ، أول دخوله البصرة ، بمنزل زياد إذ هو  
الأمير . ثم ثنى بمنازل الأزد وقد شاقه أن يحييهم ، ويذكر لهم بالخير  
ثباتهم في الحق ، ووقوفهم في وجه الباطل .. فلما استقر به المجلس ،  
وتشعب الحديث ، وطابت نفسه بما هم عليه ، تلا عليهم رسالة  
أمير المؤمنين إلى أهل الأقليم ..

وكانت الرسالة كما تكون الرسائل أمثالها في مثل هذا المقام ،  
تذيرا وبشيرا ، ووعيدا ووعدا في آن .. نذيرا لمن خالف وعصى ،  
وبشيرا لمن تابع واستقام ، تحمل الويل كما تحمل الأمان . وتشدد  
الذاكرات إلى أمس الذاهب الذي تناثرت فيه على أرض البلدة المشاقة  
جوارح وأشلاء استدل أصحابها التمرد وأسلمهم طعمة شهية للبوار .  
ثم تهب الرضا للطائع ، والأمان للتائب ، وتتوعد بعد هذا أولئك الذين  
قد يستخفهم النزع والضلال إلى الصبوء القادر كرة أخرى لخيانة  
العهد - ردة حمقاء - للماضي المخدول !

« .. .. . فها أنا ذا قربت بجيادى ، ورحلت ركابى ! .. وأيم الله لو الجأتمونى إلى المسير إليكم ، لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعة لاعق ! .. .. . »

وارتاحت الأزد للكتاب ارتياح من تفيأ الظل بعد وقدة الظهيرة المستعرة ، وطرق الواحة بعد تخطيط في مفازة مقفرة .. فستان بين يومهم الغابر ويومهم الحاضر .. بين جمحة الهوى الأرعن وتبوت اليقين الرصين .. بين الظلمة والنور ! ..

وتكلم عنهم صبرة بن شيمان :

« سمعنا وأطعنا . نحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم .. .. . »

ولم يكن الوافد الجديد من الكوفة بحاجة لسماع مثل هذا الكلام . فأمرهم الآن معلوم . وانحيازهم للإمام عن عدوه لا شبهة فيه . وخلصهم من الفتنة القائمة يعرفه الولي والغريم .. ولكنه حين جاءهم إنما عساه قد شاء أن يستوثق أن وقوفهم إلى جوار عامل الإقليم لم يعد - كبذئه - عن مجرد حمية وتعصب للجوار ، بل هو أيضا عن ولاء وإيمان ..

واردف صبرة يقول ، تعقيا على مهمة الرسول :

« .. إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك . وإن احببت أن ننصرك نصرناك .. .. . »

وتوالت في عقبه أحاديث المتحدثين ، ينهجون نهجه ، ويلتزمون رأيه ، ويرددون ما عبر عنه ، وقد أنسوا بالطاعة ، وصبت قلوبهم إلى قمع الفتنة من أى جحر تسلت ، وبأى أناس استعزت ومضت تضرب بسيف ، أو تجأر بعبارة ، أو تشير ببنان ! ..

وإنه لإجماع ! ..

وعندما نهض جارية ليغادر مجلسهم إلى ما قدم له وقد امتلأ ثقة ، همت كثرة منهم ، ولاء أو حمية ، أن ينهضوا معه ، ويلتحقوا به مؤازرين في سيره إلى قومه المخالفين ..

لكنه كفهم عن المسير ، وأبى عليهم أن يصحبوه في رحلته ، وهو يستشعر الأمل ، بل القدرة ، على أن ينجز - دونهم ما يريد ..

ومضى الرجل يحث خطاه إلى نعيم ..

إنهم عشيرته . هو أولى بهم وهم أولى به . وقد جاءهم من لدن أمير المؤمنين بالعتاب المندر ، وبالإنابة المسحة ، إذ خاطبه حين رأى إيفاده إليهم ليفضهم عن الفتنة :

« يا ابن قدامة .. تمنع الأزد عاملى ، وبيت مالى ، وتناقنى مضر وتنابدنى ! .. وبنا ابتداها الله بالكرامة ، وعرفها الهدى .. » .

لكم يأمل أن يصفوا له ، ويرشدوا بنصحه ، تجنبيا لما يدرك أنهم لا ريب ملاقوه لو ظلوا سادرين سدورهم هذا في ضلالتهم العمياء مع الذين حادوا الله ورسوله .. ولكنه الآن يكاد يستشعر الطمأنينة ، ويعجل لهم ، في باله ، بالإنابة قبل الزيغ ، وبالقبول قبل الخلاف . وإذا كانوا قد شاقوا أعين ، وشقوا عليه بالأمس ، فإنه لمستيقن أن منزلته هو في نفوسهم ، وشأنه عندهم ، وكلمته فيهم ، كلها - فيما يقدر ويعتقد - أبعد عن الهوان وفوق العصيان ! ..

وابتسم عن اعتداد وثقة ، وهو يذكر عبارة زياد له حين ودعه لهذا اللقاء ، يوصيه :

« يا جارية .. احذر على نفسك ، واتق أن تلقى مالقى صاحبك القادم قبلك .. » .

أفيأتري هم مناوئوه ؟ ..

بل كلا ، فما جال هذا له في خاطر وإن كان قد عقد العزم قبل مقدمه أن ينهج إلى حملهم على الطاعة كل منهج ولو مشى إليهم على موعظة حسنة ، أو عدة مأمولة ، أو وعيد مرهب ، أو دم مسفوح ..

وكذلك مضى جارية شوطه ، إلى موقع قومه ، يحدوه رجالؤه .. على لسانه عظة ، وبقلبه طمأنينة ، وفي خياله سلام ..

غير أن زيادا لم يشأ أن يترك أمر صاحبه بين يدي أمله واعتداده .

فالأمل أحيانا خادع ، والاعتداد خوان !.. إنما رأى أن يتحوط فيعد له ما يحمي ظهره ، ويحوطه ومهمته الخطرة بما يجنبه مصير سلفه ، ويكفل النجاح .. فما هو أن خرج جارية من لدن الأزد ، حتى خف إليهم العامل ، يكاشفهم . ويتسحن صدورهم بالتحفز ..

وكان من قوله لهم :

« .. إني والله ما اخترتكم إلا على تجربة .. فما رضيتم أن أجرتهموني حتى نصبتهم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شرطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة .. فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجبيه اليوم . فإن لم أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله .. » .

فشد قلوبهم إليه هذا العرفان بما قدموا له ، وزادهم حمية ..

ومضى يقول :

« .. يا معشر الأزد .. إن حربكم اليوم معاوية يسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس عليا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة .. ليصدع امر قومه ، وأنتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية .. فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم .. » .

فأسرع أبو صبرة إليه برايه في خارجه الإقليم :

« .. لو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء .. ولكنها جماعة دماؤها حرام ، وجروحها قصاص . ونحن معك نحب ما أحببت .. » .

وثنى ابنه في عزم صلب ، واصرار عنيد :

« .. يا زياد ، والله ما أدركت أملك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك . ونحن رادوك إليها غدا !.. » .

وأدرك زياد غايته ..

لكن ظن جارية في عشيرته خاب .. ما إن طلع عليهم وطلعوا عليه حتى تبين أنه كان مغرقا في الخيال كل الإغراق حين حسبهم - لا بد -

منتصحين بنصحه ، ممثلين رايه الذى لا راي غيره يهبهم الشرف  
والامن والكرامة .

وكذلك تهاوى امام عينى رسول الإمام - فى لحظة - صرح تلك  
الطمأنينة الذى بناه رجاؤه المسرف عليه فى التفاؤل ، كأنما نقضه  
زلزال !.. واستشعر ، والمرارة ملء قلبه ، انه عاش أيامه السوالم ،  
منذ مخرجه من الكوفة ، فى تيه سراب .. إن عيونهم لتتقد بالغل ،  
وإن ملامحهم لترعد بالحقد ، وإن جلودهم لتكاد تشف عن عروق  
لا تمتلىء بالدماء بل بالعداء ..

ومع هذا فلم تضطرب فيه جارحة ، ولا اهتزت ثقته بنفسه  
ولا إيمانه بصواب ما جاء فيه وإن تصدع أمله فيما خاله من إدراكهم  
المنصف .. ولئن كانت هذه البادرة منهم - وهى بعد عبسة على  
الوجوه الكالحة - قد وشت له بما يضررون من شر ، ففى وقاضيه  
الدواء المر الذى تستطب به نفوسهم المريضة ، وتعتدل رقابهم التى  
لواها العنت ومالت بها الخيلاء !..

وكاد يحس عندئذ أنه أعين بن ضبيعة وليس جارية بن قدامة !..  
فالموقف كالموقف . الصورة هى الصورة ، والصوت هو الصوت ..  
قد اصطفوا له كسد أصم ، تتكسر عبارات دعوته الهادية على صخوره  
ثم ترتد إليه حطام أصداء !.. ولغطوا عليه بمثل هدير يفرق نصحه  
ونجواه فى لجة الضياع .. وعندما استمسك بأناته ، وعاد مرارا مرارا  
حثهم على نبذ الفتنة والفتىء إلى الطاعة ، خرج إليه من بينهم أوباش  
يقذعون له فى السباب ما شاء الصلف وشاءت الضغينة . ثم راحت  
ثمابين الغدر تزحف إليه . ثم همت به لتنال منه ببطشة الكف ما لم  
تنل حدة اللسان !..

وهاله هذا الجحود من أناس يضمن بهم على التلف فلا يكفيهم أن  
يقارعوه رايًا برأي وحجة بحجة لو أنهم عرفوا سبيلا إلى الحجج والآراء ،  
إنما تأبى عليهم نفوسهم السوداء إلا أن ينتاشوه كالكلاب المسعورة !..  
ونفر به عندئذ حلمه كما ينفر جواد روعته حية !.. وتجمدت بين جنبيه  
الرحمة التى جاءهم بها إذ استقبلوها وعلى أيديهم أكفانه !..



هنا فار قلبه واندلع سعيه يرسل السنة النار !.. وماله لا يفور  
وإنه الآن لفي شرك طفعة حديثها غدر ، وعلى أرض ترايبها عداوة ؟..  
والهمته بديته الصافية ، التي لم يطمسها الهول ، ما كان لابد  
أن تلهمه في هذا المقام .. فليس للرفق مكان . لم يبق للصبر منزع .  
لم يعد للجدل مجال .. إنما الألزم ، فضلا عن الأسلم ، أن تنسحب  
الكلمة من الميدان وتخلي موضعها للعنف والسيف . فحديث الدم  
وحده ، الآن ، هو الحديث المسموع !..

وعلى الأثر بعث جارية إلى زياد وانصاره الأزدي يستصرخهم أن  
يسيروا إليه ..

فكانهم كانوا جميعهم تحت ثوبه !..

سوية أو بعضها تقضت ثم انصب حشدهم يجرى على الأرض  
حواله يحمل الموت على الأسنة المشرعات !.. موجة بعد موجة أقبلوا ،  
وصفا صفا تراصوا حيال أولئك الخارجة الفادرة الصابئة ، التي  
أسكرتها سطوتها ، وغرتها كثرتها ، فأثرت الفرقة على الألفة ، والنكت  
على الوفاء ، والحرب على السلام ..

وتواقف ابن الحضرمي وأعوانه ، فرسانا وراجلين ، في وجه  
انتفاضة الأزدي الجديدة .. لا مناص الآن من خروجه عن نطاق خطته  
إلى لقاء سافريات والذين معه يرون إلا موجب بعد لإرجائه . فالمداورة  
أصبحت لا تفيد ، وسياسة التسلل والدس وما انطوت عليه من  
حركات تحتية أو خلفية قد فرغ ما في جعبتها كله واعتصرت إلى آخر  
فطرة . والوقت عليه لا له ، كلما انفسخ رقت بقدر فسحته هيبة حزبه ،  
ورث نفوذه ، واستطار واستفحل شأن مناهضيه في الأقليم .. وإذا  
كان الأمر قد حمله على الإصغاء لدعوة الهدنة التي دعاهم إليها الأحنف  
ابن قيس ، فذهلة المباغتة هي التي حادت به عن القتال . فاما وقد  
جمعوا له اليوم ، وتشرعوا لحربه ، فإنها إذن الجراة التي يابها  
ولا تسندها - في رايه - قوة تفوق قوته ، أو بأس يعلمه فيخشاه .  
والوضع هكذا يحتم عليه مبادرتها بما يقمعه قبل أن تطل على البصرة  
كتائب الكوفة التي وعدهم بها الإمام .

ونوشك ان نقول إن سير القتال افصح كل الإفصاح ان وافد معاوية كان انأى عن الحكمة ، وادنى إني البطش - بل إلى الاغترار - حين مشى أولى خطواته إلى ذلك اللقاء .. فلم يبذل رجاله البلاء الذي توقعه وتوقعناه . ولم يصبروا لعدوهم في الميدان صبر المستعز بالكثرة ، المدل بالطول ، الذي طالما رأيناهم قد لبسوا ثيابه ، واستعاروا إهابه ، وهم يشيعون الإرهاب ويركبون الناس في البصرة بالطغيان .

كلا ، فلم تطل الحرب . ولا بدت لنا من خلالها مواقف تصورهم مناجزين أكفاء .. بل أسرع بهم الأقدام يهطمون كقطيع شارد إلى أيما وجهة لاح أنها تجنهم عن ضربات خصمهم القضوب وتقيم المهالك .. وكأني بالكثرة الغالبة فيهم ، وقد حمى النزال ، وآنت من عدوها الصبر والإصرار على النصر ، تؤثر النجاة فتركن إلى الفرار . وكأني بالبقية الباقية منهم ، وقد انجاب عن عيوبهم وهم الاقتدار ، تلوذ بدار ابن سبيل التي كان مبعوث الشام ، منذ مقدمه عليهم ، يتخذها مقرا ودار إمارة ..

وكيفما تعددت أسباب هذا الانهيار المفاجيء الذي اصاب مشرى الفتنة وتنوعت دواعيه ، فإن ابن الحضرمي لم يجد أمنا بملاذه . إنما غدا حبيس هذه الدار التي طالما شهدت جبروته ، وخصمه حولها يحاصرونه ، ويفلقون دونه كل منافذ الخلاص حتى لقد بات منهم في قبضة ضخمة تشتد عليه وتعتصره لتستنزف ما به من حياة .. ولم يكن وحده في شرك الصياد ، بل كان في سبعين من الالى غرته نصرتهم ، وخدعتهم دعوته ، يتخبطون معا في الحبال المحبوكة ، إن مدوا البصر ففى تيه من الدهول والضياع ، وإن ردوه فإلى حصرة واسترجاع ! ..

وسرعان ما عاجلتهم النهاية .. فإذا هي كأقصى ما تكون النهايات ، واقطع ما تسفر عنه العداوات في معترك قتال ..

في لحظة من لحظات الغضب العاصف ، فار تنور ذلك القلب النارى

المتأجج في جوف ابن قدامة ، وثارت نائثرته ، فاندفع لهيبه جحيما كأنما  
عن بركان تفجر وراح يرسل حممه طوفانا يجرف ويجتاح ..

وبدا نذير هذا الانفجار المدمر على طرف لسان جارية بكلمة هتف  
بها لمن حوله من الثوار :

« على بالنار ! .. » ،

فكانما صعقتهم الصبحة ! ..

طويلا ، كطول الدهر فيما حسبت الأخلاق ، تلبتوا في صمت أخرس ،  
كتم الصوت ، وشل الجوارح ، وجمد الأنفاس . فالدهشة التي طغت  
عليهم عندئذ واغرقت منهم الأوصال والحواس في غمرة الخور لم  
ينبعث عن عجب وإنما عن صدمة عصبية جاءتهم بها دعوته المذهلة التي  
باغتتهم بأغرب ما يجول في وهم ، ويطوف بخيال ، لأنه محال المحال ! ..

لكن صوته الغضوب عاد ثانية يكرر ندائه هادر الجرس ، حاد  
النبرة ، بارز المقاطع كأنما ليحفر في روع القوم انها الدعوة التي لا دعوة  
غيرها تناسب الوضع وتوافق الواقع .. حتى إذا ثاب بهم هديره إلى  
بعض الوعي ، واستطاعوا ان يشقوا الشفاه المزمومة ، ويحركوا اللسنة  
بالكلام ، صارحوه :

« لا ! .. لسنا من الحريق في شيء .. » .

فلم يرده جوابهم عن التردد . ولم يردهم ترديده عن إياء  
ما يريد ..

وحين أعياهم إقناعه : واستيقنوا منه الإصرار الذي لا يهزه جدل  
ولا يشنيه حوار ، عادوا يخاطبونه باللهجة الكفيلة بأن تحرك القلوب  
إن كان لا يسمعها أن تحرك العقول ..

قالوا له يناشدونه الرحمة والرحم ووشائج العشيرة :

« يا جارية .. هم قومك ، وأنت اعلم .. » .

غير انه اصم أذنيه . أو لعله لم يسمع وهو هكذا في هدير ثورته .  
فما كفه قولهم عن عزمه . ولا عطفته القربى على تلكم الفئة المستخفية

خلف الجدران من بنى أصله . إنما زادت غلواء حنقه عليها ، وتضرمت  
سعيها ما لبث أن تجسد خطبا يشتعل ويضرب نطقا محكما من الحريق  
حول دار ابن سبيل ..

ولا نرانا هنا نعتذر لجارية - وما ينبغي - عن فعلته هذه وإن  
كانت اليق بحنقه واشبه بطبعه النارى الحاد . ولكننا كذلك لا نظننا  
فنكر انها لم تكن لتبدر عن مجرد رغبة خالصة في التنكيل ، أو عفو  
الخطر دون مقدمات وأسباب ..

ففيما تنم عنه خاتمة ذلك الصراع ، يكاد ابن الحضرمى يتمثل لنا  
في صورة المتشبث بالمقاومة ، المتعلق بالثبات لأعدائه إلى آخر نفس  
وآخر قطرة دماء .. بدا الرجل ، حينئذ ، المصابر الذى يخلق بالكلفين  
بالمجد المتصددين للعظام أمثاله أن يكونوه ، والمجالد الذى إن ذل نفره  
لم تذلل نفسه وإن أعوزه العتاد لا يعوزه الاعتداد .. فما نعلم أنه  
- إذ خذلته جموع أنصاره في ساحة القتال - قد وضع سلاحه  
أو رفع راية أمان . بل قد أسرع إلى الدار والحفنة التى تابعته يتخذ  
منها قلعة ، ومن جدرها دريئة ، ويثبت بها ثبات المتأبى على التخاذل ،  
الترفع عن التسليم ، محاولا أن يقابل هجمات عدوه على ملاذه بكل  
ما يسعه صبر المستيثس الذى لا سلاح له غيره في مثل هذا المقام .

بهذا تطالعنا شواهد الحال . ثم تنطق بأن أمد هذه المقاومة اليائسة  
لم يكن بالقصير . ثم تظهر ابن الحضرمى قد لج في عناده ورفض أن  
ينزل على حكم الواقع فيخلى معقله ، ويلقى سلاحه ، ويضع نفسه  
ومن معه وديعة في أيدي المنتصرين وإن أيقن اليقين كله أن مقاومته  
هباء وفناء! .. ولا نشك هنا في أنه دعى إلى التسليم وإن كنا لا نقطع  
أكان جارية ، أم زياد ، أم سواهما من أصحاب الراى في الجيش الظافر  
هو الذى دعاه . ولكنه دعى على أية حال . وأبى الاستجابة للدعوة .  
وتسامع الناس في البصرة بالدعوة وبالإباء كليهما فأقبلوا - على اختلاف  
ميولهم وعواطفهم : متشيعين أو معادين ، مشفقين أو شامتين  
- ليشهدوا ما يكون : أهو استبسال فاستثصال ، أم انهيار فأسار! ..  
تكاد سيرة هذه المقاومة تنضح بما أسلفنا من صلاحية ابن الحضرمى  
وأصحابه المعتصمين وتأبيهم على الاستسلام . فلقد اقبلت الجموع

لترى النهاية عسى أن نفرح بنجاة ولى أو ببلية غريم .. وأقبلت فيها  
أمة ولهى ، قد ملكها الجزع على ولدها الرابض وراء الأسوار .. ولعلها  
لم تكن إلا واحدة من أمهات وآباء قد استنطارهم خوفهم على الأبناء  
الذين أطبق عليهم الحصار .

وكانت حبشية ، داكنة اللون . ولكن وجهها الأسمر حال من هلع  
حتى غدا أشهب بلون شعرها الذى غزاه المشيب . وكانت تنصب  
- من عجل - في مشيتها كالسيل . وتضطرب ، من رعدة ، كشراع في  
بحر ثائر . وتمرق ، من لهفة ، في الزحام كالسيف وهى تهطع الى  
الدار . فلما أن أفضت الى الباب ، راحت تقرعه بكلتا كفيها وهى  
تصرخ منادية ولدها الذى أجنثه الجدران ويوشك أن يجنه بعدها  
الهلاك ..

وظهر لها ، على صرخاتها ، ابنها بعد قليل ، يطل عليها من بعض  
شرف معقله . فلوحت تدعوه .. وراحت تناشده نفسه وقلبها ،  
أن يخرج الى الحياة ..

لكن الولد أبى أن يسلك غير مسلك أصحابه ، فلم يلب النداء ..  
فألهمتها غريزتها أن تتوسل اليه بما قد يكرهه على طاعتها ،  
فكشفت رأسها ، وأبدت قناعها ، وعادت تناديه :

« يا بنى ، انزل الى .. »

فأبى ثانية ، أنفة أن يخون عهد الثبات ..

بندئذ صرخت المرأة :

« والله لتنزلن ، أو لاتعربن ! .. »

واهوت بيدها الى ثيابها تهم أن تخلعها ، لتكشف سواتها للناس ،  
وتجلل ذلك العنيد بعار أقسى عليه من عار التسليم ..

هذه الصورة النابضة ، إذ ترسم ما كان من صلابة أولئك  
المتعصمين بالدار ، الثابتين للحصار ، ترسم لنا أيضا صلابة  
ابن الحضرمي وأصراره العنيد على المقاومة مابقى فيه دماء .. فهى

صدى لعزمته ، وظل لثباته . وما ينزع جندي مثل هذا النزوع  
إلا أمثالاً لخطه قائده ، وترسماً لخطاه ..

وكذلك جاءت النهاية كأقسى ما تكون النهايات . فتفحمت دار  
ابن سبيل بمن ضمت . وذهب الرجل الوافد من الشام ليشعل  
في البصرة نار الفتنة وقوداً للنار . وتبددت خطته الخداعة مع دخان  
الحريق ..

وعندما انطفأت الشعلة ونشر الموت ظلاله الثقيلة على المكان ،  
سارت الأزدي بزياد فأنزلته قصر الإمارة ومعه بيت المال . فلا منازع  
له اليوم ، ولا كلمة في الإقليم لسواه ..

وقال له قائلهم :

« هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ .. »

« لا .. »

( فبرئنا منه .. »

فلقد وفوا بالعهد ، وقضوا حق الجوار ..

## الفصل الثالث

ما عن الحسد وحده حورب الإمام بالسيف وبالكلمة !..

عن الجهل الجامع في الظلمة رغت به قلوب مطموسة لا تعرف الحق ، ثم تأبى - وإن تبلغ وأضاء - أن تراء ، سدورا في المكابرة والعناد ، ولجاجة في العمى والغواية ..

عن انحيار ظالم عن الله ، وافنتان صلف عن دينه .

عن قصور ذليل عن تفهم المثل والمبادئ القوسمة . وافتقار عاجز الى التطبع بالخلائق الكريمة ..

عن انتقام أرعن لماض ملوث مقهور ..

عن كل هذه الدنيا ، وغيرها ، التي فجرت حوله العداوات حورب الإمام رجلا وخليفة ، قوة وفكرة .. ولكل هذه العداوات ، وما حالها ، ثبت مناضلا عن الحق والفضيلة انتصارا لكرامة الإنسان . فما عرف قط من سلوكه أنه سمى في مرحلة من مراحل كفاحه الطويل لتعزيز قدره أو لتحقيق مأرب خاص . ولا رنا يوما في عمره من الدنيا العريضة الطويلة الى غاية لنفسه من مغنم مال أو مغنم صولة ..

.. .. . فما المال ؟ ..

فيه قال كلمته التي ظلت دائما شعاره :

« المال مادة الشهوات . »

وإليه وجه نظرة العازف الزاهد الذي يراه تبعة ثقيلة على جامعه ، ومبئا يعيبه لأنه يشقيه ولا يكاد يغنيه :

« يا ابن آدم .. ما كسبت نوق قوتك فانت فيه خلزن لغيرك .. »



ومن حصيلة بصيرة ملهمة وروح شفاف أوصى ولده الحسن ومن عسى - غيره - يصفى لنصحه ويعتبر :

« لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسمد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك .. »

.. .. وما السطوة ؟ ..

متاع يزول ، وعرض يحول فهي صفقة مغبون إلا أن تكون أداة لإعلاء الدين وتوكيد إنسانية الإنسان . أما جاهها فهباء ، وأما مجدها فطلاء .. دخل عليه ابن عباس إبان إمرته وهو جالس يخصف نعلًا بالية ، فرفع بصره عما في يده ، وسأله :

« ما قيمة هذه النعل ؟ .. »

قال ابن عباس :

« لا قيمة لها يا أمير المؤمنين .. »

فإذا هو يقول في هدوء :

« والله لهي أحب إلي من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقاً ، أو أدفع باطلاً .. »

.. .. وما الدنيا ؟ ..

سئل عنها فقال :

« ما أصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء .. في حلالها

حساب ، وفي حرامها عقاب ! .. »

ثم وصفها وهو يرجو أن يزوي عنها الناس :

« دار منى لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . حلوة خضراء ، قد

عجلت للطالب ، والتبست بقلب الناظر .. فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف .. »

وعمل دائما بما قال . فإن هي إلا محنة واخبار . أو دار مجاز للدار قرار . ليس لها عليه سلطان ، ولا له فيها هوى ، لأنه ازهد من أن يتعلق منها بنشب ، أو يهفو إلى طلب . ولأن قصاره فيها لقمة تقيم أوده هو أوثق بأنها حتما بالفته إذ هو أوثق بما عند الله منه بما في يده أو يد أي إنسان ما بلغ الشأو في بسطة الفنى والشرء أو بسطة النفوذ والسلطان .

قيل له :

« لو سد على رجل باب بيته وترك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ .. »

فجرى جوابه على منطق السجية النقية والفطرة السليمة ، لا على منطق الشهوة الجشعة والرغبة المنهومة :

« من حيث كان يأتيه أجله ! .. »

أفقد أصاب ؟ ..

كيف لا ! ..

وإنما الرزق منذ الأزل ، وإلى الأبد ، أمر مقدور ، وقدر محتوم مسطور .. فمن رأى في هذه النظرة إيمانا أوثق الإيمان بالله فقد عاين الصواب . ومن رأى فيها استكانة واستسلاما يحسان صاحبها بين أسوار واقعه القائم ولا يسميان به إلى الخروج منه بتغييره لواقع « أفضل » ، فقد مشى على الخطأ وتردى فيه .. فالفضل ليس بالمال . والمال ليس الحياة . والسعي يتسع لنشدان قيم كثيرة أخرى فاضلة ، سوى المال ، أجدى على الفرد وأصلح لشانه كإنسان لا يعيش بدنا خالصا في هذه الدنيا بين أبناء جنسه وإنما يعيش أيضا بالروح .. والأصل في المال أن يكون دولة بين الناس ليحقق غرضه في إنعاش المجتمع وتنميته وليس الأصل أن يحتجز في أيدي فئة يستأثرون به ويستعلون على من عداهم بجبروته . فما ينبغي له أن

يكون أثره ، كما لا ينبغي لهم أن يكونوا خزنة ، لأنه « وظيفة » هم العاملون فيها ، يعطلها بلا ريب حجه واكتنازه .. وكفى المرء منه ما يسد حاجته ، كسرا اجشع نفسه ، ودفعاً لحسده غيره ، وضماناً لقيام مجتمع بشري متطهر على أسس خلقية كريمة ، ينحصر فيه طغيان المادة ، وتضعف سطوة الأنانية ، ويخف جموح السخط الذي يضطرب دائماً بالعلاقات الاجتماعية بين الناس اضطراب الفرائز الحيوانية بالضواري في الغاب خضوعاً منها لشريعة الظفر والناب !! .. أجل فد أصاب .. وما كان في هذا المجال إلا مترسماً خطوات رسول الله الذي لو شاء أن تجتمع له كنوز الأرض لاجتمعت له ، أو يتسیر الى ذهبها لأقبل عليه ، فإذا هو يعف عنها ، ويزهّد فيها لأن كل هذه الحياة وما تضم ليست سؤله . وإذا هو حين يأتيه جبريل ، عارضاً عليه خزائن الدنيا بردها ويأبأها رد غنى مستغن ، وإياء كاره عزوف :

« لا حاجة لى فيها .. بل جوعنان وشبعة !.. »

من معين النبوة نهل الإمام . وبخلق محمد تخلق . وبالهدي الإلهي اهتدى في علاقته بالناس أجمعين ، أولياء وأعداء .. لم يكن قط يشره أن يخسره أحدهم بعض حقه ، أو يعدو عاد على خاصة ماله ، لأن الحق الشخصي ، في اعتباره ، ليس سوى عرض زائل لا يرى ضيراً في الرخصة فيه .. ولكنه كان ، إلى جوار هذه الأريحية المسمحة ، يحنق الحنق كله ، ويثور أعنف الثورة ثم يشتد في حساب من يجور على حق الأمة أو يحاول الانتقاص منه إلا في الله ..

وها هو الآن ، وقد تضافرت عليه عوامل الظلام والضلالة ، لا يجنح فتيلاً إلى مهادنتها أو الصبر عليها ، فلا يترخص في التصدي لها بكل ما في قلبه من إيمان ، وفي جنانه من ثبات ، وفي يمينه من سلاح لأنها قد طغت على حق الأمة ، واجترأت على شرعة الله .. ففي الترخّص بهذا المقام صد عن سبيل ربه ، وزيف عن جادة دينه ، وخذلان لما ألقى في روعه وقر في يقينه .. وهل قد ولى أمور الناس ، تحت ضغط منهم ، وعلى كره منه ، إلا ليحمي الإسلام من نكسة كانت خليفة عندئذ أن تذهب بريجه ؟ ..

قال مرة يحدث عما دفعه لقبول الإمرة بعد ما كان من تأبيه ،  
حرصا على إصلاح ما أفسد الولاة في عهد عثمان ، وعودا بالدين  
الى نهجه الصحيح :

« .. . أمسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت  
عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد .. فخشيت إن لم انصر  
الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدمًا تكون المصيبة به على أعظم  
من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما  
يزول السراب .. »

لا حيلة له إذن فيما طرأ من تقلبات إلا أن يصدع بما يحتمه عليه  
إيمانه ، وما يرتقبه منه دينه . ولو أنه كان غفلا من النفوذ ، أو قد  
قشر عنه سلطانه وذهبت شوكته كحاكم مسئول لما هادن ولا لان .  
بل لاستبدل الكف بالسيف ، واللسان بالسنان حتى يقضى على قوى  
الشر والضواية ، التي راحت تناوىء الله في عباده ودينه ، ليظهر  
الأرض منها أو يلتقمه التراب .. فكيف وما زال بوفاضه ذخر من  
نأس يسنده ، ورفقة من صحب تؤيده وإن بدات الدنيا تشغل بنشبهها  
وزخرفها كثرة ضخمة من رجاله وتلهيهم عنه ؟ ..

يقول في صدد نهوضه لأعداء الله :

« .. . وإني والله لو لقيتهم واحدا ، وهم طلاع الأرض كلها ،  
ما باليت ، ولا استوحشت .. »

إن تلك العداوات لم تكن لترده عن عزمه وإن جمعت ، ولا لتعجزه  
عن تعقبها وإن توالى ، ولا لتؤثسه من صبره وإن اشتد أيدها وصلبت  
شوكتها ما دام يستطيع أن ينهض لها — ولو بالبقية الباقية من اعوانه  
على يقينه ، ولو بنفسه : بلسانه أو يمينه .. ولقد كان فيما ظهر  
من انحراقها وهو بعد في مستهل عهده ، ما يكفي للمعاجلة بالصراع ،  
فكيف وقد أطلعت قرينها ونشرت له زبانييها وبدات الإغارة  
والانقضاض ؟ .. إنما اتحادها اليوم على حربه ، وتفاقم خطرهما على  
الضمير العام ، وامتداد طغيانها على الثرى الإسلامى حقيق بأن يزيد  
صلابته ، ويلهب حميته وإن تمثلت كوحش اسطورى أشبه شيء

بأخطبوط تعددت شعبه واطرافه واوشك ألا يسلم من عدوانها مكان  
أو إنسان ، بعد نزايدها فرقا وطوائف ، وتغايرها مذاهب وآراء ،  
وامتداد حركاتها المدمرة وتغلغلها - كسروح الزيت في الثوب - في كلا  
الاديمين السياسى والاجتماعى للدولة ..

أفيهدا ؟ .. أم يصانع ؟ .. أم بصارع ؟ ..

في كلمات قلائس أجمل نظرتة ، ورسم الدافع الذى يحدد اتجاهه :  
« .. .. ولكننى آسى أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ،  
فيأخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، والصالحين حربا ، والفاسقين  
حزبا .. .. »

نذر في الأفق نبيء عن طوفان جاهلية ، وعاصفة استذلال ،  
وزلزال ردة عن كل كريم وقويم في حياة الإنسان ترسمه القيم الخلقية  
الرفيعة ، ويقوم عليه خبر البشر ، ويحتمه الدين ..  
محنة ماحقة ما لها غير الجهاد ..

## ٢

طولا من الشمال للجنوب ، وعرضا من الشرق للغرب ، وعمقا  
في السهول والقفار وفي الجبال والأغوار ، كانت تلك العداوات تنتفش  
وتنكمش ، وتنسبط وتنقبض كأنبساط الصدر وانقباضه في الشهيق  
والزفير ! .. كانت تتربص لتشب ، وتشب لتنقض ، وتنقض لتدمر ، ثم  
تفتر حدنها بعض فتور أو تسكن ، تلتقط النفس ، وتنظم الصف ،  
لتتربص ثانية وتعاود دورة حيائها من جديد ..

صور عدة عدوانية تلاحقت في سنى عهده القصير . إذا أجملت  
دلالتها فنبعها الذى لا ينضب ذات الإنسان بما ركب فيها من عقل  
ونفس وجسد . وبما انضمت عليه من فكرة خادعة أو مخدوعة ،  
وهوى مضلل أو ضال ، ومادة معتمة صماء . وبما في طاقة ثالوثها

البشرى ان يفر من اباطيل ومطامع وشهوات .. وإذا أوجزت غاياتها فإنها القضاء عليه ، إذ هو أمير المؤمنين أو هو واحد من جمهور الناس ، وضرب نفوذه : سلطة زمنية حاكمة كان هذا النفوذ تسندها قوة الإمرة ، أو سلطة روحية هادية تنبعث من قوة العقيدة .

فإذا قيل هنا إن الذات البشرية هي الذات البشرية في كل زمان ومكان ، وإن الإنسان على مدى الأعصر هو الإنسان ولا غرابة إذن أن تتحالف على نزع الانفس لأنها كانت خليفة أيضا أن تتحالف على سواه لقلنا إنها لكذلك . ولكن الغرابة ، مع ذلك في هذا الموضع ، ليست في نصح النفوس بما فيها وإصدارها في سلوكها الخبيث عما هي مجبولة عليه ، بل في انحرافها المسرف نحو الشر ، وإغراقها المسف في الدنيايا في وقت ظن خلاله أنها أقدر على التحكم في غرائزها الجلقة وأدنى الى الترفع عن المغويات .. فمحمد عندئذ لم يكن قد طال العهد بغيابه ، والدين لم تخلق جدته ، وتعاليمه التي جاءت لتدعم الخير وتوهن الشر عن طريق تنقية السلائق وتهذيب الطباع لم تكد صحفها تطوى وترفع عنها الأقلام !..

والحركات المضادة التي شنّها عليه أعداؤه توشك ان تعلم لنا بعلامح وسمات قد تباين بعضها عن بعضها الآخر حتى لتبدو للباحث تلك العداوات التي تنسبها كالتفرقة أو المنقسمة على نفسها لاختلاف الأسباب التي أنجبتها ، والبواعث التي حركتها ودفعتها الى المجاهرة بالعداء . ولكنها ، وإن تفردت كل واحدة منها باتجاه أحادى وبسلوك خاص أفرزته طبيعتها ، قد اجتمعت كلها على غرض عام موحد هو محق الرجل الذى تعاديه ، تماما كالفيالق التي تحارب على عدة جبهات ، لكل فيلق قيادته ، وأسلوبه القتالى ، وهدفه المحدود ثم لا تكون غايتها الكبرى غير نصر مشترك يحقق الغرض العام .

على هذا النحو نرى الإمام موزع الجهد والتفكير بين العناصر المعادية التي تشرعت لحربه ، وبخاصة في هذه الآونة الأخيرة من عهده إذ تبدلت حصائل الماضى القريب والبعيد وقد تراكت ووجدت التربة الخصبة لاستنبات الخلافات .. ولا مجال هنا لتتبع هذه الحصائل إلى جذورها فرادى أو بطول الاستقصاء .. ولكن طبيعة العصر يمكن

ان تمدنا بخيط يسلكها كلها وتنتظم فيه كحبات العقد تتوالى وتتجاور  
كيانا متسقا وإن اختلفت فيها الحجوم والالوان ثم تباينت مصادر  
النشأة او تباينت مناجم التعدين !.. ولعل اقدر ما قد يعيننا على  
استكناه هذه الطبيعة ، وهتك سرها ، هو ان نرد اصلها قليلا إلى  
الوراء ، ثم نستشف كيف كان السلوك العام للمجتمع العربى الاول  
تجاه الإسلام في مستهل فجره .. عندئذ تقع العين الناقدة على دين  
جديد يطلع بكل ما هو غير مألوف على مجتمع متمزق ، يحيا حياة  
كالبدائية ، وتسوده روح القبيلة المنبعثة من السلطة « الأبوية »  
تمثلها السيطرة « الفردية » للشيخ ، ويضطرب فيما تثيره هذه الروح  
من حمية وتعصب ، فمن تنافر وتناحر ، ثم من تخلخل وتفكك في  
المجتمع الكلى بمقدار تعدد القبائل والعشائر ، او الوحدات الاجتماعية  
التي تعيش فيه ..

فما هو المنحى الخلقى بمثل هذا المجتمع ان يحوه ، وما هو المنتظر  
من مثله ان يسلك إزاء ذلك الدين ؟ ..

مفتاح سلوكه ، او دافع اتجاهه ، بغير جدال ، ومن اقرب مورد ،  
هو « النفع » الذى يستطيع ذلك الدين ان يحققه لكل وحدة من  
وحدات المجتمع كمجموعة ، ثم لكل طبقة او فئة في النسيج الاجتماعى  
للوحدة على انفراد .. وتقدير قيمة هذا النفع في هذا المقام رهن  
- بطبيعة الحال - بعوامل شتى تتصل بمكونات أمزجة الافراد  
والجماعات ، وأوضاعهم النفسية ، واساليب تفكيرهم ، ودوافعهم السلوكية  
التي تحددها جميعا البيئة المكانية والزمانية ، والطباع والتقاليد ،  
وتراثات توارىخهم القبلية المنحدرة في عروقهم عبر الأجيال . ولكنه ،  
آخر الأمر ، أشبه شيء بحساب الأرباح والخسائر الذى لا يعول فيه  
على دلالة المفردات الرقمية واتجاهاتها إلى الصعود والهبوط ، الغنى  
أو الفقر ، بل على الحصيلة النهائية لهذا الجانب او ذاك .

ولا يمكن ان يطمئن هنا بأن تناول الدين من هذه الناحية لا يتفق  
وما له من طبيعة روحانية لا توزن عناصرها ، ولا آثارها ، بميزان  
الذهب او تعابير بمقياس المال فلا وجه إذن لإخضاعه لتفكير مادى يربط  
بينه وبين المنافع المادية ، ويعتبره سلعة في سوق المتاجرة بالبيع والشراء

يروجها الكسب ، وتكسدها الخسارة .. لا يمكن هذا ولا يسوغ  
اعتباره إلا ان تكون النفوس كافة - وعلى غير حقيقتها « الأرضية » -  
ذات جبلة « سماوية » خالصة صيغت من الصفاء والنور فتتجذب  
تلقائيا إلى الدعوات الإلهية دون التأثير قليلا ولا كثيرا بالمرغبات  
والمرهبات . فأما والبشر هم البشر ، ونفوسهم فيها جانب مظلم  
وجانب مضئ ، فنظرتهم إلى الدين خليفة بالألا تتجرد مما بنظرتهم إلى  
أى معروض يقاس إقبالهم عليه بمقدار الرغبة فيه ، والحاجة إليه ،  
والمنفعة المنتظرة منه !..

وإذا كان علينا الا ننكر ان مواكب الإنسانية على طريق التاريخ  
لم تخل - حتى في اظلم العصور واشدها جاهلية - من نفوس لاهوتية  
نقية وبشر ربانيين بنوا في ذات الله ، وقصدوا بابه شغفا وحبا وليس  
خشية عقاب أو ابتغاء ثواب ، فإن لنا أيضا ان نقرر ان جموع هؤلاء  
في كل عصر - ولا نقول في كل جيل - لا تجاوز الآحاد المحدودة والافراد  
المحدودة ، وهم بهذا خروج على الإجماع ، وشذوذ عن القاعدة كحبة  
الؤلؤ في صحراء شاسعة من الحصباء !..

المنفعة على اختلاف صورها ، وبتعدد قيمها في حدود تباين  
التقدير ، هي التي ربطت العرب بالإسلام ، من بدء نزوله ، ومن بعد  
اشتداد أيدته وانتشاره ، ثم صنفتهم طوائف ومجموعات نمت لها على  
الزمن خصائص مميزة ذات اثر فعال في تحديد سلوك كل مجموعة ،  
ففي توجيه السلوك العام .. ولا حاجة هنا لذكر أولئك الذين صفوا  
نفوسا وضمائر ، وهياتهم خلائقهم السوية لاستقبال دين الله بالقبول  
عن إيمان مرده حاسة روحية مرهقة أو تقدير عقلي سليم . فهؤلاء  
هم الرواد وبناء الدعوة الذين امتلأوا بها ، واخذوا أنفسهم بقرسها في  
القلوب والأذهان .. أما من تعرض لهم بالحديث في هذا الموضع ،  
إيالة عن صنوفهم ، وكشفا عن مناحي سلوكهم - حينئذ ومن بعد -  
كيف كانت ، وكيف حولت حركة التاريخ خلال عهد الإمام ، فإنهم من  
عداهم من اتباع الدين .

ولقد يضاف على المنظر ما يدينه إلى الواقع الإنساني في كل آن ،  
ان نقرر هنا ان السلوك العربي تجاه الإسلام لم يخالف الطبيعة البشرية



في شيء وإنما طابفها ونضح عندئذ باتجاهها « التقليدى » المؤلف حبال كل ما جد - قبله - من عقائد وأديان . فعبادة الله دائما على الوان ، بقدر تفاوت استنارة البصائر ، واختلاف القدرة على الإحاطة بذاته ، أو تفاوت حدود الإحساس بالعقيدة ودرجات التقدير لما بها من شرائع ونواميس . . وفيما رسمه الإمام لهذه الألوان من الاتجاهات ما قد يصنف صور الإيمان . .

قال :

« . . إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار . . »

ويكاد الأمر لا يتطرق بنا بعيدا عن النهج الحق لو رأينا أن الكثرة الغالبة ممن دخلوا الإسلام ، بدء ظهوره ، ومضوا عليه ، كانوا مشايعين لبضعة من قادة الرأي فيهم ، متأثرين لخطاهم ، استجابة لداعى الإبقاء على وحدة القبيلة وهيبتها ، أو نزولا على مشيئة السلطة الأبوية فيها المتمثلة في الشيخ . فكما وقفت العشائر العربية ، برعامة شيوخها ، تناوئه عند إعلان مولده ، وتنكر عليه حفه في الذبوع بين رجالها ، وقفت أيضا تساند الدعوة ، بعد قليل ، برعامة أولئك الشيوخ ، حين آن لهم أن يلحظوا ارتفاع نجمه وعجزهم عن حصر موجه المتدافع كالطوفان . .

وليس هذا - بطبيعة الحال - بالقول الفصل ، ولا القاعدة التي لا تقبل الاستثناء ، بل هو رأى الذى نجده يؤخذ على الترجيح والتغليب فإذا هو يظفر من الحقيقة بأوفر قدر ومن الصواب بأكبر نصيب فما يغيب عن البال أن الإسلام قد أخذ - في البدء - يشيع في الناس فرادى ووحدانا ، ينصل المرء إليه من طاعة قومه ، ويخرج بإيمانه به على إجماع رأى القبيلة . وما يغيب أيضا أن الإيمان « الجمعى » به لم يكد يقع إلا من السنة التاسعة للهجرة حين توالى الوفود العربية على المدينة برعامة رءوس العشائر أو ممثليهم يبايعون الرسول لأنفسهم وأقوامهم على الإسلام بعد أن رأوا قرىشا ، وهى أمام العرب حينذاك ، تدين له ، ويخضع سادتها لسلطانها صاغرين . .

ومع ذلك ، فليس يطمعن على القادة ، او على طائفة منهم ، أن دخلوا الدين خوفا وطمعا ، إذ خايلتهم فيه منفعة منتظرة او مؤكدة ، تحفظ عليهم هيبتهم ، او تعيد لهم عزا دارسا وترفع شأننا موضوعا يغدون بفضلهم وهم رموس من بعد ذيول وصدور من بعد أعجاز ، ما دام المظنون بتنافسهم على ارتياده أن يتقدموا في الدولة الجديدة على من عداهم من المتخلفين عنه من الأشباه المناظرين او الغرماء المنافسين . وما دام تعضيدهم إياه ، وسيرهم في ركابه - كيفما كانت الدوافع - قد حسر المد الكفرى ، وأضعف موجاته ، ثم حول الجزر العقيدى إلى تيار دافق كأنه شلال ..

وكما كان الإيمان على الوان ، فكذلك كانت الدوافع إليه عديدة بقدر تعدد الرغبات والمثيرات ..

فحمزة ، وهو على الكفر ، دفعه غضبه لابن أخيه إذ آذاه اناس من قريش أن يذهب إليهم ، فيشتهم ، ويشج كبيرهم أبا جهل بن هشام ، قصاصا وثأرا ، ثم يتحداهم ويعلن إسلامه ..

وعمر أخذته الرقة على اخته فاطمة بعد أن ضربها لإسلامها واسال دمها ، فاسترجع وأتاب ، وتابعها على دينها الذى طالما وقف منه ومن أتباعه أشد مواقف العنف والعداء ..

والأنصار في العقبة الأولى حفزتهم منافستهم يهود المدينة أن يسرعوا إلى محمد بالبيعة ، ويسلموا على يديه ، وبعضهم لبعض يقول :

« هذا والله النبى الذى تحدثكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه ! .. »

وأبو سقيان بن حرب يعقدها صفقة تجارية لبسلم ! .. فلا يقر بأن محمدا رسول من عند الله ، عن اقتناع وطيب نفس ، بل خشية سيف يهم أن يومض وهو يهوى على عنقه ، ولقاء فخر يميزه به الرسول ..

وتتواتر الأمثلة لتعرض صور الرغبات فإذا هى تجل عن الحصر لأنها تكاد تتعدد عدد الأفراد ! .. فإنما الناس أهواء . وإنما الدنيا أمل .

وإنما الدين سلعة « نفسية » تخضع ، كالسلع المادية ، لقواعد البيع والشراء!.. وفي حديث رسول الله لعدي بن حاتم وقد وفد من الشام للمدينة عملا بمشورة أخيه ليرى رأيه في الالتحاق بالإسلام ما يلقي ضوءا على جانبي الخوف والطمع في النفس البشرية إذ هما معين الرغبات ..

يقول الرسول لعدي ، باسطا له أوجه « المنفعة » المنتظرة من الدين :

« .. لعله يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فيوشك أن يفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. أو لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف .. أو لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم ، فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت .. »

هكذا كانت حالة العرب العقيدية ، وكان انفعالهم بالدين في فجر دعوته . ولئن بدت لنا الصورة منتقصة لا تنقل لنا الهيئة الكاملة لوضع المسلمين العام في عهد الإمام بعد جيل وبعض جيل من ظهور الإسلام ، فإنها لا ريب شريحة من هذا الوضع الكلي ، أو - بالتعبير المألوف - « قطاع » منه ، تجتمع فيه كافة خصائص الأصل وصفاته فلا يختلف أحدهما عن الآخر في الكيف ، وإن اختلفا في الكم . ولا في النوع وإن اختلفا في المساحة أو المقدار .. فإذا كان العرب - وهم على عهد الرسول قلة في مجتمع كالبدائي محدود المطالب ، وبحكم طبيعة بيئتهم أقل الشعوب المعاصرة إغراقا في ترف المدينة - لم يستطيعوا الارتفاع فوق طبيعتهم البشرية وتجريد نظرتهم إلى الدين من رغائب الطموح المادى ، فأولى بغيرهم من الأجناس المترفة ، التى التحقت بالإسلام ، أن تستفيض بهم الأمانى ، وتنبسط رقعة الطموح ، وتكثر المطالب والرغبات .. وإذا كانوا أيضا قد تسقطوا في الدين بابا للمنفعة اجتازوه فأحرى بهؤلاء إذن ، وإنهم لتمرسون بالدنيا ، خبيرون بالآراب ، أن يتسقطوا فيه لمنافعهم عدة أبواب!..

في حدود الإطار النفسى الذى ضم صورة المسلمين عامة في تلك الأيام ، يتبدى لنا أن جمهرة كبرى منهم قد اعتنقت الإسلام عن اتباع لا عن اقتناع ، شأنهم في هذا السلوك شأن غيرهم من انصار كل مبدء ، وأشياء كل عقيدة يتكاثرون وينتشرون وهم في حقيقة الأمر كثرة تنقاد لقلّة تقود .. فإيمانهم به مشايعة لما هو أقوى أو لمن هو أقدر ، يشرها ما ركب في غرائز البشر من تطلع دائم إلى بلوغ الأمثل الأقوم ، ونزوع مضطرد إلى الوصول للأففع الأجدى - أو هو التعبير الصادق والتفسير الذاتى لظاهرة اجتماعية حتمية الحدوث في كافة المجتمعات الإنسانية هي ظاهرة التقليد .. ودوافعهم إلى اعتناقه تتفاير وتعدد تتفاير مذاهب الأمزجة وتعدد مناهج التفكير ثم لا يحول التفاير والتعدد دون التفافهم حوله كيانا موحدا - وإن تباينت عناصره - هو المجتمع الإسلامى الجديد ، لأن اجتماعهم عندئذ ليس اجتماع تنافر وتضاد بل هو أشبه أن يكون اجتماع « تماهد » وتضافر إن لم يكن هو التناسق والتكامل ، كوحدة الجسد تقوم على تألف عناصر متعارضة الطبائع متضاربة الخواص ، وكنية المجتمعات تتحقق بترابط أنسجة شتى فيها التماثل وفيها الاختلاف ..

أشأت من الناس سلكها الإسلام في خيط دولته لا نقول بتناقضها عن تعدد الألوان أو تباين الأجناس ، وإنما نقول به عن تفرق الدوافع ، وتفاير الانفعالات ، واختلاف الاتجاهات . ولقد نرى أنها تضافرت على نشر الدين ، وبناء الدولة ، وبسط النفوذ الإسلامى على وجه الأرض إلى أبعد الأماد وأقصى الأبعاد ، ولكتنا لا نستطيع أيضا أن نفعل اقتدارها - ككافة البنيات الحية - على النمو ، ولا أن نشكر خضوعها - كغيرها من الأحياء - لقانون التطور الذى يحقق الانتقاء الطبىمى للصفات كما يحققه للأنواع ، فليس إذن بمستغرب أن تبرز ، مع الزمن ،

لكل طائفة منها خصائصها المميزة التي تعينها ، أو نحملها ، على التفرد بانتهاج لون خاص من السلوك .

هكذا غدت الحال والإمام عندئذ يخطو خطواته الأولى على جادة الخلافة ، ويحاول ما وسعه الجهد أن يجعل الحكم والرعية كليهما يعملان في نطاق دين الله ، ويسيران على ما شرعه الإسلام . . وليس معنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن الثلاثة الذين سبقوه في سياسة الأمور قد تهاونوا في التزام ما يلتزمه ولم يراعوا ما يراعاه . ولكن طفرة التغيير الواسعة التي طقتها الدعوة في فترات إمرتهم القصيرة ، وماقت بها كل وثبات الأديان وقفزات الثورات ، كانت قد طوت إلى أبعد الحدود أحياز المكان وأجناس الإنسان . . فعلى المستوى الأرضي غزت بقاعا وتنوع بها الفصول والأجواء في آن ، وتتفاير طبيعة نراها وتربتها بين جذب ويانع ، وحزن وسهل ، وجبال ووديان . . وعلى المستوى البشري شملت شعوبا وأما بينها تمايز في الأصول والمناشيء ، وتفرق في اللغات واللهجات ، وتباين في الأبشار والألوان ثم ما بلى ذلك من تفاير الحضارات والثقافات . . فإذا تلاقت عندئذ نظرات كل هذه الجموع إلى الدين الجديد يبدور\* العناصر الحضارية مجتمعة إلى رواسب التراث البيئية ومقومات الفكر القومي ، فإن هذا هو التلاقح المتوقع المقبول ، والتأثر الطبيعي الحتمي الذي تفره طبيعة الأوضاع ولا ياباه منطق العقول . .

على هذا المدخل تراكمت ، بمرور الأعوام ، كافة التيارات الفكرية والسياسية لكل هذا المحيط الكبير من اخلاط الأجناس واللوان الشعوب والأجناس . ومن خلاله راحت - ما تهيات فرصة وما اشتد تيار - تسرب قطرة قطرة إلى أساس النظام العام . .

وقد بدت هذه التيارات إلى نهاية الشطر الأكبر من العهد العمري باهتة لا تكاد تأخذ العين أو تثير الاهتمام ، ولكنها كانت بلا ريب حية في النفوس تعتمل أو تختمر ، وإن بردت حرارتها ، وجمدت حركتها كدوات الدم البارد في موسم البيات الشتوى الذي تكاد تنفصل إياه عن دنيا الأحياء! . . حتى إذا أوشك ذلك العهد أن يطوى صحائفه ، كانت قد أخذت تنتفض بالحياة ، وتتحرك حركة محدودة ، أنا تدور

حول محورها ، وانا نسير في فلكها او تضطرب اضطرابة تكاد تخرج بها عن مداره المعلوم . فلما أن انتصف عهد عثمان نشطت النشاط الذى ينبىء عنها ، وينبئ إليها ، وإن لاحت عند ذاك للخليفة ولكثيرين من ذوى الراى أو السلطان غير ذات خطر ملحوظ . فكانها كانت أدنى إلى طبيعة البراكين ، تحسب في رأى العين خامدة وهى لاتنى تعمل في جوف الأرض والسطح ثابت هادىء لا يريب حتى يثين لها أن تقع على موطن ضعف في القشرة الأرضية فتقتحمه منفذا للانفجار !..

ولم يكن عجبا ألا تستطيع سرعة هذه التيارات المتفضة أن تبارى سرعة انتشار الدين أو سير معها ، على الأقل ، جنبا إلى جنب ما دامت عوامل تفجرها تجيش منذ البدء في النفوس .. فإنما الطبيعى أن تقصر بها خطاها ، والعجب ألا تتأخر عن موعدھا المقدور وألا تتخلف بعض تخلف عن مسيرة الدعوة ثم نلث في أعقابها وهى تحاول طى الزمن والعقبات لتفرض نفسها على الوجود الإسلامى وتقوم فيه بدورها الخطير .. ومن شاء هنا أن يتقصى لهذا التخلف من الأسباب والدواعى ما شاء فلن يعضل الأمر به ، ولن يكون بحاجة لتسقطها على مشقة ، لأنها في الحقيقة تعلو الندرة إلى الكثرة ، وتعر على القموض والخفاء فلا تغيب عن إحصاء ولا يعى بها استقصاء ..

فما هى الدواعى والأسباب ؟ ..

لأن يطيف بها الدهن فيلنقط شواردها واشتاتها من هنا ومن هناك فهو التزید الذى لا موجب له ولا حاجة فيه ما دام الإقصار يغنى عن الإطالة ، وذكر المحصلة الكلية يجزى عن الإفاضة في إيراد المفردات والأعداد .. فإنما يكفى أن يقال ، في هذا المقام ، إن علة العلل ، ومحور الأسباب والدواعى التى أدت إلى تأخير ظهور تلك التيارات يمثلها لنا أصلا ن جامعان ، هما نظرة الدين وصلابة اليقين وما أفاده كلاهما على طلائع أبطال الدعوة الإسلامية من قوة روحية لم تعدلها ، وما كانت لتثبت لها ، أية قوة مناهضة في تاريخ الإنسان . فانطلاقة الدين ، كعقيدة ، إلى النفوس على عهد رسول الله ، وهو عندئذ في رواء نضرته وأوج عنفوانه ، كانت كاندقاعة السهم عن قوسه إلى الرمية ، إذا ضرب اصمى وأصاب ، وإذا أصاب نفذ وغار ، وإذا غار لم يسهل نزعہ ..

وصلاية اليقين في نفوس الطليعة المؤمنة كانت الردء لهم ، والدرع  
الواقية التي تهب الطمأنينة وتورث الثبات والإقدام عند الدفاع  
والهجوم . وفي رسوخ قدم الرسول في التبشير بدين الله ، وصبر  
أصحابه الأول معه ، ونضالهم وإياه ذلك النضال الأسطوري العنيد  
الذي لم يكن لوعده ، ولم يخف بوعيده ، ولم ينل من شأو حدته تعذيب  
ولا تشريد ، ما يغنى عن كل بيان ولا حاجة بعده لبرهان . .

فأما النظرة فإنها تكسب الموصوف بها - فيما تكسب - سحر  
المنظر وبهاء الرونق . وهى على إطلاق مفهومها وطبيعتها - سواء  
أكانت في الأمور أم الأشياء ، في المعنويات أم الماديات - ظاهرة قادرة  
على الاستهواء وتحريك الفضول لأنها دائما تقترن بانفعال الدهشة  
نتيجة لاسنحذائها خلاف المأمول وبروزها فجأة من وراء المجهول . .  
فما بها من جدة خليق بأن يعلق بها الأنظار والمشاعر طويلا أو قليلا  
من عجب أو من إعجاب . ولقد يسفر هذا التعلق البغتي ، بعد تأمل  
وتفكير ، عن انكار ونفور ، ولكنه قد يسفر أيضا عن رضا وقبول . .

وقد استطاع الإسلام ، وهو النظر في الأفكار والاتجاهات ،  
الحديث بين الأديان والمعتقدات ، أن يظفر - ككل جديد ، دع جانبا  
أنه رسالة سماوية واجبة الاتباع - بطائفة من الأعوان المبهورين  
بجدته أو المتطلعين من خلاله الى الانسلاخ من القديم لتغيير الأوضاع  
. . وإذ هو عندئذ في زهرة عمره أخضر العود في قلوب انصاره الأول  
من الدعاة المؤمنين بدعوته ، أو الأشياع المأخوذين بنضرتة ، فإنه  
أولى بالأخلق له جدة ، أو يبهت لون ، فيفتر أثره في نفوسهم ،  
أو يتهاوى تمسكهم به ولما يظل بعد عليه الأمد طولا يغير النظرة  
أو يقسى القلوب . . وإذ محمد ما زال في الناس يأتيهم من السماء  
يوما يوما ، وساعة ساعة ، بالجديد من التنزيل ، ثم يفسر ويقرر ،  
ويرشد ويبصر ، فإنه لا سبيل حينئذ إلى نزوع أيما إنسان في المجتمع  
الإسلامي الجديد الى التأويل في الدين بما قد ينحرف بتعاليمه ،  
ولا لتطرق أفكار وآراء اليه من خارجه - وعبر ما عداه من الأديان  
والمعتقدات ، أو الفلسفات ونظرات العقول والأفهام - تطرفا يخلط

به ما يشوب صفوه ، أو يلتوى به عن نهجه ، بالانتقاص منه أو الإضافة إليه ..

وأما اليقين فإن صلابته التى لم تكن لتلين قد جعلت من القلة المؤمنين بالدين ، المناضلين دون الأعداء والعقبات على بقائه وانتصاره ، قوة تعز في القوى ثم تهون أمامها الكثرات .. فالإيمان هو خالق العزائم والإرادات ، وباعث الثبات والإصرار ، وموقظ القدرات الكامنة ومحركها لتندفع قدما اندفاع الأعصار . وهو بهذا سلاح باتر قاطع في مجالات الصراع والكفاح بل هو أول سلاح واقطع سلاح .

ولا غرابة هنا ، وقد اجتمع للإسلام عنصرا القوة : النضرة والإيمان ، أن يظهر على أعدائه ومناوئيه ، ويقتحم ما يعترضه من عراقيل وعقبات . فما رده عن انطلاقه أن ناواه - وهو ينشق أولى نسمات حياته - طاغوت قريش والقبائل العربية الأخريات التى أخذها عنت الكفر ، وازدهتها حمية الجاهلية ، واستطار بها - صلفا وكبرا - ولاؤها الأعمى للماضى ، وثباتها الجامد على القديم .. ولا حسر موجة انتشاره ، في إشراقة عمره ، أن تصدت له مدنيات ذلك العصر بما لها من تفوق علمي ومادى ، وبروز في جوانب الحرب والسياسة ، وبما تمثل من دول عظمى وأمم عريقة كفارس والروم ، ومصر والشام ، وغيرها من بلاد وشعوب طوت حينذاك رقعة عالم تلك الايام ، وضربت في الحضارة وشأو القدرة إلى أبعد الحدود وأعلى الآفاق .. ولا غرابة ولا شبه غرابة في ظهور الإسلام ، تلك الآونة ، على جميع من اعترضوا طريقه ، وتحطيمه كل ما واجه من السدود والقيود . ولكن الغريب ، أو ما هو أشبه بالغريب ، أن عنصرى قوته اللذين تفاعلا معا ، وولدا طاقته الذاتية الهائلة ، كانت تجثم فيهما ، ومن نفس طبيعتهما لا من خارجها ، جرائم هدم وتحلل ما لبثت - حين آن لها من بعد أن تختمر - أن أشاعت الضعف في انطلاقته ، وراحت تتعثر بخطاه ..

في جانب « النضرة » أخذ النفور - الذى يشور أحيانا على الجديد بعد انحسار المفاجأة عن نفوس فريق من البهوريين - يطفو على السطح



إذ امتد الزمن بعض امتداد ، وبعد عهد هذه القلوب بالدين « الجديد » فخلقت فيها جدته وبهت رواؤه . ولا عبرة هنا بطول المدة محسوبا بالشهور والأيام أو القرون والأعوام . بل العبرة بمدى الشعور بهذا الطول . فقد يرث الجديد وهو في زهرة عمره لأن الإحساس به - إعجابا به أو عجبا منه - قد زال . وقد يرث لما قد يطرا عليه من عوامل ناخرة وأكلة تنال منه وتغير فيه . كالشوب يرث بأفة قارضة ، أو بالقدر كتراب وغبار ، أو بلسع النار ..

وفي جانب « الإيمان » نشأت فاشية من تعصب في نفوس طائفة من الذين تخطفوا الدين تخطفا كعقيدة استجابات لها مشاعرهم المتعطشة عند ذاك للتدين ليملأوا بها في دخائلهم فراغا روحيا كان لابد أن يملأوه .. فالإنسان « عابد » بالسليقة . منهوم بالاعتقاد . مشوق عادة إلى ربوبية إله لأن فيها التفسير الوحيد للأسرار الكونية المحيطة التي لا يستطيع ذهنه أن يرقى إليها على جناح تعليل ، ولأنها ملاذه من سطوة الغوامض والمجاهيل .. فإذا هم جنحوا إلى اعتناق الإسلام فذاك أنسياق طبيعي مع العاطفة الدينية وإن كان هذا الانسياق العاطفي لا يجيء دائما مطابقا للاقتناع الموضوعي الذي قد تبلغه العقول بعد روية كيفما كان استواء تفكيرها أو التواءه ، ومدى قدرتها على الإحاطة بالموضوع .. وإذا هم دفعتهم العاطفة وحدها إلى أخذ الدين فإنه الأخذ المتعجل الذي يغدون به أوعية صماء قساراها الامتلاء ، لأنهم احتووه ولم يفهموه ، شربوه ولم يشربوه ! .. فكأنهم النهم الممعد الذي لا ينفعه شيء إقباله السرف على المأكول مقادير وألوانا إلا أن يتخم جوفه ، ويزبد داءه ما دامت معدته لا تقوى على الهضم فلا تتمثل عناصر الغذاء ! .. وكأنه لديهم ليس سوى طقوس وأشكال ، وسور وآيات ، أشبه بهم أن يأخذوه على ظاهر هيئته وفي حدود حروفه بغير اقتدار على القوص فيه تعرقا على أبعاده وأعماقه ، وتفهما لغاياته وأهدافه . وأن يترسموه شعائر ومعالم دون إدراكه كحكم وتعاليم ، لأنهم يرونه نصوصا تستظهر ، وحركات تؤدي وليس أسلوب حياة ..

من هاتين الثغرتين نفدت عوامل الانتقاض والانتكاس إلى المجتمع

الإسلامي الوليد - كمجتمع إنساني فاضل - ثم راحت تتسرب في كيانه رويدا رويدا تسرب العلة في الجسد المعلول لتجول فيه بالضعف والتحلل دولة وأمة ، مادة وعقيدة ، وما كان قد قطع بعد من أشواط حياته غير جيل وبعض جيل .. ولا نشك هنا في أن مرجع هذه النكسة الخطيرة ، أو أحبط به ، ومسحت رقعته الممدودة ، ثم أريد وصفه بما يحدد معالنه ، ويخطط حدوده ، لكنت العبارة التي تطابقه هي قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ..

فهل عن العجز كان هذا القصور ؟ .. أم العمد وسوء النية ؟ .. أم التهاون ؟ .. أم الضيق بالتزام القيود ؟ .. أم شطحات التأويل ينجبها الجهل أو يسوقها الادعاء المفرور ؟ ..

كل اولاء ، واكثر ، بغير مراة ! ..

لكنها جميعا ، وان تستر بعضها بمنطوق النص ، كانت مجافاة خالصة لفلسفة الدين ، وخروجاً على مضمونه ، أخلت بالتوازن المفترض بين الظاهر والباطن . الحرف والمعنى . الشكل والروح ..

## {

الاتجاهات السلوكية في أي مجتمع من المجتمعات ليست حركات عفوية عشواء تصدر عنه بغير بواعث محددة . ولا هي أيضا حركات إرادية معبرة يراد لها أن تكون فتكون . ولكنها مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي قد تؤثر في تكوينها الصدفة كما قد يؤثر الإعداد ثم لا تكون آخر الأمر ، بعد نضجها واكتمال بنيتها ، إلا مستقلة الكيان بغير حد ، مطلقة اليد بغير عائق ، يحكمها في انطلاقها قانون طبيعي ثابت لا يتغير ولا يختل ميزانه ، فإذا هي به « التعبير » الجسد العملى عن الميول والنزعات ، والنتيجة المنطقية الحتمية للدوافع والتطلعات ، ممثلة في « الفعل » ناشئا عن مدى التكيف مع الظروف المحيطة بذلك المجتمع ومقدار الانفعال بالنظم السائدة فيه ..

وفي أبان تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام ، فعلت هذه الاتجاهات فعلها في المجتمع ، فحددت ملامحه ، وحركت خطاه ، وتفردت له بأسلوب حياة يخالف بلا ريب أسلوبه الأول عند نشأة الدعوة ، نتيجة لما طرأ من تغيرات عديدة على الأوضاع والنفوس باعدت ما بين الأصل والواقع ، والقديم والحديث .. ولا سبيل هنا الى الادعاء بأن هذا من طبيعة الأشياء إذا أخذت حتمية التطور في الاعتبار ، لأن التطور - بمفهومه السليم - نمو . والنمو زيادة وارتقاء وليس نقصاناً أو رجوعاً الى الوراء ..

وبدلنا الاستقرار على أن خط الاتجاه السلوكي عامة ، في ذلك الحين ، كان يتدلى ، جاذباً معه حركة التطور الى الانخفاض .. وهو بهذا لم يساير بأية حال من الأحوال سنة التطور السليم .. ولا كان صدى صادقاً لروح التقدم التي احتواها الإسلام في طوايا تعاليمه . إنما كان ، في حقيقة الأمر ، نكوصاً على العقب ، وردة عن النهج ، وخروجاً على القواعد التي أرساها الدين ..

فالانحراف عن مضمون الدين آنذاك ، وإن جاء عن جهل به ، أو قصور عن ادراكه ، أو تخبط في التأويل ، أو انسياقاً مع الأهواء ، أو كيفما كانت الدوافع والأسباب وتعددت التعللات والتبريرات ، هو الذي وضع بذرة التحلل في النفس المسلمة ، وفي المجتمع الإسلامي على السواء ، ثم تعهد لها لتثمر كل عوامل الضعف والتخلخل التي راحت تنخر فيها وفيه .. ولقد يحسم الجدل في هذا المقام أن نناي هنيئة عن التخصيص الى التعميم فلا نلصق التهمة بفرد بذاته ، ولا بطائفة من الطوائف ، ولا بجنس من الأجناس دون سواه ، لأن الانحراف فيما نرى - كان ظاهرة « مشتركة » . أو قد كان - مع الترفق في التعبير ! - أشبه بخطأ مشاع بين كافة الطبقات ومختلف الأشياء ..

هذه هي القضية ! ..

أما أن يقال إن اتساع نطاق الدولة الجديدة قد خلخل قدرتها الذاتية على التماسك كما تمط الثوب بين يديك مطاً شديداً لا يكون ماله بعده غير تفكك نسيجه ، وانقراط قوامه ، وظهور تمزق به هنا

أو خرق هناك .. وأما أن يقال إن تعدد الأجناس ، وتنوع الثقافات ، وتضارب الطبائع وغيرها من وجوه التناقض والاختلاف ، قد يسفر اجتماعها عن كيان سياسى موحد هو الدولة ثم لا يسفر قط عن قوام عضوى واحد هو الشعب لأنه عندئذ اجتماع اختلاط وتجاور وليس اجتماع تكامل وانسجام .. . أما أن يقال هذا أو يقال ذلك فهو القول - لا ريب - الذى لا يسوغ أن يؤخذ به على إطلاق ظاهره وباطنه ، مبناه ومعناه ، كأنه قانون طبيعى ثابت . ولا ينبغي أيضا أن يعول عليه التعويل كله في تفسير ظاهرة الضعف والتحلل التى راحت تدب في مجتمع تلك الأيام . ذلك لأنه القول الذى يلقي به عادة في مثل هذه الظروف تعليلا وتديلا فلا يخلو هو نفسه من افتقار الى تعليل وحاجة لتدليل ، إذ لا يلبث أن يصطدم في مجرى منطق الأمور ، وفي نطاق وافع الحياة على السواء ، بشواهد لا تسنده ، وأمثلة لا تؤيده ان لم تنسخه وتنقضه أو تجرده - في أقل القليل - من القدرة على الاطراد بغير استثناء في كافة الظروف والأحوال ..

فاتساع نطاق أية دولة ، ونراى حدودها ، أدنى الى أن يحسب لها ثقلا في ميزان القوة لا أن يحسب عليها سببا للوهن لأنه يمدّها من الموارد الطبيعية والبشرية - الخليقة بأن تتوفر على امتداد المساحة ونتيجة لتنوع المناخ والتربة - بما يحقق لها من اسباب المنعة والتفوق ما لا يتحقق مثله لدولة صغيرة نصيبها من الأرض والبشر قليل .. والتعدد العنصرى أيضا على أديم هذا النطاق الفسيح لا يحتم وقوع تنافر بين الأجناس يؤدي لا محالة الى الخروج على الدولة الأم وتفتيت وحدتها الإقليمية وكيانها السياسى الى دويلات عنصرية .. فكم هى الأمم ذات الأثر في الحياة الإنسانية على هذا الكوكب ، التى أوشك بنوها أن يكونوا أنقياء الدم إذا ما أردنا بالنقاوة وحدانية العنصر ؟ .. وهل من دولة ، قديما وحديثا ، في الشرق وفي الغرب ، قد حركت موكب الحضارة على طريق التاريخ ، ولم يكن قوامها يتألف من أجناس عدة تلاقحت - حيويا أو فكريا - وتوحدت ، على الأقل ، في تعاهد سياسى اقليمى إن لم تكن قد انصهرت في عنصر جنسى جديد ؟ .. وما هى الفواصل الحادة بين الأجناس البشرية التى

تستطيع أن تحبس ، إلى أبد الدهر ، جنسا وراء اسوارها الشواحق  
فلا يتصل او يمتزج بسواه ...

ليوشك هذا ان يردنا والزمن إلى الوراء حقبا سحيقة ، غائرة  
في القدم إلى الأعماق حتى مستهل النشأة الإنسانية على الأرض  
وجماعات البشر آنذاك شراذم مقطعة يعيشون معيشة بدائية ، لا يمكن  
ان توصف - إلا تجاوزا ورمزا - بأنها حياة ، او يوصفوا بانهم  
مجتمعات ... فتلك كانت بداية « التجمع » الإنسانى او نواة الالتئام  
والاجتماع . وحركة الإنسان في آونتها هذه لا يكاد يحس لها بأثر  
في التاريخ العام للجنس البشرى لأنها عدئد لم تكن لتدور إلا في حيز  
محدود مغلق من العزلة هو الأسرة او هو القبيلة مع سخاء التقدير ...  
فأما وقد سارت البشرية في طريقها أشواطا شبت بها عن الطوق ،  
وخلفت بعدها طفولتها الغريرة الى مرحلة النضج عبر اعصر طويلة ،  
فإن إحساس الإنسان بذاته ، وإدراكه لدوره في الحياة ، ووعيه  
بالانتماء لأصل معلوم تناثرت آحاده وجماعاته هنا وهناك على مدى  
الآزمنة والمسافات ، قد غدت كلها - إلى جوار غريزته الاجتماعية -  
قوى فعالة تسيطر على سلوكه ، نفسيا وعضويا ، وتدفعه دفعا الى  
الالتقاء بينى جنسه أينما شرقت به وغربت قدماه .

وكذلك تنشأ المجتمعات . بل كذلك يعود الإنسان ، بعد طول  
تجواله الضال ، الى بيئته الحيوية الأصلية ، وتعود الشراذم البشرية  
المقطعة لتتصل وتلتئم كما نشوب الغنمات الشاردة الى مربيض  
القطيع ...!

ولا حاجة قط لنأييد هذه النتيجة استهداء بعلم الاجتماع ،  
ولا عن طريق استقراء التاريخ ، لأنها النتيجة الميسرة الظاهرة لأية  
نظرة عابرة بغير استهداء ولا استقراء . فالقرع لا ينفر من أصله .  
والشكل ينعطف على شكله . ولا عبرة أيضا بطول فترات الشرود  
والانفصال ، ولا باختلاف الألوان وتفاوتها كما بين غنمة سوداء وأخرى  
بيضاء ... فمنطق الأمور ، وشواهد الحال يوما وراء يوم تؤكد ، بغير  
جدال ، ازدياد توثق الصلات بين جماعات البشر على تباعد المواقع  
البيئية ، وتباين السمات البدنية ، وتمايز الخصائص الفكرية وكل

ما يعلم مجتمعا عن مجتمع وإنسانا عن إنسان . وهذه المواقع والسمات والخصائص واشباهها مهما تعددت وجلت ليست سوى مظاهر خارجية لا تضرب في النفس الأدمية إلى عمق غريزة الاجتماع ، ولا في القدم إلى عراقة النوع . فهي إذن فوارق عارضة ، كالرغوة الطافية على سطح الماء تغير مظهره ولا تغير جوهره ، الماء بها وبغيرها ماء ! . . ولا مآل لهذه الفوارق ، طال بها العهد أم قصر ، إلا إلى الزوال والدوبان فناء في الأصل الثابت وتوحدا فيه ، وهو « الإنسان » على عموم معناه كنوع من المخلوقات ميزه الله بصفات خاصة ينفرد بها دون سائر الأنواع .

هذه هي نظرة الإسلام التي تنطق بها سطور القرآن ، وتقوم عليها أوامره ونواهيه . وهي دعامة فيه بغيرها يختل بناؤه ، وتهدر أهدافه ، ويفقد معانيه ومراميها ، لأنها تمثل في حقيقتها أحد طرفي المحور الذي يدور عليه موضوعه ، وتنهض أحكامه ، وهما : الله والإنسان .

فالدين الإسلامي ليس عقيدة بحتة لا تتناول إلا ما يرهف حاسة التدين ، ويهذبها ، ويوطد الرابطة بين الرب والمربوب بما رسم من شعائر ، وفرض من فروض . . لكنه عقيدة وتشريع وإن غلبت صفته الدينية الأذهان على حقيقة ما فيه فكادت - توهمنا وظنا - تجتريء منه بشرط التأله دون شطره الآخر الذي يعرض لشئون هذه الحياة . .

والقرآن ليس قصصا يروى ، وكلاما يزجى ، وبيانا يستعذب فيردد ويستعاد . ولكنه قطعاً قانون بالشكل والمضمون . وبالمعنى الكامل الصريح لكلمة قانون ، أريد به إنارة الطريق أمام المجتمع الذي سن له إلى حياة اجتماعية يسودها العدل ، ويتحقق لها الخير ، وينتشر في ربوعها السلام . فمن الطبيعي إذن ، وصولاً لفرضه ، وابتغاء لغايته ، أن يجيء بما ينظم العلاقات في ذلك المجتمع بين أفرادهِ وجماعاتهِ من ناحية ، ثم بينهم وبين السلطة العليا التي يمثلها من ناحية أخرى ، مقيماً تنظيمه على أساس من الدواعي والأسباب ، ومعقبا بأحكام الثواب والعقاب . . ومن اللازم ألا يغفل ، أو يتغافل عن هذا الجانب الاجتماعي فيه ، تمحلا بأنه دين « الروحانيات »

والغيبيات هي مجاله الأصيل . فلا جدوى قط من قانون تقتصر نصوصه على تحديد الصلة بين الحاكم والمحكومين دون أن يضع صلة رعاياه بعضهم ببعض موضع تقدير لانه عندئذ يجرى على التخصيص . والأصل في القوانين أن تكون على العموم لا على الخصوص ..

في هذا الضوء لا يعسر على من يستخلص الأسس العامة ، أن يرى في الإسلام حقيقة كبرى قد أبرزها كرأس قواعده ، هي «الوحدانية» الخالصة التي تنتفى معها كل صور التعدد واللوان التجزئة وما قد توميء اليه هذه أو تلك بالتصريح أو التلميح . فالوحدانية التي يقول بها نابتة لا تتغير ، كلية لا تتجزأ ، جلية لا تتناولها شبهة ، لأن التغير والتجزئة والاشتباه آفات خليفة لو وقعت بأن تذهب بالعقول مذاهب شتى في فهم ذلك القانون القرآني ، وتفاير بين أساليب السلوك تجاه كل حكم من أحكامه ، ثم تفاوت بعد هذا بين العقوبات والمثوبات بغير ما يقتضيه الإنصاف . وما لمثل هذا شرعت القوانين ، ولا بمثله تساس الأمور والمجتمعات .

ولا يراد بهذا القول أن يعاد ما هو ثابت مستقر من «توحيد» الله في الإسلام فذلك طالما جرت به الأحاديث ، ووعته الأفهام ، حتى غدا بديهية في غنى عن التأييد . لكن الذي ينبغي بيانه أن التوحيد ، بشمول معناه ، وعلى تعدد مجالاته . هو أساس الإسلام ، وأصل قواعده ، والمبدأ العام الذي يتقدم به ، ويعرض نفسه على العالمين عقيدة وشرعية ، دينا وقانونا ، سياسة ونهجاً للإيمان والسلوك . فهذا التوحيد هو الوسيلة لتحديد علاقة الله بالبشر ، وعلاقة الناس بالناس ، دون ما ترخص هناك أو تأويل ، ودون ما نحيز هنا أو تجاوز . وهو الضمان الكامل لاستقرار الأمور في المجتمع : حاكماً «علوياً» ومحكومين «أرضيين» بغير زيادة ولا نقصان ..

فالإسلام كعقيدة لا يبيع مطلقاً أي ترخص في شرائط الإيمان أخذا ببعضها وتركاً للآخر وإن لاح أن فيها ما يجلب أو يهون ، وإن اختلف حولها المكان أو تغير الزمان ، لأن الإيمان «وحدة» متسقة لا تقبل التجزئة ، كما لا تقبل الإفراط أو التفريط ..

والإسلام كشرية له وحدته القانونية التي تربط أحكامه ، وتلائم بينها ، وتعرف عادة في لغة العرف أو العصر يروح القانون . فلا سبيل قط إلى الاحتكام إلى نص فيه بعيدا عن « جو » بقية النصوص . ولا إلى المغايرة قليلا أو كثيرا في التطبيق بسبب تفاوت اقدار المحتكمين أو المختصمين ، وتغاير عناصرهم ، واختلاف النظرة في التقدير بين هذا وذاك ممن يتصدون للتطبيق ، لأن في هذا ما فيه من إهدار الوحدة ومجاناة الروح ..

وكما لا يجزىء الإسلام الله فإنه لا يجزىء أيضا الإنسان . إنما يقضى بوحدة الربوبية الإلهية ووحدة العبودية البشرية في آن . ويحرص الحرص كله على أن يرسخ هذا المبدأ في القلوب والأخلاق بكلا طرفيه : الله والبشر ، بما يبثه في تعاليمه ، وتردده آيات كتابه بجلى الحرف ومستتر الإيماء سواء بسواء ..

فتوحيدا لله ، ينزه الإسلام الذات العلوية عن مخالطة الأحياء زمانية ومكانية ، وعن المشاركة في الملك بالاجتزاء أو المشورة ، وفي القدرة بالقول أو الفعل ، وعن المقارنة بالنظائر والأشباه ولو مقارنة تمثيل . فتنزيهه الله خالص كامل ، وقاطع مانع ، يجلى عن الوصف ويعلو فوق تطاول العقول ..

ولقد صور الإمام هذا التنزيه ببيان رأى ، أمام كماله سبحانه ، أن ينهى فيه عن وصف ذاته ، لقصور الأفهام عن الإحاطة بحقيقته ، وعجز الكلام عن رسم صفاته :

قال :

« .. كمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة .. فمن وصف الله فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزأه . ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار إليه . ومن أشار إليه فقد حده . ومن حده فقد عدده .. » .

وقال مما جرى على نفس المثال :



« .. وحده لا شريك له . الأول لا شيء قبله . والآخر لا غاية له .. لا تقع الأوهام له على صفة . ولا تقعد القلوب منه على كيفية . ولا تناله التجزئة والتبعض .. » .

وتوحيدا للبشرية أعلن الإسلام أنه دين الفطرة التي فطر الله عليها الناس قبل أن تفسدها الانحرافات المتسربة إلى النفوس والعقول من خلال المعتقدات والأفكار ، أو العادات والتقاليد ، أو فوارق العنصريات . أو حدود الزمان والمكان .. فهو يرد الإنسان إلى سجيته النقية الأولى ، كبداء نشأته ، مطهرا من أدرانها ، خالصا من شوائبها ، كأنما يلد له من جديد . وهو بهذا يسوى بينه وبين كل من عداه من بنى نوعه لأن الفطرة هي العامل الوحيد المشترك فيهم جميعا فأساس المقارنة بينهم على هذا الوضع ثابت لأنه مساواة مطلقة لا وجه فيها للمفاضلة أو الترجيح .. وهو يقيم رسالته على هذه القاعدة ، فلا يوجهها لطائفة من الناس ارتفعت - في حساب المعايير الدنيوية الموضوعة - بجاه ومال ، أو بعلم وثقافة ، أو بقدرة وقوة ، أو بجنس وعنصر .. لكنه يوجه هذه الرسالة إلى البشر كافة ، ثم يحتويهم في رحابها سواسية ، لأنهم وحدة مكتملة لا تقبل التجزئة ولا التفريق .. وليس أدل على هذه الحقيقة من نأيه في الدعوة إلى الإيمان عن التخصيص إلى التعميم فلا يخاطب إلا « الناس » أو « الإنسان » أو « بنى آدم » أو « عباد الله » دون أن يختص أى جنس أو عنصر بالخطاب .. ويشير الإمام إلى وحدة البشر فيقول :

« .. إنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبيث السرائر .. » .

ويحذر من عصبية الأحساب والأنساب والعناصر ، بل يهدر طاعة ذوى السلطان الذين يتخلقون بهذه العصبية ، لأنها - في حقيقة الأمر - تجافي منطق الطبيعة الذى يجمعهم وغيرهم من مذلوليهم المرجوحين ، في نسب واحد ، أصله واحد لا اختلاف فيه .

قال وهو يفرد العلو لله :

« .. لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما

حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه  
فيهما من عباده .. ألا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم الذين  
تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم .. فإنهم قواعد أساس  
العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. » .

ونسبهم هو الإنسانية فكيف يترفع إنسان على إنسان !

وانكر المفاوطة في تطبيق شريعة الله عند الاحتكام ، فقال فيمن  
يفاوتون ، منحرفين بهذه المفاوطة إلى آرائهم عن رأى الدين :

« .. إلههم واحد . ونبيهم واحد . وكتابهم واحد .. أفامرهم  
الله بالاختلاف فاطاعوه ؟ .. أم نهاهم عنه فعصوه ؟ .. أم انزل دينا  
ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟ .. أم كانوا شركاء له فلم أن يقولوا  
وعليه أن يرضى ؟ .. أم انزل دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه  
وأدائه ؟ .. » .

هكذا هو المجتمع الذى عناه الإسلام ، وبناءه على قواعد راسخة  
لا تهتز ، واضحة لا تستبهم على العقول ، لأنها تجرى على جادة المسرات  
البدئية التى لا تحتاج في إثباتها إلى عناء الجدل ، وتقوم على حقائق  
الواقع الملموس ومنطق الأمور الطبيعى لا على النظرات المنبثقة من  
التصور والافتراضات المستمدة من تطلعات الخيال .. !

وحدة ..

وحدة سلطة عليا ، لا تنجزا فلا تنقسم على نفسها . ولا تتغير  
فتختلف عليها البدائل أو تضطرب الآراء .

ووحدة أمة واحدة الأصل ، متفردة النوع ، بغير تباين بين جماعاتها  
وأفرادها في النشأة والفطرة والصفات النوعية ، هى البشرية . أو هى  
الإنسان على اختلاف الزمان والمكان ..

ووحدة شريعة مكتملة ، تؤكد وحدة السلطة ووحدة الأمة ،  
وتتناول العقيدة والمعاملات ، بغير مجاز إلى تبديل في أصولها ،  
أو ترخص في قواعدها العامة ، لأن تعديل الشرائع موكول إلى الهيئة  
التي أصدرتها ، ومرتهن بحاجة المجتمع إلى هذا التعديل نتيجة

لافتقار المشرع إلى الإحاطة الكاملة بما قد يطرأ من بعد على ذلك المجتمع من ظروف ويجد من احوال ، وحاشى أن ينسب مثل هذا الافتقار إلى الله !..

ومساواة ..

مساواة بالنشأة ، لأن المجتمع البشرى كله من آدم ، فهو إذن متوحد في النوع ، مختزل في الإنسان على عموم صفته ، بغير تجنيس ولا تفرع ..

ومساواة بالكنه ، وهو الفطرة الأولى التى يشترك فيها أبناء ذلك النوع كافة ، قبل أن تغير منها أو تفسد فيها عوامل الفرقة «الوضعية» التى تستند إلى تفاوت البيئات والألوان ، أو تغاير الأهواء والثقافات ..

ومساواة في التقدير أمام شريعة واحدة ، لا تماليء إنسانا على إنسان ، لأنها عادلة شاملة ، لا تتغير من مكان لمكان ، ولا من زمان لزمان ..

## ٥

عوامل الضعف كلها التى انتابت المجتمع الإسلامى في ذلك الحين ، ومن بعد ، نبعث - فيما تنبئ الشواهد وتثبت الخواتيم - من قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ، أو ، بلغة اليوم ، من المفارقة بين النظرية وبين التطبيق .. فهذه المفارقة آفة مدمرة ، كغيرها من جرائم الأوبئة والعلل الفتاكة ، قد تهدأ حيناً ، وقد تنشط حيناً ، ولكنها في الحالين لا تنقضى ولا تنقطع لما لها من طاقة ذاتية تجددتها على الدوام وتعينها على البقاء والانتشار في كافة الظروف وتحت كل الأجواء بقدر استطاعتها التكيف بؤوضاع المجتمع الذى تنشأ فيه !.

ذلك ما لا سبيل إلى نقضه ولا الطعن عليه وإن تعقبنا المجتمعات البشرية بأنواعها على مختلف مراحل التاريخ ، صعوداً وهى في ذروة القوة والازدهار وهبوطاً في حضيض التبدل والانهدام .. فما نشأ

مجتمع قط في هذه الدنيا إلا على مبدأ عام - إلهي أو وضعي - يرمى إلى تحقيق لون من الخير يشيع في ربوعه ، كيفما تباينت النظرات من خارجه إلى هذا الخير أو تفاوتت الآراء في تقديره .. وما قام مبدأ في مجتمع إلا على أساس من التوفيق بين مصالح القوى المتعارضة ونقائص الأفكار السائدة فيه - طبقية كانت أم فردية هذه المصالح والأفكار - ضمانا لخلق توازن نسبي بين أهله ، يذيب الفوارق أو يكسر حداثها ، ويجمع شتات الآراء والجهود في وحدة تسعى لتبلغ الخير المقدور .. وما من خلل أصاب هذا التوازن وخلخل اتساقه في مجتمع من المجتمعات إلا كان ناجما من افتقار بنيه إلى الإحساس بالانتماء إليه افتقارا يهز إيمانهم به وثقتهم فيه ، بسبب اضطراب المعايير ، والمفاوطة في التقدير على خلاف ما يقضى به المبدأ العام ..

وظاهرة المقارقة بين النظرية وبين التطبيق برزت في المجتمع الإسلامي الجديد وهو يوشك أن ينسلخ من الخلافة « الراشدة » بأسلوب حكمها الخاضع لناموس علوي لا يأخذ بالملك القائم على مزايا وضعية كالعنصر والنسب وبسطة النفوذ . ولا مدعاة هنا لسوق الحديث إلى المفاضلة بين النظامين لاتساع الهوة - قطعا ودون حاجة للتدليل - بين الفاضل وبين المفضول ، سواء بالنتائج والعواقب أو بالأسس والأصول ، وكفى أن يقال إنها الهوة التي تضع إنكار الذات في جانب والانانية في آخر ، وتقدم القهر على حرية الاختيار ، والاجتزاء على الشمول .. ولا مجال أيضا للزعم بأن هذه الظاهرة قد طفت فجأة على سطح المجتمع الإسلامي ، أو اقتحمته على حين غرة حينئذ ، لأن في هذا ما يخالف طبيعة الأمور . إنما الحق أن نقرر أنها ولدت مع المجتمع منذ نشأته ، وعاشت وتربت فيه . فلكل شيء آفة من جنسه ، كما يقال . والإسلام آنذاك ، وعلى عموم معناه ، « مبدأ » جديد . والمبادئ ، في كل موقع وعهد ، خليفة يان تقابل دائما ، منذ نشوئها وطروئها على المجتمعات بما يضادها . ويصطلح عادة على تسميته « رد فعل » ، تماما كما تنشط كرات الدم في الجسد وتولد طاقة ذاتية لمقاومة أي طارئ دخيل ! ..

وهذا ما كان .

فلقد ظهرت قوى المقاومة للدين الجديد منذ نشأته ، وأخذت أيضا عوامل التحلل والتخلخل تسرى في المجتمع في نفس الآونة ، وإن مشيت حيناً على استخفاء وحيناً على سفور . ولقد لاح ، فيما سبق به الحديث ، كأنما كان أولى بهذه العوامل ، أن تفعل فعلها التخريبي منذ بدأت ، ما دامت قد عاصرت مولد الدين ، ومشيت وإياه إلى المجتمع خطوة خطوة على الطريق . . لاح هذا ، وكان أولى به الحدوث قبل مواعده يبضع سنين ، أولا أن ظروفنا غلبة قد عوقتها ، وقهرت ضراوتها على أن ترجىء نشاطها إلى حين . .!

فلا شبهة قط في أن انطلاق الدين بتلك السرعة البرقية من قلب مهدد في الجزيرة العربية ، وعجز الجحافل الضخمة المعادية - سياسية كانت ، أم عسكرية ، أم عقيدية - عن الثبات أمامه ، ثم تعاقب تساقطها ممزقة صرعى تحت قدميه ، قد شل عوامل التحلل أن تتحرك ، وجمد خطاها المتسللة إلى المجتمع الجديد . . ولا شبهة أيضا في أن صلب السيوف ، وضجيج الخيل ، ودوى الأبواق التي انعقدت بها ألوية النصر لكتائب الطلائع الداعية في كل مكان قد شغلت الدنيا كلها بثورة الطوفان العارم الذي فجره الدين . . فالتناس ، هنا وهناك ، في الجزيرة العربية وما وراءها ، مؤيدين ومعارضين ، قد أذهلهم عن أنفسهم ، وعن المطامع الشخصية والقومية جميعا ، ذلك الزحف الأسطوري الخاطف الذي حققته الدعوة الإسلامية في مجالى غزوها للأرض وللنفس فيما لا يكاد يحسب شيئا يذكر في عمر شعب ، أو دولة ، أو مبدأ ، بل في عمر فرد من الأفراد ، ثم يوشك ألا يدع مهلة لالتقاط النفس المبهور ، أو فرصة لإمعان النظر فيما جد من الأوضاع والأمور ومقابلته بالتمرد أو التغيير . .

فعلى الأديم « العربى » نحتت حركة الفتوح أمة العرب ، التي ولد في حجرها الإسلام ، نوعا من الشعور بالتفوق على الحضارات العظيمة المعاصرة إن يكن قد حملها على الاعتزاز بالدين الجديد كطاقة معنوية تدفع إلى الاستهانة بالأخطار ، أو كمشعل يضئ لها الطريق إلى النصر ويفرش ساحات الكفاح بالنور ، فإنه قد بسط لها أيضا في الثقة بالنفس ، والاعتداد بالجنس ، اعتدادا وثقة صورا لها

— أو كشف — في دخالها قدرات وملكات ذاتية ، شاهقة خارقة ، ظلت خبيثة عنها على مدى الأعصر الطوال حتى عرفت الآن أين السبيل للظهور .. وإذا كانت للنصر سورة كسورة الخمر التي تعرى بالمهاجرة ، وتحفر على الإدمان انتجاعا للنشوة في كل كأس وبأى مكان . فان تعاقب الليل والنهار على انتصار وراء انتصار ، قد أبدل العرب رهواً بثقة ، وخيلاء بإعنداد ، فزادوا عصبية على عصبية ، وحمية فوق حمية . وغدوا — ولما يطل بهم عهد الازدهار — أفخر بأصلهم والصق ، فخرا يكاد يعمى عما عداه من أصول فيورث الاستعلاء . ولصوقاً بهم أن يحتازهم الى ركن قصى من « القومية الإسلامية » الجديدة ، إن صح هذا التعبير ، ويبنى حولهم غلافاً من العزلة ، كصدفة القوقعة ، بفصل بينهم وبين سواهم من الأقوام الآخر الذين احتواهم الدين وإياهم على سواء في أمة موحدة محت شريعته السماوية طبقية الجنس وأذابت القوميات .. فإذا لم يكن في تعاقب النصر المؤزر السريع ما يشعذ إحساسهم بالتفوق . ويلهب في نفوسهم غلواء افتتاتها القديم بالعنصر ، فأى شيء غيره إذن — في اعتبار النظرة العربية المباهية — قادر أن يشعرهم أنهم وحدهم هم الجوهر الأنقى ، والأصل الأعرق ، وأن غيرهم من الشعوب والأقوام . الملتحقة بفضلهم بالإسلام ، تبع لصقاء ، وطارئون دخلاء !..

وعلى الأديم « الأعجمي » قرنت صيحة الدين الجديد . في البلاد التي مشت عليها الفتوح ، صدمة المفاجأة برغبة التغيير .. ملقد هالت الناس فيها تلك الطاقة المذهلة التي فجرها الإسلام في أمة مستضعفة ، لم تكن قبله شيئاً مذكوراً ، فإذا هي به نزلزل الدنيا ، وتقلب موازين القوى ، وتغير المعايير والأوضاع ، فتصبح قبائلها المبعثرة دولة تدل شوامخ الدول ، وتلتهم أعظم الحضارات ، وتنسخ العقائد والأعراف ، ثم تطوى في قبضتها عالم يومها ذلك من طرفيه في بضع سنين .. وكان الانفعال الذي خلفته الصدمة المباغتة في البلاد المفتوحة ، أن دينا كهذا قد استطاع — وهو بعد وليد طرى العود بين عمالقة الشرائع والمعتقدات ، وبانتصار لا يحفل بهم في حساب كثرة أو قدرة — أن يفعل مثل هذه الخوارق ، ويأتى من

النتائج بما لا تنم عنه المقدمات ، ولا يوحى التسلسل المنطقي للأمور ، محققا ما يخالف كل متوقع ومنظور ، لهو لا بد دين جدير بأوفى اكبار وابلغ تقدير .. فإذا ارتبط هذا الانفعال - وهو في ذروة نشاطه ، والعقوى لما تفق بعد من صدمة الدهشة - بما طبع عليه البشر عامة من تطلع نهم الى الجديد ، وبما راود عندئذ نفوس أبناء الأمم والشعوب التي طالما استعبدتها دول ذلك الحين قبل الإسلام من نزوع الى التبرم بأسلوب حياتها المهين ، والتمرد على الظروف والأوضاع التي حبستها في هذا الأسلوب ، فأى مسلك إذن كانت تلكم الشعوب والأمم تسلكه حيال طغيان الامبراطوريات واستبداد الحكام الا ان ترى الأمل ثم تتلمس المهرب في هذا الدين الذي بشر بالعدالة والمساواة بين الأجناس ولكل الناس ، ولا مكان فيه لتسلط إنسان على إنسان . إدلالا بقوته ار إشباعا لهواه ، لأن السلطة كلها في يد الله دون سواه ؟ .. واى موقف عسى ان يقفه بنو هذه الأمم التي اظلمت للإسلام لو آنسوا من العرب ، وهم الهداة والأعلام ، تقحما على هذه السلطة ، وميلا إلى التجبر والاستعلاء - كحكامهم الغابرين - على خلاف الشعار الذي رفعوه ؟ ..

هذه هي الملامح النفسية التي أخذت تبرز في اقوام عالم تلك الأيام والإسلام يلمس بعصاه السحرية البشر فيفجر فيهم الطاقات والقدرات ، أو يبجس الآمال والتطلعات كما فجر موسى من الصخر عيونا عدة من الماء بعصاه ! ..

تباعد وتعال في جانب ، وتوجس وتحد في آخر على رقعة الدول الإسلامية الفسيحة ، في بكرة نشأتها ، كانت هي السمات التي اعلمت نفوس جماعة المسلمين آنذاك ، ووجهت سلوكهم ، وراحت تحاول ان تشق وحدتهم فريقين متقابلين ، على تحفز وتناقض ولو لم يكونا على خلاف ، وما انتقضت بعد على التقائهما تحت العلم فترة الزمن التي تكفيهما للاصهار . فكأنه التقاء مادة بمادة تتجاوران ولا تتفاعلان ، وقد تلتصقان ولكنهما لا يمتزجان ! ..

ويجاوز حدود الإنصاف وسلامة التقدير ، بغير جدال ، ان يزعم زاعم ان العرب - كجنس - كانوا جميعا على استعلاء . او ان خيلاء

العنصر سادت منهم رجال الطبقة الحاكمة فرادى وجماعات . فذاك ما لا تؤيده حقيقة السلوك العام لأولئك وهؤلاء في تلك الفترة كقوة داعية الى الدين أو كسلطة تسوس الأمور . . ولكن ظاهرة الاستعلاء برزت ، بلا مرأى ، في صفوف الحكام ، منبثقة من نراهم النفسى وطبيعة العصبية العربية التقليدية تؤجج نارها مفاخر النصر وسطوة النفوذ . فإذا هي تسم غير قليلين من أصحاب السلطان وتوجه اليهم الاهتمام العام . وإذا هي عندئذ الظاهرة التى يفشو امرها بين الناس ، ويجرى ذكرها على الألسنة بكل مكان في كل مقال ، كثر أو قل الموسومون وتعددت أو ندرت الأمثال . . وليس هذا بمستغرب . ولا هو مما يخالف منطق الأشياء . لأن الكبير - كل كبير - وصاحب الجاه ، وذا السلطة المرموقين في المجتمعات يتعلق بهم عادة اهتمام من وراءهم وحولهم من الجماهير ، وتنبص العيون والاخلاد بصور تصرفاتهم ، والوان سلوكهم - ما جل منها وما هان - في مناحى حياتهم العامة والخاصة على السواء ، تلاحقها بالنظرة الفاحصة والراى الناقد حتى لتوشك أن تعد عليهم الخطوات وتحصى الأنفاس ثم لا نذكر لهم ، آخر الأمر ، مما يقولون أو يفعلون ، إلا الأخطاء والمساوىء ملفوفة في المبالغة والمغالاة وإن كن هنات ، كشأن الشعوب دائما في محاسبة الحكام . .

ويجاوز أيضا حدود الإنصاف وسلامة التقدير أن يقال عن الشعوب الأعجمية الملتحقة بالإسلام ، إنها ظلت أبدا خافضة الجناح ، بريئة من داء الاستعلاء . فذاك أيضا يجافي حقيقة الحال . . إنما المعلوم المشهور أن بذرة الإحساس بمراقبة حضارتها والازدهاء بأصول مدنياتها القديمة ، بائدة أو مقيمة ، لم تقتلع من المشاعر ، فظلت معتزة بما سلف وكان ، تجتره بين حين وحين وإن أضافت إليه فخرا جديدا بهذا الدين . . فما كانت لتنسى قط اعتزازها بصولة الاكاسرة ، وتراث الروم ، وشموخ الأهرام . . ولا هي أغفلت تلمس العزاء في أمجادها الفواير كلما ساءها من العرب أمر ودفعها الى المقارنة بين ماضيها كرعايا وماضيهم كحكام . وفيما تدلنا عليه نفثات الفكر المستعرب وآثار كتابه وشعرائه ، التى راحت رويدا رويدا تطفو على سطح الثقافة الإسلامية ، ما يكشف لنا عن نواة



الحركات « التسعوبية » الخطيرة التي كان لها ، من بعد ، أثر بالغ في نوهين سلطة الدولة ، وحسر مد الإسلام ..

ولا ينبغي هنا أن تحمل كلمات الضعف واحتلل والوهن وأمثالها من أسماء الصفات والنعوت ، التي نراها أسندت لهذا العهد والتصقت به ، على مطلق معناها ، لأن « الإطلاق » في حقيقة دلالة تجريد ، والتجريد شمول بلا معالم ، وشيوع بلا حدود ، وما هكذا تكون الأمور في واقع الوجود . فإنما المعنى نسبي . والصفة مرنة وليست بقالب جامد تصاغ فيه كافة الموصوفات في حجم واحد وهيئة واحدة بلا سمة من تباين ولا مظهر من خلاف بين موصوف وموصوف . فلقد يعمل رجل فعلا فيقال كريم . ولقد يفعل غيره نفس فعله فيوصف بوصفه ثم لا تكون دلالة الصفة في هذا هي دلالتها في ذاك . بل لقد يجرى ثالث على ذات الفعل بنقيض الوصف ، لأن مرونة الصفة تتيح تشكيلها بحسب الموصوف ، كما يتشكل السائل بشكل الإناء !..

فإذا قبل بدء تحدر الدولة الإسلامية ، في هذه الآونة ، الى منزلق الضعف ، فإنه التحدر الذي لا يؤخذ بالحرف وظاهر الوصف لأن الدولة الإسلامية آنذاك ، وبعده بعدة اجيال ، كانت الدولة التي لا ترقى إلى شأوها دولة معاصرة ، والقوة التي تكاد تتفرد في عالم ذلك الزمان بامتلاك ناصية شعوبه وأحداثه ، تسوس فيها الأمور وترسم المصائر والمقادير .. ومع ذلك فهو ترد بلا جدال إذا قورنت الدولة بالاليق بها والأوفق بمقوماتها وما كان ينتظر منها أن تكون لو انها سارت ، وسار بنوها - بذرع خطاهم واستقامتها ، كأول أمرهم - ممثلين مضمعون للإسلام .. فأما وقد جانبوا النهج وانحرفوا عنه ، فإنهم إذن قد اغفلوا معين القوة الذي لا ينقد وفرطوا فيه ، واصبح محتوما عليهم بهذا الإغفال الانزلاق يوما الى هاوية الضعف قصر الأمد وقرب من ذلك اليوم أو بعد و طال !..

سرح الظل على الضوء !..

الشروق ينحسر . الأصيل ينتشر . الشبهة تصبغ الأفق وتغير عليه نديرا بمقدم الغروب . الصفاء يذوب في كدر العتمة .. ومن خلال ذلك بدت صورة المجتمع الإسلامى حينذاك ، بخلاف أمسها ، مهزوزة المعالم على غير جلاء . كأنما رثت . كأنما اختلطت فيها الألوان . كأنما راحت نعوم في ضباب !..

ولم تكن أصابع الزمن هى التى أنهكت الديباجة ، أو عبثت باللون ، أو كسفت النور . فالعمر غض والمدى قصير .. ولكنها أصابع الإنسان . هواه وغروره . الترخص الذى استباحه لنفسه ، بغير حق ، فى الركون للتهاون أو النزوع للتغيير هو الذى شوه الصورة .. فقد اطلق على الملامح ريشة نزواته تجرى عليها كما يشاء .. أحيانا عدل فبدل . وأحيانا ظلل فطمس . وأحيانا لون فهول حتى لقد غام الضوء وبهت الظل وخيف الا يبقى على حاله الأول شئ من الصورة الأصلية سوى الإطار !..

صنوف من السلوك الناجم عن جموح النفس البشرية أخذت تشيع فى المجتمع ، ثم تتسرب ، قطرة قطرة ، الى أعماق أعماقه لتنخر فى الأسس التى قام صرحه الباذخ عليها كمجتمع ركين سليم .. ما فطن آنذاك كثيرون فيه الى انحراف تلك الصنوف السلوكية عن مجرى الدين . ولا شام ، الا الأقلون ، خطرهما المحتوم . ففى مجال التأويل والجدل دائما فسحة لاصطياد الاسناد أو تقديم التبرير ..

وعسير بلا ريب ، كما سلف القول ، ان يرد الانحراف الى هذه الطائفة أو تلك ، أو هذا الفرد أو ذاك من الناس إذا نحن أردنا ان نحصر التهمة لنحسم الامر ونحدد على من تقع تبعة الانزلاق . ولكنه حين وحق ان يوسم بها قادة الراى عامة فى الأمة الإسلامية على غير

تخصيص وعلى اختلاف المواقع والدرجات ، من كان منهم صاحب كلمة ترشد وتوجه أو كان منهم ذا سلطة تردع وتأخذ المخالفين بالجزاء .. فأولئك بعينهم قد أعانوا ، بلا شك ، من وراءهم على الخروج عن الجادة ، وأملوا لهم في مقارفة الانحراف سواء أ جاء إملأؤهم عن قلة تبصر ، أم قصور فهم ، أم غرور أهوج إن لم يجرى بسوء نية عن خبث طوية أو جنوح مقصود إلى التنكب عن الطريق السوى لإشباع شهوة النفس ونهمها ، بلوغا لهدف مائل أو طموحا إلى مأرب بعيد .. لكنه ، على مختلف وجوهه ، تجاوز عن استقامة السلوك وسلامة التصرف واستواء القصد التي يدعو إليها مضمون الدين .. وحين يصدر القول من صاحب سلطة فكرية أو زمنية ، فإنه إذن إحياء أو أمر ، وحين يصدر الفعل منه فإنه اغواء أو منل ، وكلاهما يحمل الناس على الانصياع أو يغريهم بالانبعاث .. ولا عجب . فالقادة ودوة ، آراؤهم وأعمالهم أعلام منشورة يرنو إليها اهتمام الخواطر ، ومعالم على الطريق يحتديها انطلاق الرغبات . ودائما القدوة هي التي تصنع السلوك العام في المجتمعات ..

من هذه الثغرة أتى مجتمع الإسلام . وتسربت إليه عوامل الوهن من بين يديه لا من خلفه ، ومن قمة بنائه لا من القاع ، إذ نفذت فيه من خلال نفوس « ساديه » ورجاله الكبار قبل أن تنفذ من خلال نفوس العامة وعرض الجمهور حتى اتسع الخرق ، مع الزمن ، لشتى الأخطار .. ولا حاجة هنا لتوكيد هذه النظرة بما يركبها .. فهي - في ضوء الواقع - تسير طبيعة المحاكاة والتقليد التي تسيطر على السلوك الجمعي في المجتمعات ، وتقود حركاتها الحيوية إلى التغير المستمر - كسنة التطور - صاعدة بها إلى الارتقاء والنمو ، أو هابطة إلى الضعف والانحيار .. وهي أيضا الحقيقة التي تنطق بها شواهد الحال ، وتتوالى أدلتها وأمثالها في حياة الإنسان في كل مكان وزمان ، دليلا من بعد دليل ، ومثالا وراء مثال .. وما المجتمع الإسلامي ، بعد هذا ، إلا بيئة إنسانية ، تخضع لحكم هذا الناموس الطبيعي الحتمي ، ويحق به عليها ما يحق على غيرها من بيئات ..

ولقد يميل امرؤ إلى الإفاضة في الاستقصاء لبتعقب خط الإسلام وخط السلوك العام ، في تلك الآونة ، محاولا أن يطابق بينهما لعله

يتبين من أية نقطة كان بدء الخطأ . ومدى فداحته ، ومتى وقع ، وإلى من يعزى ، وكيف تكرر ، وما هي تبعة أولئك أو هؤلاء من الذين قارفوه أو شاركوا فيه .. لكنها عندئذ الإفاضة التي يتشعب عليها المفال ، ويواتر بها الجدال ثم يغنى عنها الإجمال !.. وكفى هنا أن يقال إن الخطأ قد وقع ، فمهّد للانحراف . وإن الانحراف قد باعد بين الخط المرسوم والخط المطروق ، أو بين النظرية وبين التطبيق .. تماما كما يؤدي الميل - ولو بمثل قيد شعرة - أو اقل - إلى انساع زاوية الانفراج !..

وخيف عندئذ الا يظل على حاله الأول من الصورة الأصلية سوى الإطار !.. وغلت الغيرة في الضمائر النقية على الدين أن يغدو مظهرا بغير جوهر ، وعابى الأمة أن ينتهبها الانحراف . فإن يصبح الإسلام نصا يتلى وشعيرة تقام فلن يكون قصاراه إذن إلا أن يتردد على السفه الفاظا جوفاء ويتمثل في المراسم حركات آلية دون أن يخالط السلوك ويكون - كرسالته - أسلوب حياة !.. وأن يخرج الأمة الإسلامية عن الجادة التي شرعها الله فقد عادت إذن إلى مسلك من سلف وباد من الأمم والعباد فحققت عليها سنة الله في الغابرين !..

في فترة نمائه تلك ، لم يخل المجتمع الإسلامي من اناس على بصيرة ، فطنوا لمعالم الانحراف ، ودعوا ما وسعهم - درءا لخطرهم - إلى المبادرة بالتقويم . وإذا كان من التجنى الادعاء بأن هذه الدعوات كانت بلا أصداء أو تبددت في الهواء ، فإن من الحق أيضا أن يقال إن الفطنة والدعوة كليهما لم تحققا ما أريد من ورائهما على النحو الذي ابتغياه ، لا لمجرد قصور في التلقى والاستقبال ، وعجز في الاستجابة والانفعال ، بل لأن طبيعة المرحلة ، من ناحية - وبيان النظرات إلى صورة السلوك ، من ناحية أخرى ، قد عاونتا كذلك على إرجاء الحسم المطلوب ..

أما طبيعة المرحلة فقد كانت زحاما شديدا من الأحداث ، كسور هائل بجدران صماء ، لا ثغرة به تتيح للناس آنذاك أن يتفقدوا ، ننظرهم ووعيمهم ، إلى غير ما بداخله وما هم فيه .. فالدعوة منهومة بالانتشار ولا وقت للتريث لكيلا تخبو النار !.. والقتال ، ضد قوى

طاغية التفوق . يتوالى في كل مكان توالى الشهيق والزفير حتى ليوشك ان يتغل الدقائق والساعات فضلا عن الأيام والتسهور !.. والفتوح نسر على وجه العالم لتضم تحت العلم بقاعا الى بقاع وامصارا الى امصار !.. ومن وراء ذلك وفي إبانة تنشأ وتترى مشكلات - في شتى مجالات الحرب والسياسة والإدارة والمال وامثالها مما يتصل بحياة الدولة الجديدة وحياة الشعوب المختلفة التى احتواها نطاق الإسلام - تتطلب معالجتها . لحظة بعد لحظة ، بأسرع الحلول ..

وأما تباين النظرات إلى اتجاهات السلوك فقد كان لا بد من ظهوره ، في تلك الآونة ، نتيجة لتعدد أساليب التفكير وتغاير درجات التقدير للأمور . ولا غرابة هنا في حدوث التباين لأنه اخلق باختلاف الطبائع وأولى بتنوع مقومات الإدراك ومبلغها من الإحاطة او القصور . ولا غرابة ايضا فيه لان الأمور - في حيز الرأى - ليست « رقائق » مسطوحة بل هي « حجوم » مجسمة ذات أعماق وابعاد ، تختلف فيها الآراء بحسب موقع النظرة اليها على غور عمق ، أو طول بعد ، أو ميل سطح من السطوح !.. فإذا قر هذا في حسابنا ، الى جوار التفاوت الطبيعى بين القدرات الذهنية وملكات التفكير ، فمن الإنصاف أن نستند كثرة من أسباب الانحراف إلى خطأ الاجتهاد أو اضطراب التقدير قبل أن تسند إلى فساد الطوية وخيب الضمير ..

وليس هذا بتمهيد للعذر بين يدي كل من عسى أن أسهم آنذاك - بقول أو فعل - في بناء الانحراف بصيب كبير أو قليل . بل هو التبرير الذى نراه يضع طائفة من المسلمين ، خاصة وعامة ، في تلك الفترة ، حيثما تضعهم سابقتهم ونواياهم - ويجب أن يكونوا - من الفضل وإن تعثرت ببعضهم الألسن أو زلت بآخرين الأقدام . فما عن الهوى الزلل ، ولا عن بجائف لسوء . لكنه تحرر النظرة ، وانطلاق الفكر ، عن رغبة مخلصه ، إلى ما وراء آفاق المألوف بلوغا إلى ما ظن انه انفع واقوم في حيز واقع جديد تطورت فيه الاوضاع وتغيرت الظروف .. أم لا ، فكيف يمكن في غير هذا الشعاع ان تفسر نظرة ابن الخطاب عندما اشار على أبى بكر أن يقسم للناس على خلاف ما قسم لهم رسول الله من قبل ، فيفاوت بينهم بحسب منازلهم من

الإسلام ، من هجرة ، وصحبة وجهاد . وسابقة ، ويصنفهم عليها درجات وكان الرسول قد جعلهم في القسم سواء ؟ .. آية علة - غير إيثار سلامة المجتمع الإسلامي الناشئ . في مستهل الخلافة الأولى ، وسوى الخشية ان ينفرط عقد الدولة ولما تستتب بعد - كانت خليفة بأن تدفع رجلا في شدة عمر ، وقوة بأسه ، واشتغال غيرته الدينية ، إلى الجنوح لين كالخور يوم شاء ان يكف أبا بكر عن قتال مانع الزكاة ؟ .. كلتا النظرتين ، من ناحية ، قد انبثقتا من رأى طليق لذهن متحرر يحاول التكيف مع التغير ملائمة بين الممكن والامثل . وبين الواقع والمأمول . ولكنهما ، ولا ريب من ناحية أخرى ، تؤخذان على الخليفة الثاني ، ونحسبان - موضوعيا - في قائمة السقطات التي لا يكاد يهونها تبرير شاف لولا ما هو معلوم عنه من غيرة على نشر الدين ، ودأب على تثبيت الدولة ، مع سلامة القصد ونقاوة الضمير ، لأن أولاهما ليست مجرد تغيير نمط التقسيم الذي ارتآه الرسول بقدر ما هي إخلال بمبدأ عام هو المساواة ، ولأن الثانية تخرج بهدفها من نطاق الاجتهاد المقبول إلى حيز الترخص في حماية ركن من أركان الإسلام أن يعيث به فيتهار ، وهو ركن الزكاة ! ..

والتحمل بالدوافع التي حملت الناس ، من عامة وخاصة في الأمة الإسلامية - تحت ضغط الظروف أو بسبب تغير الأوضاع - على « التخفف » في التزام السلوك المشروع ، أو الإغضاء عن هذا التخفف ، قد يضع بعض وقر التبعة عن كاهل طائفة ، وقد يزيد ثقلها على آخرين .. ولكنه ، بطبيعة الحال ، لا يعفى أولئك ولا هؤلاء - من أيسر وجه ، وبأهون تعبير - من خطئ التقدير ! ..

فلقد أدت حصيلة الأيام من تصرفات القوم ، حاكمين ومحكومين ، إلى اتساع زاوية الانفراج بين الطريق المرسوم والطريق المطروق ، وباعدت ما بين خطوط النظرية وخطوات التطبيق .. وإذا كان قد كتب على المجتمع الإسلامي حينذاك أن يسير ، نتيجة لهذا السلوك ، على غير السنن المفروض إلى غير الغاية المبتغاة ، فإن تبعة الانحراف ، ولا جدال ، ما كانت لتسند إلى فرد أو فئة من الناس دون البقية ، بل هي قسمة بين الدولة والشعب ، الرعاة والرعية ، لأن أولئك لم

يرعوا بقوة السلطان وهؤلاء لم يقاوموا بقوة الإيمان وإن كان السهم الأوفر من اللوم يقع في جعبة دوى النفوذ ..

ولا محيص عن الإقرار بأن فريقا غير قليل من اصحاب السلطة أو الرأى قد عملوا جاهدين على تدارك الأمور في إبانها ضربا بالسطوة أو ردعا بالدعوة ، وجروا في هذا السبيل اشواطا واسعة كان أولى بها أن نرسى غد الأمة على بر السلامة لولا أن الأنفس في اغلبها ، كانت ضحلة قريبة انقاع ، وريح الأحداث والاهواء الدنيوية كانت أعنى على الاحتمال والمقاومة فتعترت السفينة واضطرب الشراع !.. فكم من صور سلوكية مشرقة أعزت المبادئ وارتفعت بها فوق طوفان المادة ومد النزوات !.. وكم من جهود توالى ، على مدى عهد الخلافة الراشدة ، لحمل الناس على التزام مضمون الدين ، قد أتبعثت عن إحساس مرهف بالتبعة ورغبة صادقة في بناء مجتمع سليم !..

فما ينسى لأبى بكر الصديق أن إيمانه العميق بالمساواة قد أبى عليه المفاوتة في التقسيم . وإن شكيمته الصلبة قد دفعته إلى نبذ دعوة المهادنة أو سياسة التهذئة ليقف كالطود الراسخ في وجه فتنة المرتدة ومانع الزكاة يقصفها قصفا بقوة يقينه قبل قوة السلاح .. وهو في كلا مسلكيه رجل الدولة الأريب الواعى الذى لا يقبل أن يداجى الاهواء أو يصانع الخطوب على حساب المبادئ ، وإنما يقارع كل ما يتصدى له ، لأنه يؤمن اكمل إيمان أن هذه المبادئ وحدها هي الدعائم القوية التى لا تبنى على غيرها عظمة الشعوب ..

وما ينكر أيضا فضل صاحبه ابن الخطاب الذى علا بإنسانيته فوق ما بشره عادة في القلوب من نزوع إلى الانحياز تباين الألوان واختلاف الأدیان ، ضاربا أروع الأمثال في التجرد وكبح النفس عن الشطط العاطفى الذى نراه دائما يستبد بالنفوس ويسوقها إلى ممالأة بنى العقيدة والجنس على كل من عداهم من الأدميين .. فهو يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدة البشر ، وكرامة الإنسان ، مهما كان ، وكيفما ذهب بها - علوا وخفضا - مذاهب الآراء التى تتمحل باللون أو تتعلل بالدين .. وهو يصدر في سلوكه ، بهذا المجال ، عن انصاف مطلق - دع السماحة الكريمة - تتسع رحابه لكافة الناس على تباير الملل

وتعدد الأجناس .. وهو لهذا لا ينوانى عن المبادرة الحازمة إلى قمع  
نزعة التمييز العنصرى حين لاح من أحد أولاد عمرو بن العاص مسلك  
شف عن هذه النزعة إذ دفعته خيلاء جاهه و سطوة ابيه إلى الاستعلاء  
— إدلالا بأصله العربى — على مواطن من المصريين .. ثم لا يتردد كذلك  
مع ما يعلم من كراهية اليهود للإسلام وذويه ، عن رعاية هؤلاء الأعداء  
الموغلين في اللدد والمسرفين في البفضاء ، فيضع الجزية عن فقرائهم ،  
وعن ضربائهم من الذميين ، ويفرض لهم ما يقيتهم ويصلح أمرهم من  
بيت المال أسوة بمسلمين ..

وما يغفل هنا ذلك الكفاح العنيد الذى اخذ ابو ذر الغفارى نفسه  
به لتحرير الإنسان من عبودية المال .. فلم تمنع الرجل زهادته أن  
يدرك ما لشهوة المال من قدرة على الإغواء يستطير بها سلطانه فلا يكاد  
ينهض له مناهض إذا ما اطلق له العنان — تماما كالنار ، تدمر وتلتهم  
إن لم تجد من يخضعها ويحصر لهبها في نطاق محدد .. فالمال وسيلة  
للنفع العام . وأصحابه أمنه عليه لإحسان إنفاقه ونوظيفه لا لتكديسه  
وتضعيفه .. فلا عجب أن ينشط هذا الداعية لنشر رأيه أينما وسعه  
أن تسعى به قدماه ، وأن يناضل دونه وإن تصدى لحربه أصحاب  
الثروات وذوى النفوذ في آن . ولا أن يمضى وما رأى متمردا على سلطة  
الدولة وجشع الغنى والتواء الأوضاع ، غير مبال بما يصيبه في هذا  
السبيل من قسوة وتشريد .. إنما ينطلق صابرا صلب العزم ، بلا تلوم  
ولا تهيب ، يحت بلسانه في دولة الذهب وفي طاغوت كنزته لكيلا تبرز  
في المجتمع طبقة فاحشة الثراء تستعلي على سواها من بنييه ، وتستطيع  
بجبروت المال أن تنفذ ، من خلال الفقر والحاجة ، إلى استذلال الناس  
بطرح الدمم والضماير سلعة رخيصة في سوق الدرهم والدينار! ..

كثرة بالغة من هذه الجهود راحت ترى نضالا عن الحق ، وتثبيتا  
لأصول المبادئ الرفيعة .. وهى تعلن أن الحرص لم يفتر قط للعمل  
بمضمون الدين عن إحساس قوى بالتبعية أمام الله وأمام الناس . ورغبة  
صادقة في السير على النهج الأمثل ابتغاء إقامة المجتمع الإنسانى السليم ،  
وأمل متفتح في التقويم ..

وكم من صور لتلك الجهود والوان صاحب الزمن ، وانتشرت



على بقاء المكان!.. وكم من نظائر لأولئك الرجال وامثال . برزوا فرادى  
وزمرا من بين الخاصة ومن صفوف الجمهور!.. وكم من كفاح مجالد  
صابر استعذب العناء واستروح الرجاء!..

ومع ذلك فلم يكف الانحراف . لم تقف حركته . ولم تخف حدته .  
بل اشتد واستطار . وأنصب حجارة وصخورا من المطامع والأهواء ،  
يقلعها ويدفعها إقبال الدنيا المتحدر كالشلال ويلقى بها في وادى الحياة  
ليظمر نحتها بقوة القلوب ..

وعلى الأيام ، تعالى الركام والحطام!..

## ٧

ما حمل امرؤ في المسامين ، عند ذاك . عبثا هو أبغض إلى نفسه ،  
واثقل عليها من الإمرة على الإمام .. كان طعمها كالحنظل . وكان وقرها  
كالجبل . وكان وقعها كالأسنة ، حتى لكانه ، حين أفضت إليه ، قد  
اكتسى مثل طيلسان من حديد مسنن ، مبطن بجرم النار!..

ولم يكن عبؤه ثقيلا لانتشار تبعته — على أديم الدولة الفسيحة  
التي يحكمها بين مشرقى الشمس ومغربيها — انتشار الظلال السارحة  
أبدا في كل آن ومكان على معالم الضياء ، كلما انبثق فجر ، أو سطع  
نهار ، أو تهادى في ربوعها الخضر والجرد أصيل .. ولا بغيا لتواتر  
الشدائد والأزمات ، وتدافع الصعاب والمشكلات ، في كل لحظة وبقعة ،  
تواتر النفس البهور وتدافعه عن جسد واهن أرهقه الإعياء .. فليست  
التبعة تقاس ، طولاً وعرضاً باتساع مواقع العمل وامتداد أطرافه .  
ولا هي أيضا تعابير ، ثقلا ووزنا ، بكثرة صورته وتنوع أصنافه .. لكنها  
نزيد وتثقل ، وتخف وتقل ، بمقدار رقة الحس ورهافة الشعور — تماما  
كالوخزة ، ليست هي التي تحدد الألم . وكالمزج ، ليس هو الذي يغير  
مذاق الفم . بل كلاهما عارضان حقيق بأحدهما ، كما بالآخر ، أن  
يفقد صفته ، ويفنى ، كيانا ، ودلالة ، في العدم إن لم يجد المجرى الصالح

الذى ينطلق فيه إلى مراكز الحس لتعكس اثره على الجوارح !..  
ولقد نشط أمير المؤمنين إلى النهوض بتبعته ، على غضاضة وضيق ،  
ليحق الحق ويمحق الباطل ، غير حافل بما يلقي من العنف والمشقة .  
كان يجتاز اللهب . ويمشى على الشوك . ويلوك العلقم . ومع ذلك فلم  
يلفته عن العمل شيء . ما تكص . ولا تمهل أو قصر خطاه . فالخطر  
يقبل . الغد يفيم ، والظلام يزحف على النور . والوقت أضيق على  
النكوص والتمهل . وهل عمله اليوم سوى امتداد لكفاحه الدائب قبله  
منذ طلعة صباه لإعزاز الإسلام ، وهو بعد غلام حتى نيفت به الأعوام  
على خريف عمره ، لولا أنه الآن قد ترامت حدوده ، وتناثرت ميادينه ،  
بين دان وشتيت ، إلى أقصى الاماد ، بعيدا بعيدا في اقطار الأرض ،  
وعميqa عميقا في أغوار النفوس ؟..

وهب يعمل . بكل ما يملك هب يعمل بقلبه . بعقله . بيده . بالسليقة  
المستنيرة الملهمة ، والراى المقنع الفصل ، والسلاح القاطع الساحق ..  
يدعو ليهدى ويعلم . وينزع ليهذب ويؤدب . ويقسو ليردع ويقوم ..  
وبين اللين والعنف ، الدعوة المضيئة والقتال المدمر ، سن القلم وشفرة  
الحسام ، عالم من الجهاد مترامى الحدود والأبعاد هو فيه الرقيق  
الحميم ، والأب الراعى ، والعلم المرشد ، والحاكم المنصف ، والقُدوة  
الطيبة الحسنة ، التى تحتذى دائما ويؤتسى بسيرها وسيرتها ، كلما  
اشتبكت على اقوامه المسالك ، واشتبهت المناهج ، ودعتهم الحال  
للاقتداء بمثال ..

ومن الإفاضة فيما لا تجمل الإفاضة فيه إذ يغنى الإيجاز ، أن  
يسترسل الحديث عن الإمام كأخى قتال ببز بسيفه الأقران في ساحة  
الوغى ، حنكة وشجاعة ، إن كان له في مجالات الصراع الدموى قرين !..  
فما كان شيء أحب إلى نفسه من مخاطبة القلوب والافهام . من السعى  
للسلام بالسلام . من اللقاء بالكلمة . من الحرب البيضاء !.. ولا كان  
شيء أبغض إليها - وإن كان أخف عليه ، وأهون مؤونة - من التجيش  
والإعداد . ومن قيادة الجنود . ومن الإقدام قبل الإحجام . ومن  
الصبر عند اللقاء . ومن الكر وسيلة للدفاع . ومن مطاردة الموت أينما  
بدت له أطيافه أو تكتلت صفوفه ، تحديا له ، واستهانة به ، وازدراء

لجبروته الرهيب الذى يخلق الفلّوب مقتحما عليه عقر غابه لينزاع  
الظفر من انيابه !..

كان يؤثر السلم ولا يعدل عنه ما وسعه أن يصل إليه من سبيل ..  
فالحرب لم تكن له شاغلا كما لم تكن ملهاة وإن ألفها دائما حقيقا وفيها  
لا بغدر به ، ولا يخرج عليه .. ومع ذلك فقد كان ينبو بها كل نبو  
لأنها ، في قرارة يفينه ، أهون جهاد . وكان يبرم بنصرها العالق أبدا  
بذؤابة سيفه لأنه ، فيما يحس ويشيم ، أرخص انتصار !.. إنها  
الباب الذى ينبى أن بوصل بالف رتاج ورتاج .. وهى الكى الذى  
لا يستطب به كدواء إلا إذا استعصى الداء على كل علاج .. وهى الأداة  
التي قد تقهر على الانصياع بغير اقتناع ، وعلى الإذعان بلا إيمان !..  
أما السلم فدني من الهدوء والطمأنينة ، يقر فيها القلب ، وتأمين  
الجوارح ، ولا تطفى على صوت العقل قعقة سلاح .. فكانها صومعة  
واهب ، هو التأمل !.. أو كأنها حلبة سبق ، المنافرة فيها بالفكر ،  
والمصاولة بالرأى ، والغلبة بالبرهان !..

حتى في ساحة الحرب كانت « الكلمة » تسبق الحسام . ثم تلازمه .  
تم تقطع القتال ، أحيانا ، لتنفرد دونه في الميدان .. كانت الدعوة ،  
بالحجة البالغة والموعظة الحسنة ، أول سلاح ، وأهم سلاح .. كانت دائما  
حاضرة مشهورة ، مصقولة مسلوقة ، تجول في الواقع وتصول بغير  
فتور ولا قرار . لا تعرف غمدا تنوب إليه ، ولا هدنة تهدأ فيها وإن  
طالما ، في غمرة الوغى ، وضعت الأسنة ، وعرفت السيوف الأغمد !..

ويوشك الاستطراد أن يطول حتى ليصبح مثل ضرب من المحال ،  
أو تعقب المرء دعوة الإمام ، محاولا حصرها في نطاق محدود من  
مقتضيات الحكم في عهده ، ودواعى سياسة الأمور إذ هو أمير ..  
فلبست كذاك .. بل هى أوسع رقعة وأفسح مجالا ، اتساع الحياة  
البشرية ، أمة بعد أمة ، على أدب هذه الدنيا ، وانفساح الزمان ، عصرا  
وراء عصر ، على مدى الدهر .. فإن هى إلا رسالة حياة ، تساير  
التطور ، وتهذب التغير ، وتتجدد على الأيام مع مشرق كل نهار ،  
وسكون كل ليل ، وظهور كل بادرة تعلن عن تجدد الحياة !..

رسالة كاملة شاملة . لليوم وللغد . للحاضر والمستقبل . تنشد

عن حكمة تدفق من ذهن مخصب رواء نبع النبوة ، ويخفق بها قلب  
نقى جللاه فضل الرسول .. فوق متنها كان يدرع دائما مجاهل  
النفوس وخبائياها . ذرع عليم خبير ، ليكشف عن مكامن المرض  
وخطره ، ومواطن النقص وأثره ، باليد البارة الصانع ، وبالقدرة  
المحيطة التى لا نخطئ التقدير . وعلى جناحها كان يحلق أبدا في آفاق  
من نور الله ، نهىء له أن يقلع الشبهة ليغرس اليقين ، ويمحو الجهالة  
لينشر المعرفة ، ويبنى الكمال حيثما كانت فجوة . ويضع الشفاء حيثما  
كان داء !.. وهل من عجب ؟.. فمحمد مدينة العلم ، التى أهداها الله  
للإنسانية ، وعلى بابها الذى يقضى إلى ما تضم من كنوز وذخائر ، بها  
تستضىء العقول ، فتصفو الأنفس . وتنقى السرائر !..

هدى من هدى ، ونور من نور كانت الدعوة التى أخذ نفسه يثبها  
بين قومه ، لا يسكت عنها في شدة حرب ، ولا في هدأة سلام .. كانت  
تتردد مع انفاسه .. كان يحييها ، ولها كان يعيش .. وفي خلال أعوام  
عهده القلائل ، لم يكن شئ يعوقه عن تبليغها حيثما استطاع ، بالكلمة  
المكتوبة ، أو الكلمة المسموعة . في كتبه إلى عماله ورجال دولته . في  
خطبه إلى الجماهير والجموع . في أحاديثه اليومية مع أهل بيته ،  
وخاصة رفاقه ، وعامة الناس .. وحين نتقصى منها ما خطه قلمه  
أو لفظه لسانه ، نراها تلم بكل جوانب الحياة ، وتعرض لكافة نزعات  
الإنسان .. فهي تقابل الخلجة ، وتتداعى للخفقة ، وتتحرك للفكرة ،  
وتسرع للحاجة . ثم تبادر بعد هذا التفهم الواعى إلى علاج مواضع  
الخلل والقصور ..

وعسير بلا ريب أن نحيط في مقام كهذا المقام بما تضمنته هذه  
الدعوة الهادية لأنها عندئذ الإحاطة التى تضيق دونها الصحائف ،  
وتعيب الأقلام . ولكننا نصغى لجرسها فإذا هى أصداء لرسالة السماء .  
ونذرع رقعتها فإذا هى خطة عمل ، وسياسة أداء .. وحين نطوف  
بما تحوى ، نقع فيها على كل ما يصلح الأمر والشئ - الشطر المعنوى  
والشطر المادى من حياة البشر ، من قواعد وأسس هى أولى بأن تكون  
الدعامة الركينة للمجتمع الإنسانى الفاضل ، الذى تربطه وحدة بلا آفة  
لانفصال ، وتسوده مساواة بلا تمايز ، وتقوده عدالة بلا ترخص ،  
وتظله أخوة بلا من . فلا أثائية فرد ، ولا طغيان سلطة ، ولا استكبار

طبقة . بل جسد واحد يملك وتناق نفسه ، متوحد المساعر ، متوافق الحركات ، تعمل أعضاؤه جميعا في تكاتف وتعاون ، وفي تعاطف واتساق ..

ولا يقال في هذا المجال إن الإمام كان مبدعا لما نشر وأذاع على العيون والأسماع . بل هو نقل من الذكر ، وعارض لما أورده التنزيل .. فما كان ليبتكر ، أو يأتي من لدنه بجديد يضيف إلى ما شرع الله ، أو يغير فيه .. وليس قصاراه - ولا قصارى غيره من العقول البشرية، مهما بلغ شأوها من الإدراك والعلم ، وبلغت قدرتها من الاستشفاف والاستبصار بأمور الدنيا ، وفي تقلبات النفس - أن يعدل ، بزيادة أو تكميل ، في ذلك القانون الإلهي . الذي يحيط بكافة جوانب الحياة . وينظم السلوك الإنساني على خير ما يكون التنظيم .. إنما كان له ، في حقيقة الحال ، جهد الدارس الباحث ، الذي يفوض بوعيه المقتدر إلى الأعماق ليستخلص الدر من الأصداق .. فهو يرجع إلى كتاب الله ، ويتابع سنة الرسول ، ويتعمق كليهما ، بذهن ناقد وبصيرة مسنيرة ، منقبا عن المبادئ التي تناول ، من قريب أو بعيد ، كل ألوان النشاط البشري ، في مختلف مواقع العمل وميادينه . حتى إذا نفذ منها إلى هذه الغاية ، تفحص حكمتها بنظرة الاقتناع العقلي لا بنظرة العاطفة التي قد تميل للتسليم .. وقاس أثرها بمقياس الواقع الذي يعيشه ، والشواهد التي أسفرت عنها من قبل تجربة النوع الإنساني منذ سعى على هذه الأرض لغرض ، والتأم آحاده في دول وشعوبية .. ومن خلال المبدأ وحكمته ، والتجربة ونتيجتها ، كان يصل إلى معايير سليمة للعمل ، يصنفها كصنوفه ، ويعرضها واضحة ليتبعها من شاء أن يسير على صراط سوى ، وجادة مستقيمة ، مطابقا سلوكه على ما يرضى ربه ، ويظهر قلبه ، ويصلح شأنه ، ويرفع أمته ، ويعز كرامة الإنسان ، روحا وبدنا ، كما ينبغي أن يكون الإعزاز ..

وتيسيرا على الناس ، وتطويعا لهم ، لم يغيب عنه قط - وهو يعرض ما يعرض - أن يستخرج من حياتهم العامة ، ومن عملهم اليومي ، كل ما يجدر بهم إخضاعه لهذه المعايير . فكل مبدأ لحكمة . وكل حكمة لغاية . وكل غاية بسلوك . وكل سلوك بمعيار .. فلا سبيل إذن لأن

يقوتهم شيء فتكون لهم عليه حجة . ولا ان يشتبه امر فتتفرق بهم طرق التطبيق . .

بهذا النهج السليم الميسر ، حدد ورسم ، وبين وبلغ ، مترجما نصوص الدين إلى مضمون ، ومضمونه إلى أسلوب حياة . . فإذا هو عندئذ قد أحاط بطبيعة البشر : غريزة وأملا وحاجة . وبطاقة الإنسان : خفقة وخلجة وحركة . . وإذا بدعوته التي وسعت الإنسانية ، قد التقى في رحابها لكل عقدة حل ، ولكل خطأ تصويب ، ولكل ضيق فرجة ، ولكل علة علاج . .

## ٨

إلى القمة التي لا يستطيع أن يرقى إلى شأوها ذهن متحرر ، خلقت الدعوة الإسلامية بقيمة الإنسان . . فقد تنادت بوحدة البشرية . ثم كرمت أبنائها . ثم صورت حياتهم في هذه الدنيا سادة يملكونها ولا تملكهم ، ويصرفون كل ما فيها على ما يحفظ لهم هذه الكرامة أبدا لو ترسموا النهج الذي شقته ولم ينحرفوا عنه . .

ولقد يسر الإمام هذه الدعوة للناس خطة وهدفا ، أسلوبا وغاية ، بالفعل والقول ، بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال . فإيمانه الكامل بتلك الوحدة ، هو الذي كان ، في كل آن ، يرهف حسه ، ويشحذ قلمه ، ويحرك لسانه لتنتلق عباراته على جلاء ، تدعو بالدعوة ، وتروج لها ، وتؤكد دائما أن الوحدة - المفترضة والمنشودة - لا شبهة فيها ، ولا عائق دونها ، ليس فحسب عن استجابة عقيدية لما شرعه الإسلام ، بل عن إدراك لكنه الطبيعة ، وخضوع لمنطق العقل واستقامة التفكير . . فإينما جالت عين فيما سطر ، وأصغى سمع لما قال ، وأمعن ذهن بالاستقراء والتفهم فيما وراء الحرف والجرس ، بدت له وحدة الإنسانية وهي على شمول ولزوم ، بلا مكان لتمييز فرد ، أو تعالى طبقة ، أو اعتزاء عنصر ، وبغير ترخص أو التواء أو استثناء . .

فالبشر كافة في رحابها سواء وإن تباينوا بالأجناس ، وتفاوتوا بالأحساب ، واختلف آحادهم بالأقدار في نظرة المنصب ، أو المعرنة ، أو المال ، لأنهم كما يقول :

« .. إما أخ في الدين ، وإما نظير في الخلق .. » .

وتلك هي الوحدة الوثيقة التي لا يتطرق إليها انفصام ..

فلو زعم زاعم أن هذا الرأي الذي يسوقه الإمام يجرد الدين من حقه في ترجيح الميزان عند المفاضلة بين إنسان وإنسان ، فإنه إذن زعم متعسف ، يلتوى بالموضوع ليتخطف نتيجة لا تسفر عنها حقيقة الحال .. فالإسلام لا يهدر المساواة ، وما كان ليهدرها وهو القائم عليها لأنه قائم على الفطرة التي يشترك فيها كافة أبناء آدم ولا يمكن أن تختلف فيهم من واحد لآخر وإن اختلف - دونها - كل ما عداها من خصائص وصفات .. والإسلام إذ يفاضل بين الناس لا يفاضل بالأبشار والألوان ، ولا بالأحساب والأنساب ، بل يفاضل بينهم بمعيار ثابت هو العقيدة التي شرعها لهم كافة على سواء ، فيغاير في الجزاء بين مؤمن وكافر ، طائع وعاص ، حسبما يكون قربهم وبعدهم من الله .. بل شرائع الجزاء نفسها التي وضعها ، من عقاب وثواب ، لحساب البشر ، لا تترتب على شخص الفاعل بل على موضوع الفعل ، فتزن لهم جميعهم بقسطاس واحد ، لا يبخس أحدهم ليطفف للآخر ، لأن عدالة الجزاء لا يتأتى أن تتحقق إلا بهذه المساواة ..

صدقت إذن نظرة الإمام ، وأصابته الحق كل الحق بغير تحيف منها على الإسلام ، وبدون ثغرة فيها لظعن طاعن أو لريبة مرتاب .. وفيهم الطعن ؟ .. وكيف المراء والارتياح لمن لعله يحاول تلمس سبب للدعاء والتقول ، والمساواة أصلاً لم تترتب على الإسلام ، ولم تكن نتيجة له ؟ . بل قد كانت - قبل تنزل نصوصه ، وبدء دعوة الرسول - حقيقة واقعة نشأت في الدنيا بنشأة الإنسان ، ثم جاءت هذه الرسالة السماوية كاشفة عنها ، مذكرة بها ، داعية إلى التزامها وامثال جاداتها بعد أن غم أمرها على البشر ، وقست عليها قلوبهم ، ومزقتها الأهواء ..

ومن الترسل الذي لا يحتمله المجال أن يتطرق الحديث إلى كنه

هذه المساواة ، مخططا حدودها . محددا معالمها ، معددا ما تحتويه من عناصر ومقومات .. فعمومها وشمولها يكفيان الاسترسال ، ويجزيان عن التحليل ، ويفنيان عن التخريج والتأويل ، إذ يكشفان عن حقيقتها جلية بغير حاجة إلى عناء الوصف والتحديد ، وجهد الإحصاء والتعديد ، لأنها - وقد صاحبت البشرية منذ بدئها ، مقترنة بالفطرة - تنسع لكافة أبناء النوع الإنساني ، وتطبع حياتهم بطابعها ، فلا تدع حقا من الحقوق يترتب على هذه الحياة « المشتركة » ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، إلا سوت بينهم فيه ..

وحق الحياة من المسلمات الأولية التي لا يمكن أن يختلف عليها ، ولا نقع في نطاق المجادلة والنقاش ، لأنه يمثل الحياة نفسها ، بمعناها الإنساني ، وينطوي على العناصر والمقومات الأساسية لهذه الحياة .. فالحياة هبة الله وهي بهذا حق مقدس للإنسان ، لا يملك انتزاعه غير معطيه ، فلا ينبغي إذن لإنسان آخر أن يحرمه إياه ، أو ينتقص منه ، إلا أن يأذن الله .. ولا يخلق بكل ما يدخل في تكوين هذا الحق ويؤمنه إلا أن يكون مقدسا مثله ، وجديرا بالحماية أن ينال منه جور جائر بالإهدار أو الإنكار ..

ولقد يختلف بعض اختلاف على مكونات حق الحياة تبعا لتطور العصر ، أو تنوع البيئات ، أو تفاوت التقدير ، فلا يكاد هذا كله يغير شيئا في الأساسيات والأصول وإن غير ، قليلا أو كثيرا ، في الجزئيات والتفاصيل . وحسبنا هنا أن نذكر - على وجه الإشهاد لا على وجه الإحاطة - أن الإسلام لم يكتف بإقرار هذا الحق ، تعبيرا عن رايه بسيادة كل فرد على حياته سيادة المالك الذي لا ينازع ، بل ذهب في توطيده وتثبيته ، وفي تحرير الإرادة الإنسانية لتمارسه كما تشاء ، إلى أبعد الحدود . فلقد أباح - وهو الدين الذي نسخ كل الأديان - أن يتدين الإنسان بما يرضى ويختار من عقائد وإن خالفته ، لأن لكل امرئ أن يحدد بنفسه ، وبوحي ضميره وتفكيره دون سواه ، نوع الصلة التي تربطه بالله ، بلا إكراه أو وصاية عليه ممن عداه من الناس ، كيفما كان وضعهم في المجتمع وكان شأنهم من القوة وبسطة النفوذ .. هذه هي نظرة الإسلام إلى حق الحياة ..



نظرة منصفة سمحة ، توافق منطق الطبيعة ، وتمضى في التحرر إلى شأوه الذى يقصر عن بلوغه تطلع العقول وطموح الأفكار .. فهى ترسى المساواة بين الناس في انتفاعهم بحق الحياة على أساس الفطرة الواحدة التى لا تختلف من إنسان لإنسان . وهى تطلق لهم حريتهم في ممارسة هذا الحق إلى المدى الذى قد ينبون عنده اعتناق الدين القيم الذى أعزهم بتقرير هذه المساواة .. فإذا لم يكن في هذه النظرة ما يؤكد « عمومية » هذا الحق ، ثم يضمن « حرية » تطبيقه ، فأى شيء غيرها إذن أقدر على التوكيد والضمان ؟ ..

بل الحياة حق بشرى عام ، مقرر بحكم الطبيعة ، مكفول بحكم الإسلام . لا سبيل إلى المفاوطة فيه بين أصحابه بالانحياز أو بالتمييز . ولا إلى تعطيله - كلا أو جزءا - بانتزاعه أو بإهدار جانب من ضماناته أو مقوماته .. فأما ودين الله قد أقر بهذا الحق ، وحرر العمل به وإن على حساب العقيدة ، فالأخلق الأدنى إلى مطابقة نهجه والتزام منحاه ، أن يقر بما ينبى على حق الحياة من حقوق ، وأن يتسع لما دون حرية العقيدة من حريات ، لأن ما يقضى بالكل لا ينكر الفروع ، وما يحرر الصلة بالله لا يقيد الصلة بالناس ! .. وليس بخاف رأى الإسلام في تأييد الحريات العامة والحقوق الأساسية التى تهىء للبشر - في المعنويات والماديات - حياة أبية كريمة ، لهم عليها الولاية . يعيشونها كمشيئتهم ، بالفكر الحر ، والإرادة الطليقة ، في ظلال من الأمان من الخوف ، والحماية من الحاجة ، والوقاية من الاستغلال ..

حق هو الحياة ، وحياة هى الحرية ، وضمان من الله يحيطهما بالسياج المنيع الذى يرد عنهما عادية العبث والطفيان والإرهاب ، ذلك ما شرعه الإسلام ، ودعا إليه ، بالنصر والمعنى ، وبالعبرة والروح ..

ومع هذا فلا نرانا بحاجة إلى أن نعيد كل من له عين تبصر ، وأذن تسمع ، وذهن يتدبر أن يستخفه من هذه النظرة الإسلامية إلى حقوق الإنسان طلائعها السمحة ، فيجمع به وهمه أو همته إلى تجريدها من العقول والضوابط ، ومن الحدود والقيود .. فذاك ما لا تقره بديهية ، وما يأباه منطق الحياة ، لأنه إذن الفوضى التى تراق فيها الحقوق وتستباح الحرمات .. ولأنه الانطلاق ليس الجموح .

والتحرر ليس التحلل .. ولأن كل حق بواجب . وكل حرية بالتزام ..  
وحملة واسعة من الدعوة الهادية شنها الإمام ، بالقُدوة الرائدة ،  
وبالكلمة الناطقة ، وباللفظ المخطوط ، ترويجا لهذا المبدأ العام ،  
وتبصرة للناس بحقوقهم فيه ، وحقه عليهم . وبالجِدوى التى يفيئها على  
جوانب حياتهم الإنسانية ما اتصل منها بحاجة الفرد ككائن حى ،  
وبكرامته كإنسان .. ولم يكن من قبيل التزيد والإسراف اهتمامه  
البالغ بتوجيهها إلى ذوى النفوذ من أصحاب الرأى ورجال دولته ،  
في مجالات الفكر والحرب والسياسة وشئون الدنيا والدين . ولا حرصه  
أن يعوا دقائقها ، ويلزموا حدودها ، في حياتهم الخاصة مع أنفسهم  
وذويهم ، قبل أن يلزموا بها ، في الحياة العامة ، من تحتهم من الناس ..  
فهذا هو السلوك الأمثل الذى لا ينبغي للقادة أن يسلكوا سواه ، لأنه  
السلوك الذى يعبر عن إيمانهم حق الإيمان ، ويسنوي كل من وراءهم  
أن يقتفوه .. وهو الإيمان الذى لا يطاوله إيمان ، لأنه يرتقى بصاحبه  
على انقراض الأثرة والهوى إلى ذروة التجرد ، ويدفع به إلى الأخذ من  
نفسه ليزيل لغيره وإنه للقادر عندئذ ، بسلطانه على كل من عداه من  
أبناء مجتمعه ، أن يضع نفعه الذاتى حيثما كان يطيب له أن يفعل  
لو أنه شاء .. فلا عجب إذن أن يحث الإمام الناس عامة - نصرة  
للمساواة - على أن يفوها حقها فلا يستذلهم هواهم أن يكيلوا في  
تطبيقها على أنفسهم بمكيال وعلى الآخرين بمكيال !! ..

هنا يقول على التعميم :

« أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله .. » .

ثم يخص بدعوته كل ذى نفوذ :

« الزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، واقعا ذلك من قرابتك  
وخاصتك حيثما وقع .. » .

ثم يقرن بين هذا الانتصاف - للناس جميعا ومنهم جميعا على  
سواء - وبين الانتصاف لله .. وهل من مرء ..؟ فكلاهما حق .  
وكلاهما من نبع واحد هو الإسلام ، وإذا لم يتفق ، بالمساواة ، سلوك  
البشر بعضهم إزاء بعض ، ونظراتهم أحادا إلى أحاد ، لم يستقم

أمر الدين . وأحر إذن بسلوكهم تجاه الله أن يتعدد ويختلف ، وينظراتهم إليه أن تتفرق وتزيغ . . وهل من وراء هذا وذاك غير اعتداء على حق الإنسان هو ظلم ، وغير اجتراء على حق الله هو عصبان ؟ . . يقول :

« أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك هوى فيه من رعبتك ، فإنك إلا تفعل تظلم . . » .

نهج أحق بقيادة العمل أن يتبعوه إذ هم القدوة للناس ، والطلائع التي يسرون خلفها في كل موقع إلى نوع الحياة الذي يلائم طبيعة البشر ، ويتفق ونظرة الدين . وما لم يكن سلوكك أولئك على هذا الصراط السوى فسلوك كل من وراءهم تبع له على انحراف يفسد به المجتمع لاختلال الصفوف ، وانفراط النظام . .

على القادة ركز الإمام التوجيه ليكونوا : مبشرين برسالة الحياة الحقة كما سنتها الطبيعة ، أمانة على كنهها كما بينه الإسلام ، بعد أن أوшك مفهوم الحياة الميسر ، ومضمون الإسلام البين ، أن يفرقا في سيول هوج ، وتيارات رعاء من الهوى والجهل ، بجسها التأويل المغرض من خلال التلاعب بالعبارات والنصوص . .

ولقد بدا الإمام - : ريب - خبيرا بنفسية المجتمعات وهو يركز هذا التركيز . فالجماعات مطبوعة دائما على التطلع الى كل ما هو « أعلى » . كلفة دائما بالتلقى عنه ، ثم تأثر خطواته السلوكية ، تشبها به ، واتباعا لنهمها الطبيعي بالمساواة . وليس شيء أقوى على التأثير في سلوكها من نزوعها الغريزي للتقليد . .

وكان القادة ، بطبيعة الحال . من العمال وذوى الرأى وأصحاب السلطة الزمنية في الدولة ، هم مرتقى التطلع الذى تتعالى إليه نظرات الجمهور ، ويحاول سلوكها أن يتسامى إلى سلوكه ، فراح الإمام يرسم لهم أسلوب عمل ، كفيلا إذا امثلوه أن يصلحوا به . ويصلح عملهم ، ثم يتداعى له - بفريزة التقليد والانقياد الجمعى - سلوك الجمهور تداعى الفراش للتور . .

إنه الأسلوب الذى ينظر إليه من خلال الفطرة الموحدة ، فإذا هو ناضج بها ، موافق لسنة الطبيعة .. ومن خلال الدين ، فإذا هو آخذ عنه ، معبر عن مضمونه .. ومن خلال العلاقات الاجتماعية ، فإذا هو قاموس أخلاق . وهو بشعبه هذه الثلاث : الطبيعية والدينية والاجتماعية نابع من المساواة ، مقيم لأركانها ، مصدق لكل ما يفصح عن حقيقة كنهها كنزاة وحيدة لالتقاء البشر كافة - على تباين الأوضاع والطبقات ، واختلاف الأجناس والعقائد - في وحدة وثيقة بلا انفصام .

ويعبر الإمام في سر عن المساواة المنشودة ، فيحدد الأثرة آفة لها تعرقل نموها ، وتذهب بريحها ، وتقضى على الأمل في قيام المجتمع البشرى التكامل ، لأن الأنانية أو حب الذات تجمد إحساس المرء بكل من عداه ، فلا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يقيس الأمور إلا بمقياس منفعتة الخاصة وإن أهدر بهذا منافع سواه ..

يقول الإمام في كتاب لبعض عماله :

« إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة .. » .

والناس كلهم ، بطبيعة الحال ، سواء في حقوق الحياة ..

نم لا يفوته ما تنطوى عليه النفس البشرية من نزوع إلى التفوق ، كثيرا ما يشطح بصاحب أى منصب عام إلى التسلط ، تباها بقدره ، وإظهارا لقدرته ..

إلى من قد تحدته نفسه بالاندفاع إلى هذا المنزلق ، يكتب الإمام في وصاياه ، محذرا الاغترار بالنفوذ :

« لا تقولن إنى مؤمر آمر فاطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة

للدين .. »

فليست السلطة تسلطا وطغيانا ، ولكنها وظيفة لصون الحقوق ،

ولا طاعة لها إلا في هذا النطاق ..

بل كاد يوحى في كتاباته أن المتسلط على الناس قرين المشرك بالله ،

لأن سلوك أمثال هذا كسلوك أمثال داك ، ينم عما قر في روعهم من شعورهم الغلاب بانطلاق مشيئتهم انطلاقاً لا تكفهم عنه قوة ، فلا يردهم شيء عن السدور في تجبرهم بالقول وبالفعل على من دونهم مكانة ، بلا تعقيب معقب أو محاسبة حسيب . . أو قد انساهم الشيطان أن لله وحده التفرد بانطلاق المشيئة ، بغير معقب على كلماته ، ولا ناقض لأحكامه . . أم عساهم استمروا أن يشاركوا الله سلطانه على مصاير عبادته استهانة بهم وجحوداً له . . ؟

مخافة الانخراط في سلك هذا النوع الذي يضلّه اغتراره ، ويعميه استكباره ، يبعث الإمام ، محدراً . إلى بعض عماله :

« إياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته ! . . » .

ثم يجاهر بدهشته أن يتعالى الإنسان صلفاً وتيهاً بنفسه وليس فيه ما يدع للاستعلاء ، أو يبرر الخيلاء :

« عجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ، ويكون غدا جيفة ! . . » .

لكنه إذ يعجب ويحذر ، يبصر وينور ، لأن ما لا يغيب عن نظرته الثاقبة وبصيرته المستنيرة قد يغيب عن إدراك سواه . فإذا هو لا يكتفى بأن يدع الناس وهذا السلوك الذي دلهم على انحرافه ، وبين لهم عتوه وغلوه إذ يستخفهم إلى التسلط ، بغير حق ، على بشر مثلهم هم لهم اتداد نظراء . بل إنه ليقرن وصف زلتهم الضالة بما لا يملأ لها في التمكن ، وما يكف شرتها عن الاستشراء لو ألقوا السمع والقواد لقوله منصفين . . وهل تجبرهم غير ضلال ؟ . . وهل زهوهم إلا علة تفنرس النفس ، تواتها كلفهم المنهوم بالاعتداد ، وإقبالهم المسف على الاستكثار من الثقة بالذات إلى حد التخمة التي تورث الغرور ؟ . . وهل يغذى الاغترار وينمى ضراوته شيء كثناء مسرف خداع هو في حقيقته الوسيلة الوحيدة لكل عاجز وخائف ومنافق إلى حماية نفسه من أي طاغية متجبر أو استجلاب رضاه . . ؟

لكم تفيض الحياة اليومية بصور لهذا الثناء المضل الضال ، تمر تحت الأعين فلا تكاد تقف عند إحداها نظرة عجب — دع الاستهجان ! — إنما ، لفرط تعددها ، ونوالى مرورها ، قد اعتادها الناس ، وغدت

في حياتهم شيئاً مألوفاً لا يستحق أن يثير الفضول !! . فكأنما التمويه قطعة من طبيعة الإنسان !! . وكأنما النفاق بضعة من عمله !! . وكأنما الإطراء المنحرف يشيع في الجو فلا يملك أحد من البشر إلا أن يتنفسه - رضى أو كره - ويتمثله ، ليعيش عليه ، تيهًا وعجبًا ، أو تحاميا وخشية !! .

لكن الإمام ينزه إنسانية البشر إن يمتنها هذا الضعف الخلقى ، فيرسم لنا صورة حية بتقابل على ديباجتها انرياء والتعفف تقابل الظلال والأضواء . . فيها انرياء يستدل صاحبه حتى ليهوى إلى ما تحت الأقدام متمسحا بها ، كأنما قصارى طموحه أن يلحق التراب، فإذا هو عندئذ ليس بإنسان ، بل الهوان في هيئة إنسان !! . وفيها التعفف يرفع صاحبه محلقا به إلى ما فوق شهوة النفس ، فإذا هو الأبى القوى على الإغراء والإغواء ، الذى يكرم نفسه أن تستمرىء الصلف أو تلوذ بالهوان فيكرم فيها نوع الإنسان . .

صورة من سلوك البشر في كل مجتمع وكل زمان ، ينتزعها الإمام من واقع حياتهم اليومية ليضعها - بغلواتها وتدليها - في المسامع والأبصار مثلا نابضا لضعف النفس : بالغرور كيف يكون ، وبالتدلل كيف يكون . . ثم يعتصر دلالتها ، ويستخرج حكمتها فإذا هى الدرس الذى يهذب النفوس ، ويروض الطبائع . والدعوة العملية التى تؤكد للناس أن الحياة ليست بحياة إن لم يعيشوها جميعهم ، حاكما ومحكوما ، كبيرا وصغيرا ، وهم سواء ، كرماء وأباة . . فما الثناء برياء ، ولا الطاعة بتدلل ، ولا الولاء استخذاء . . وما القوة بتجبر ، ولا التواضع بضعف ، ولا السلطة خيلاء .

وهذه هى الصورة الناطقة بكل ما فيها . . بما يعرض للعين من أخلاط الألوان وعممة الظلام وإشراق الأضواء . وبما تلقف الأذن من جرس النبرات ووقع الهمسات وخفق الإيماء :

رجل سولت له نفسه أن ينفذ إلى الرضا والحظوة ، أو إلى الأمان والسلامة من اقصر طريق شقه البشر ، ومن أوسع باب فتحوه والفراولوجه ، طوال تاريخهم على وجه الدنيا ، إلى هذا المأرب أو ذاك ، فلا يتردد أن يخف - وهو واهم - أو عالم - إلى الإقبال على أمير المؤمنين،

متمسحا به كالهرة كمألوف عادة المحكومين مع الحكام ، مشيدا بقدره ،  
معددا مناقبه وشيمه ، متغنيا بمكارمه وسجاياه .. إنه ليمدح  
فيطنب ، ويشنى فيغدق ، ويطرى فيفيض .. حتى إذا بلغ شأو حديثه ،  
وأفرغ ما في جعبته من بضاعة بيانه المنمق الأخاذ ، ثم حسب أنه  
استحق الجزاء الذى تطيب به نفسه ، فجأته من الإمام نبرة قاطعة  
حادة ، جمعت اللوم إلى الإنكار ، والرئاء مع الازدراء ..

كان الجزاء الذى تلقاه :

« أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك ! .. » .

وعندئذ تبعثرت قرابين الملق ، وتناثرت آلهة الاغترار ، خطاما  
تحت الاقدام ! ..

حكمة وقدوة ..

حكمة تؤكد إيماننا بمبدأ ، وقدوة تجسد هذا الإيمان ، تتلازمان .

فليس بالدعوة وحدها يعيش مبدأ . وليس بالمبدأ وحده تصلح  
حياة .. وإنما لا بد من سلوك جاد يعبر عن القول بالعمل ، ويجسد  
المنطوق في تطبيق . وما من أحد هو أولى من الدعاة الرعاة بهذا  
السلوك القوال الفعال الذى يغرى من وراءهم بالتزامه لانه يروج  
للمبدأ ، ويثبت أركانه ، ويجعل منه سياسة عامة للدولة وأسلوب  
حياة يعيشه أبناؤها وليس مجرد إيمان أخرس تكنه الأفئدة ، او لفظ  
أجوف تهدر به الشفاه ! ..

ولا يغفل الإمام عن ترديد خلاصة هذه التجربة على من بيدهم  
مقاود الأمور من رجاله في الولايات والأقاليم وفي مراكز السلطة أينما  
كان لدولته سلطان ، لأنهم أحق الناس في مجتمعاتهم بإلزام أنفسهم  
امتثال السياسة المقررة التى شرعها الدين أسسا ومبادئ أو فصلتها  
الدولة فروعا وأجزاء . وكم أوضح لهم . وكم أمر ان يتجنبوا الانزلاق  
على النفوذ إلى التجبر ، وعلى الثناء إلى الاغترار ، وعلى كليهما معا  
إلى طغيان الفردية التى لا تعيش إلا على دم الحريات ! ..

وها هو ذا لا يقتصر فيما يوصى به عماله على تزهيدهم في ثقل

الإطراء . بل يحاول أن يحاجز بينهم وبينه بأن يسد عليه سبيل التسلل إلى نفوسهم من خلال طائفة من المشيرين هم أخلق بأن يفتنوا في إرجائه من ألف باب وباب ..!

تلك طائفة الخاصة من البطانة والأعوان ، الذين يعيشون عادة على زهو الحاكم كما تعيش الديدان على جيفة ، ويبنون حوله بأرائهم وأجسادهم سورا منيعا من التمويه ، فيه يسمع بأسماعهم ، ويرى بأعينهم ، ويفكر بعقولهم ، وتطيب نفسه المخدوعة بحياة هي الوهم ، بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس ..

من أولئك يحمي الإمام كل عامل من عماله فيدعوه الا ينقاد لهواه عند اختيار مشيريه ..

يقول :

« استعملهم اختبارا ، ولا تولهم محابة .. » .

ولا يكتفى بتزويد الولاة في الثناء المسوق من قبل هؤلاء ، بل يحثهم أيضا على تهجينه لرعاياهم من عامة اهل الإقليم ، ومكافحته في سلوكهم كما تكافح الموبقات ! .. فيكتب في إحدى رسائله لبعض عماله يأمره أن يرد من قبله من الناس عن إطرائه لكيلا يفتربه الغرور :

« .. ورضهم على ألا يطروك . فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدنى إلى الغرة .. » .

بل يأخذه بالإصغاء للصرحاء ، الذين لا يموهون ولا ينافقون ، وبتقديمهم في مشورته ومجلسه على من عداهم ، وإن ضاقت عادة بالنقد صدور الحكام :

« .. وليكن أثرهم عندك أقولهم بحر الحق ! .. » .

ولا مراء ! ..

فالثناء في اغلب الأحيان — إن لم يكن على الدوام ! — وسيلة لإخفاء رذيلة أو لتضخيم فضيلة ، تنتهجها النفوس الهشة جنوحا من الرائل إلى مدهانة المردول أو استجلابا لرضا الفاضل على المفضول . فهو



إذن مركب هوى ، وليس بأسلوب صدق لإبداء ولاء أو تعبير عن تقدير .  
أم لا ، وإنه لمن ضعيف نقوى . من صاحب حاجة لمالك أمره . من حاكم  
لمحكوم ؟ . . . أم يستطيع ، وهو المرفوع ممن هو أدنى إلى من هو أعلى  
منه ، أن ينطق بالحق الخالص ، مترجما عن حقيقة الأوضاع ، أو مفصحا  
عن مشاعر مزجييه ؟ . . . أم أخلق به واليق أن يجيء كتلة من النفاق  
والزيف والتدليس ؟ . . .

أخرى به ، في مثل هذا الموقع ، أن يحق الباطل ، ويبطل الحق ،  
لأنه لن يكون عندئذ إلا أداة نفع لصاحبه أو مطيته إلى نجاة . . . فإذا  
دعا الإمام رجال دولته العاملين من لدنه على الناس إلى العدول عن  
الإصغاء للإطراء إلى الإصغاء للمصارحة فهي الدعوة الكفيلة بأن تكف  
عادية الخيلاء وتحسر مد الطغيان ، لأنها تصد الرياء فتقلم أظفار  
الاغترار . . . وهي الدعوة العاملة على تكريم العقل وإقامة الشورى  
وتوطيد حرية الراى لأنها تفسح للنقد فتهدر استبداد الفردية ، وتحفظ  
للشعب المحكوم حقه في مناقشة الحكام . . . وهي ، بعد هذا أو قبله ،  
الدعوة التى تتصدى للانحراف بنوعيه : المتهاوى المتخاذل ، والمتشامخ  
الطاغى ، إذ تحارب الاستكبار والإرهاب كما تحارب الجبن والنفاق ،  
فترسم للدولة سياسة عمل ، وللأمة خطة اخلاق . . .

بغير مغالاة ، نكاد وصايا أمير المؤمنين وأوامره الى عماله في الأقاليم . تمتل لنا تلك الخطة المتكاملة التي يحدد بها هدى الإسلام ما ينبغي أن تكون عليه سيرة المتبوع بين الأتباع ، واليا من قبل السلطة الشرعية الحاكمة ، أو امرؤا هياه وضعه الاجتماعى لقيادة الناس في محيطه نجابا مع العرف والتقاليد . فهى الخطة الشاملة العامة التى يسعها أن نستوعب في نطاقها كل راع مسئول من ذى رأى أو سلطان بين أهله وذويه أو بين غيرهم ممن عسى أن يتداعوا اليه ، بحكم الصلات الاجتماعية أو بحكم الولاء السياسى .. وهى الخطة المحكمة التى تبين بجلاء ما يجدر بكل انسان أن يمثلته في حدود ما أتيح له من نفوذ جل أو هان ثم لا تترك تفرقة للترخص والاستثناء ولا للجموح والغلو .. وهى بهذا خطة السلوك « الخلقى » المقبول الذى تستقيم به العلاقات الإنسانية في مجتمع العشيرة كما في مجتمع الأسرة ، وفي حيز الدولة كما في حيز الإقليم على السواء دون سبيل للمفاوطة في معاملة الناس بالإيثار أو بالإجحاف .. بل هى أيضا السلوك « الطبيعى » العادى الذى لا بديل لآى جماعة بشرية عنه في سياسة الأمور وقيادة الأفراد والجماهير ، لأنه يوافق طبيعة البشر اجمعين حكما ومحكومين على اختلاف الزمان والمكان ، وتنضج به الأخوة الأدمية التى تربطهم قبل أن تنضج به صولة الحكم وسطوة السلطان ، ويتداعى للفطرة الأصيلة فيهم بغير عناء أو اعتساف ..

نهج طبيعى عادى ، ومسلك خلقى سوى دعت اليه وصايا أمير المؤمنين ، وأجمل رسمه بأوجز وصف وأدناه في حديث له ..

فقد قال :

« .. .. واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .. واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية .. واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه انكره واعتذر منه .. .. »

وبهذه الكلمات خط المبدأ ثم حدد الأسلوب .

فأما المبدأ فهو أن تكبح النفس أن تستخفها الأثرة لإشباع نزواتها أو تفرها القدرة لتحقيق منافعها الخاصة ، انزلاقاً على الهوى أو جنوحاً مع الخيلاء ..

وأما الأسلوب فهو أن يوجه عمل الفرد إلى الصالح العام ، وإن أضر هذا التوجيه بالمآرب الذاتية ، أو كان الفرد صاحب السلطة العليا التى تقود ..

ومن هذا وذاك ينبثق السلوك الأمثل الذى ينبغى أن يكون .  
والذى يستجيب للرغبة العامة فيصلح الجماعة وترضيه .  
والذى يعز صاحبه ويسمو به أن يحس الهوان في دخيلته أو يحسه له الناس .  
فما يجنبه مثل هذا الشعور بالهوان أن يمتنع عن سخطهم ببأسه وجبروته . ولا باستهائته بشأنهم . ولا بالتغافل عما يكون . وإنما يجنبه إياه أن يتحامى الوقوع فيما لعلم ينكرونه عليه ويصبح به في مجال تثريبهم في العلن أو الخفاء ، وبالتصریح أو الإيماء .. فليس أكرم للمرء من أن يكون وحده الرقيب على فعله وقوله . وليس أليق به كإنسان من أن يصدر في تصرفه عن شعور عميق بإنسانية مشتركة تجمع بينه وبين من حوله وإن تفاوتوا في الأقدار . وليس أجدى عليه وعلى مجتمعه من انطلاقهم جميعاً من وحدة الشعور إلى وحدة الفكر ، ومن وحدة الفكر إلى وحدة التعبير ، ومن وحدة التعبير إلى وحدة الغاية التى تلتقى عندها كافة الرغبات .

بغير هذا لا يمكن لكيان أى مجتمع من المجتمعات أن يتماسك لآته عندئذ يفتقر إلى اتفاق كلمة أبنائه فإذا هم شيع وفلول تختلف وتتنازع، قد تضاربت ميولهم ، وتبعثرت جهودهم ، وتنافرت أعمالهم ، واضطربت بهم خطاهم في سيرها على أيما طريق قد يؤدي إلى نفع عام .. فما بإرادة فرد وحده استطاع أن تساق الشعوب ما بلغ ذلك الفرد من سطوة النفوذ . ولا بمشيئة طبقة فيها من دون الطبقات يساغ أن تبرم الأمور ما بلغت تلكم الطبقة من بسطة الجاه .. إنما التنسيق بين كافة الإرادات والمشیئات ، والتوفيق بين مختلف الميول والاتجاهات هو الذى يدعم وحدة الأمة ، ويوطد كيانها ، ويصلح شأنها

بداية وغاية . فلا صلاح لامة بصلاح بضعة فيها دون بضعة ، ولا بإيثار طائفة على طائفة ، لأن « الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض » - كما يقول الإمام .

تلك سياسة ثابتة كالجيل ، عادلة كالميزان ، خليفة بأن يرعاها كل محكوم كما يرعاها كل حاكم سواء بسواء لأنها تحقق التوازن في المجتمعات ، وتمنع بناءها أن يميل ..

فما هو إذن مقياس تطبيقها بلا انحراف ؟ ..

وما هو ضمان « الموازنة » فيما بين الأفراد ، وفيما بين الطبقات ، وفيما بين أولئك وهؤلاء ؟ ..

بديهية لا تختلف عليها الآراء أن يكون ذلك المقياس شاملا يتسع لكل قياس ، حاضرا ميسورا لكل الناس .  
وإنه لكذلك !

فإن تضع نفسك موضع سواك ، قبل أن تصدر عن فعل أو قول ، فترضى لها ما ترضى له ، وتكره له ما تكره لها ، لهو المقياس الذي لا يبعد عن أحد لأنه يقع في متناول الجميع . وهو لا ريب المقياس الدقيق الذي يكفل استقامة التطبيق ، ولا مجال معه للمفاوطة في التقدير مهما تغيرت الأحوال واختلف الأشخاص .

إنك أدنى إلى أن تعيش بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس بغير هذا المقياس لأنك عندئذ لا تكابد ما يكابد سواك . ولكنك به تعيش في إهابهم ! .. ترى بعين كل منهم . تسمع بأذنه . وتشعر شعوره . تفكر تفكيره حتى لتصبح أنت في قرارتك كأنك هو ، ويصبح هو في نظرتك كأنه أنت ! . ولا شيء أوضح من هذا نهجا لاستقامة تقدير كل امرئ للأمور ، ولا أقوم سبيلا لسلامة تصرفه وسلوكه . ثم لا شيء بعد أصدق منه تعبيرا عن الإحساس الجمعي ، ولا أقوى ضمانا لتحقيق الإرادة العامة .

ولا يساغ هنا أن يقال بإقبال الناس كافة على هذا المقياس ، أو بعملهم به على أطراد وعن إجماع ، في كل الأحوال .. فلقد يحدث

— ولا عجب — أن يغفل عنه فريق ، كما قد يحدث أيضا أن يعيث به فريق .. فليس دائما كل أسلوب ميسور بمقبول.. وليس دائما كل طريق معبد بمطروق . وليست الحياة الدنيوية بقالب يصب فيه البشر فإذا هم نمط واحد ، على اتساق وتمائل بلا تناقض وتضاد . ذلك لأن الإجماع خيال . والاطراد إطلاق ، والإطلاق — بطبيعة الحال ، ومع اختلاف الطبائع البشرية ، وتشعب النزوات ، وتفاوت الوعي بين الأفراد — ضرب من المحال . والأولى إذن في هذا الضوء أن يقال إنه المقياس الذى إن فاتته أن يقيس اتجاه الإجماع فلن يفوته أن يقيس الاتجاه الغالب الذى يعبر في أى تجمع إنسانى عن رأى الكثرة من اهله ، ويصلح ، على هذا الأساس ، أن يكون نقطة بداية لانطلاق الجهود إلى هدف عام « نسبي » ، إن لم تتحقق عنده إرادة الكافة فأحرى به أن يحقق إرادة جمهور الناس .

وإذن فإرادة هذا الجمهور أجدر بتقديمها على ما عداها من إرادات غيره من أبناء الأمة ، ما دام يمثل فيها — بمجموعه العددي — ما يوشك أن يقارب الإجماع ، ويفتقر — بوضعه الاجتماعى — إلى النصيب الأوفى من الخير العام .

هذه هى النظرة الواجبة إلى وظيفة الحكم كيف تكون ، وإلى تبعة الدولة عند وضع الخطط ورسم الأهداف . وهى النظرة التى تعلن دائما عن نفسها في طوايا وصايا الإمام وأوامره ، ويقرر بها ضرورة امتثال الإرادة الشعبية الغالبة وتوجيه العمل القومى ، سياسة ونتيجة ، إلى نفع العامة — إن لم يكن عدلا فيأثارا — لو عسر توجيه هذا العمل لنفعهم ونفع بقية من عداهم من الرعية على استواء . فإذا أوثروا ها هنا فإنه الإيثار الذى يعدل الحق ويكافئ الإنصاف ، تعويضا لهم عن الحرمان والتخلف ، ولو بدت فيه مسحة عطف أو إثارة انحياز .. وإذا اختصوا دون غيرهم بمصلحة فإنه الاختصاص الذى يرقى بهم درجة في سلم المساواة ولا ينزل بسواهم من الطبقات .. وإذا استكثر لهم من الخير العام فذاك ما تبرره كثرتهم ، إذ هم قاعدة المجتمع الكبرى ، وأساس بنائه ، وعصب كفافه في كافة المجالات ، وما من فئة — بهذا المعيار — هى أحق منهم باجتناء القسط الأوفر

من ثمرات العمل جزاء وفقا لما يحملون من أعباء ، وثمنا عادلا لما يبذلون من جهود ..

عن دورهم في حياة امتهم يقول أمير المؤمنين :

« .. إنما عماد الدين ، وجماع المسلمين . والعدة للأعداء : العامة من الأمة .. » .

وعن دور الدولة في رعايتهم ، وكفالة حقوقهم . يذهب إلى المدى الذى لا يبالي عنده سخط من عداهم . لأنه عندئذ السخط المنتظر المغفور ، الذى لا يلائم ضرورات الواقع ، ويكاد لا يخل بعدالة الميزان .. يقول :

« .. سخط العامة بجحف برضا الخاصة . وإن سخط الخاصة يقتفر برضا العامة .. » .

فهنا احتفال ، وهناك استهانة .. سخط المتكفف في كفة ، وسخط المكتفى في كفة ، ولا مندوحة - عند المفاضلة - عن درء أولهما بالآخر لأنه شتان بين ضاو محروم يصلحه النزر ، ومترف منهوم تفسده التخمة ! ..

ولم يكن رايه هذا بقول الذى يسوق المبارات عشواء فيجانب بها حدود الاكتراث استهانة او غفلة . بل هو حديث المحيط بالحقائق، المتمرس بالتجربة ، الخير بالنفوس الذى يبنى كلامه على شواهد عملية ، وأدلة يقينية من صميم حياة الناس يوشك ألا ينفذ إليها البطلان ..

بخلاصة ما خبر واستيقن ؛ يتحدث فيقول :

« ليس احد من الرعية اقل على الوالى معونة في الرخاء ، واقل معونة له في البلاء ، واكره للإنصاف ، واسأل بالالحاف ، واقل شكرا عند الإعطاء ، وابطأ عذرا عند المنع ، واضعف صبورا عند ملهمات الدهر من اهل الخاصة ! .. » .

ولا مرأء ! ..

فتلك - عادة - خلائق المترفين السراة ..

ولا يغفل الإمام ، بعد هذا ، شأن الفرد ، لانه نواة جماعات الامة  
ولا يصلح الدوح إن لم تصلح البذور !.. ومن هنا فإنه يرى لكافة  
المواطنين حقوقا على الدولة ، ليس لها أن تتحلل منها ، أو تبخل بها  
وان تفاوتت قدرا أو نوعا بحسب طبيعة الاوضاع الاجتماعية التى  
ينتسب إليها الافراد . ثم يرى ، ضمنا لهذا الصلاح ، ان تعابر الحقوق  
بالحاجات ، فيقول :

« .. لكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه .. » .

وقد ذهب امير المؤمنين في تقرير هذا الحق ابعد المذاهب ، حتى  
لقد جعل الوفاء به اول ما ينبغى على الحاكم وإن جاء هذا الوفاء على  
حساب المال العام ، أو اجتزا منه بنصيب . فلا خير قط في سياسة  
قصارها ان تكس المال في الخزائن لتسند به هيبة الحكم أو تعز  
السلطان إن لم تسخره وسيلة للرعاية الاجتماعية لمن يفتقرون لهذه  
الرعاية ، لانها عندئذ السياسة الخليفة بأن تفقد الطبقات الدنيا  
والحرومة في المجتمع شعورها بالانتماء للدولة ، وتنزل بولائهم لها إلى  
اسفل درك إن لم تدفعهم دفعا إلى التنكر للنظام العام ، وتزخر نفوسهم  
بالثورة عليه .. ولا بديل في أمة تنوعت شعوبها ، وتعددت وحداتها  
السياسية ، عن عناية كل عامل على أية وحدة بأن يوفر للمعتمدين  
والمحتاجين فيها ما يمسك عليهم مستوى كريم ، أو مقبولا ، من  
المعيشة ، من دخلها قبل أن يوجهه إلى حاضرة الدولة .. فأهل  
الأرض ، لا ريب ، أولى قبل غيرهم بما تغله . ونجاح الوالى لا يقاس  
باقتداره على جمع المال . وليس بمجهول انه قد أثر عن رسول الله  
قوله إنما بعث للهداية ولم يبعث للجباية ..

في هذا المقام يقول الإمام :

« .. يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها . وإنما يعوز أهلها  
لإشراف أنفس الولاة على جمع المال .. » .

وبرسم سياسة للجباية لا تهدر كرامة الإنسان ، ولا تعضل به ،  
وإن أعضلت بالدولة ، وحرمتها بعض ما يستحق لها على الرعاية من  
الأموال .

يأمر أهل الخراج :

« .. لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ، ولا صيف ، ولا دابة  
يعتملون عليها .. » .

فأما ذوو الحاجة من أبناء الإقليم ، فقد آثرهم بمال إقليمهم إلا أن  
تفضل فضلة تنفع أبناء سواه ..

يكتب إلى عامله على مكة قثم بن عباس في هذا الإيثار ، فيقول :  
« انظر ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى  
العيال والمجاعة تصيب به مواضع الفاقة والخلات .. وما فضل عن  
ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا .. » .

بل يحتم على الدولة أن تتولى ما نعبر عنه في لغة اليوم بالرعاية  
الطبية ، وإعانة التعطل ، لكل مريض ، وكل متعطل أعوزته الوسيلة  
إلى عمل يصلح أمره أو أعجزه عنه سبب من الأسباب .. فيبعث  
إلى ولايته :

« الله الله في الطبقة السفلى من الدين لا حيلة لهم ، والمساكين  
والمحتاجين وأهل البؤس والزمى .. أجعل لهم قسما من بيت المال ،  
وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد .. فإن للأقصى منهم مثل  
الذى للأدنى .. » .

كافلا بهذا الرعاية للجميع ، في كل ركن من أركان الدولة ، بغير  
تمييز ولا استثناء ..

فإذا بلغ بأوامره إلى الحكام هذا المبلغ ، بادر فدعا كل قادر من  
أبناء الأمة إلى التزام نفس السياسة تجاه ذوى الحاجات ، من ماله  
الخاص ، جودا بما يطيق مهما قل ، لأنه يعينهم على الحياة :

« .. لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه ! .. » .

وكما سبقت وصايا الإمام — فيما نطقت به عن تعاليم الإسلام —  
كافة الشرائع والقوانين الوضعية إلى إلزام الدولة رعاية الفرد بتقرير  
حقه عليها في العمل والعلاج والمعونات المالية وكل ما يضمن له مستوى  
معيشيا يليق به كإنسان ، فقد سبقتها أيضا إلى حماية الفرد من



استغلال سواه الاستغلال الذي تشق به عليه الحياة . وكفى أن نذكر هنا - كمثال - أنها حرمت الاحتكار ، وفرضت رقابة على أسعار السلع لكيلا تكون وسيلة بعض الجشعين من التجار الى الإثراء الفاحش عن طريق التحكم في الأسواق ..

فلقد كان من أوامر الإمام الى رجاله :

« .. فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله منع منه .. وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع .. »

تلك وغيرها من وصايا الإمام وآرائه . خطوط في السياسة العلوية ، ومعالم على طريقها ، وضعها صاحبها لتكون مشاعل هداية ونور للولاة والعمال في سياسة الناس والأمور ، ومفازة أمن وسلامة لابناء شعبه الى الحياة الكريمة .. فإن فيها من العناصر الواضحة ، ومن المفارز المستترة ما يبدى لنا خطة وثيقة الكيان ، راسخة البنيان . تؤكد كيف يمكن للسلوك البشري أن يوافق شريعة الدين بلا اعتساف ، ويلائم طبيعة البشر دون إرهاب ، ليرقى بالامة كلها ، حاكمين ومحكومين ، الى حيثما تهفو الأنفس النقية الطموح والقلوب السليمة الذكية ، وتترامى فطنة العقول الواعية ، إلى حياة من الصفاء والسلام ، كل فرد فيها قدوة ، وكل جماعة فيها إخوة ، بلا تطاول بالأحساب والأنساب ، أو امتياز بالألوان والأبشار ، أو اغترار بالمناصب والأقدار .. بل أسرة واحدة . يعمل الفرد في ظلها للجماعة لأنه يعيش بها ، وتعمل الجماعة للفرد كأنما يعيش فيه .

غير أنها خطة - كغيرها من السياسات والمبادئ - خليفة بأن تتجمد في الألفاظ ، ويجف ماء الحياة فيها قبل أن يجف بها المداد على الصحائف ، ما لم تجد رعاة ودعاة ينحطونها القدرة على الحركة ، فيعيشونها عملا مثمرا وممارسة حية ، ولا يكتفون برفعها شعارات ..

فهل هكذا كان سلوك المسلمين عامة ، في تلك الايام ، وخطة الإمام هي لب الإسلام ، والامة كلها ، بلسان محمد ، رعاة ؟ ..

لقد قال أمير المؤمنين وهو يحدد لقادة الرأي والعمل والسياسة حينذاك دورهم في هذا المجال :

« من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . . . »

لكنهم عامة - أولئك القادة في مختلف أنحاء الدولة - لم يستجيبوا لهذه الدعوة الهادية ، سواء منهم من كان معه أو كان عليه . . الكثرة التي صمتت عن الاصغاء تنكرت للأداء . والقلة التي لعلها أصغت للدعوة اكتفى أغلبها برفعها شعارات . ومن ورائهم جميعا جمهور الشعب ، يسكرون ، كما يسار بقطيع ، إلى دروب الهوى والنفع الذاتي التي شقيقتها لهم دنيا خداعة ، تخيلهم بمطامع وشهوات ، ليستديروا طريق الحياة الحقبة التي يلتئم فيها شمل البشرية ، ويعز الإنسان كإنسان !

## الفصل الرابع

عندما سمع الإمام بفرار مصقلة ، زاحم الأسى في وجهه سمات الغضب ، أسفا على غلبة الوحل في طبيعة البشر !.. فما زال ضعفهم يشدهم الى الأرض وإن بدوا كأنما يحلقون في السماء . وما زال الادعاء لعبتهم الأثيرة . وما زالت النفوس غثة وإن تسربت بكبرياء ..

إن خلائق كثرتهم لاهون من أن توزن بمثقال . وإن شرفهم لأرخص من أن يثمن بدرهم . وإن كرامتهم لأغشاء وطلاء .. هيئة ضخمة تهول ، وملمس ناعم يبهر ، ثم لا شيء بعد هذا غير خواء وفراغ ، كأنما القيم الخلقية التي يعلنونها ويظهرون ولاءهم لها مجرد كلمات رنانة ، قصارى همهم منها أن تمتلئ بها الأفواه وتنتفخ الأشداق !..

ومصقلة مثال !..

واعزب الإمام عن أسفه :

« قبح الله مصقلة !.. فعل فعل السادة ، وفر فرار العبيد !.. »

فقد فر الرجل ، وقبلته الشام ، ليلقى لدى معاوية ما يلقاه كل آبق عليل الضمير ، آده أن يستمسك بما أخذ به نفسه من مبادئ ، وتعاهد عليه من ذمام .. باع دينه لدنياه . خلع الوفاء وارتنى الخيانة ، ومضى شوطه في الطريق الذي سبقه اليه كل ناكث خوان ، لينعم هنالك في وجار العاهل الأموى بجاء ما هو بجاء إلا أن يكون الاعتداء على حق الله ، والهوان على مكارم الأخلاق هو الجاء !..

ولم تكن حال مصقلة هذه إلا حلقة في سلسلة طويلة من سلوك طائفة جمة من الأمة ، ذلك العهد ، قد آثروا الفرار بأنفسهم من

مشقة الثبات على الحق ، والصبر على مرارة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الدين ، الى حياة من الدعة والرغد يشترونها بانتقاضهم على الإمام . فهو عندئذ نمط شائع من الناس الذين بهرهم اقبال الدنيا ، فأكبوا عليها ، ينهبون عرضها ونشبها ولو من حرام . وهو أيضا نمط من الخاصة تقدموا الصفوف قادة وعمالا في دولة على ، ليعبروا على ما اظهروا من ولائهم له ، وكفاحهم لنصرته ، الى ما يشتهون من مغنم ، فلما أن استطال امر هذا الكفاح ، تعجلوا اجتناء التمرة المشتهاة التي راوا صاحبهم يحاجز بينها وبينهم ان يقطعوها بغير حقها ، فاتخذوا سبيلهم الى اجتنائها صاحب الشام ..

وتفصح قصة مصقلة بن هبيرة الشيباني ، كما لم تفصح اغرب القصص ، عن اضطراب المعايير الخلقية الاضطراب الذي تجتمع فيه نقائص الشرف والخسة ، الإباء والهوان ، الخطأ وانصواب ، ثم تقوم - في رأى صاحبها - بميزان المعادلة والحساب كأنها كلها شرف وإياء وصواب !..

فالرجل يمر به ، وهو عامل لعل على اردشير خرة ، من كور فارس ، أسارى نصارى بنى ناجية ، فيبدو كمن يصدر عن خلال كريمة أصيلة فيه .. عن الشفقة والرحمة حين يراهم وتأخذ الرقة على ما هم فيه من بلاء . وعن المروءة والنجدة حين يستغيثونه ان يكف عنهم الأسر ..

ويبادر على الأثر فيشتريهم بخمسمائة ألف درهم ، دينا عليه إلى أجل ، ويمتقهم من ذل الاسترقاق ، فإذا هو يبلغ بصنيعه هذا قمة الشرف الذي لا يكاد يرقى لشاؤه ثناء .. ثم يمطل بدينه ، فلا يؤذى القدية التي افتدى بها أسراه الى بيت المال وهو المؤمن عليه ، ولا يرد منه إلا بعضه بعد ان يلحف عليه بالسؤال ، بل يتحلل من تبعته - افتثاتا وجورا - بأن يخلع طاعة امير المؤمنين ويفر الى ابن أبي سفيان . فاذا هو بفعلته هذه يتهاوى الى درك الخسة الذي ليس تحته قاع !..

مناقص ومثالب تروع وتهول . جمعت خيانة الامانة ، الى خاف

الوعد ، الى نقض البيعة ، الى المظاهرة الجائرة انتصارا للعدو على  
الولى ، وللمتمرد العاصى على صاحب السلطان الشرعى في البلاد ..

ولقد كانت لمصقلة عندئذ مندوحة ، عن سلوكه الزرى الذى  
اخل بدينه ، واهدر كرامته ، لو انه كان حقا صادق النية - منذ  
البدء - في طاعة الإمام ، مؤمنا إيمانا سليما بأهدافه .. وهل كان  
على ليعجله بالاداء ويرهقه عسرا وإنه الخليق - لا ريب - بأن يمهله  
ويتريث به وهو يقابل الزلة البيلة بالدافع الكريم ؟ ..

وكان هذا حقا هو اتجاه الإمام في معاملة مصقلة ، إذ عقب يقول :

« .. لو اقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بماله وفوره .. »

لكن مصقلة شاء لنفسه أن يقرن الصلف بالخيانة ، كأنما ترفعا  
عن المسائلة والاعتذار . فأعاد بذلك إلى الحياة صورة جبلة بن الايهم ،  
حين شكاه أحد الأعراب الى ابن الخطاب في لظمة لطمها اياه ، فدفعته  
كبرياؤه الحمقاء - انفة من القصاص - الى الارتداد عن الإسلام ! ..

صلف كصلف ، ومثال كمثال ، ثم يبقى بعد هذا ان سيرة مصقلة  
تنم ، قبل زلته تلك ، عن دخوله في طاعة على ، خداعا وغشا ، ابتغاء  
المصلحة وذبوع الصيت . فلقد سبق له ان اساء الى المال العام  
بوضعه حيثما رأى انه يرفع ذكره ، وينفع قومه ، وإن اعضل فعله  
بمن لهم حق في هذا المال .. وما هو كتاب من الإمام إليه ، إيان  
عمله ، يتهمه ويكاد يهتك الستر عن خيانة قديمة ، خبيثة فيه :

« بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد اسخطت إلهك ، وعصيت  
إمامك .. انك تقسم فيء المسلمين ، الذى خازته رماحهم وخيولهم  
وأريقته عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من أعراب قومك .. فوالذى  
خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقا لتجدن لك على هوانا ،  
ولتخفن عندى ميزانا ! .. فلا تستهن بحق ربك . ولا تصلح دينك  
بمحق دينك ، فتكون من الأخسرين عملا .. »

وختم كتابه يذكر بحق الأمة في الفء بالسوية ، بلا مغاورة على  
المنازل والأحساب :

« .. الا وان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا  
الفيء سواء ، يردون عندي عليه ، ويصدرون عنه .. » .

ومع ذلك فقد استمرا المرعى !..

فما هو ان طلع عليه بولايته اولئك النصارى الاسارى ، حتى  
تحركت يده ، مرة أخرى ، ليختان المال العام ..

والقى بعينه على موكب الرق فإذا هو جسوم ضاوية محطومة  
من فرط مشقة الرحلة الطويلة من ساحل البحر في الجنوب . ووجوه  
مغبرة . رهقها الإعياء وذل الانكسار .. تملقى بسمعه إليهم فإذا  
كلامهم زفرات ، وإذا انفاسهم نواح ..

وتعالى اليه الصياح :

« يا أبا الفضل !.. يا حامل الثقل ، ومأوى الضعيف ، وفكاك  
العصاة !.. امنن علينا .. »

فكأنما لمسوا بعباراتهم وتر فخره ..

هب على الفور يقول :

« والله لاتصدقن عليهم !.. » .

وارسل الى معقل بن قيس ، صاحب الجيش الذى تعقب عصاة  
بنى ناجية من الكوفة الى البحرين عبر الوهاد والقفار والجبال ،  
قراية عامين ، حتى اوقع بهم ، وقتل زعيمهم الخريت ، واظفره الله  
منهم بعدو عنيد ..

ارسل اليه :

« بعنى نصارى ناجية .. »

واتفقا على خمسمائة ألف درهم نسيئة ، يبعث بها الى  
أمير المؤمنين بالكوفة بعد قليل ، ثم اعتق الأرقاء ..

لكنه لم ينجز وعده .

مطل بالدين . بل قد اكل معظمه فرزا فيه بيت المال كما رزاه

من قبل . فإذا خيانة الأمانة خيانتان . وإذا مسلكا الأمر واليوم يتطابقان . وإذا هو بهما الخلاص السلاب الذي ينهب ليهب . ويهب فيسخو . ويسخو ليستطير بالشرف والفخار فلا يبلغ من شأو طموحه الى نباهة الذكر الا كرما هو التكرم ، ورفعة هي الصلف ، وشرفا هو الادعاء !..

ولم يعاجله الإمام بالبطش والحساب ، بل أثر الرفق والهوادة عسى ان يرجع عن غبه ، ويوفي ما عليه .. ولكن مصقلة ابطا في الاداء فأطال الإبطاء ، حتى بدا للناس كأنه لا ينتوى الوفاء ..

عندئذ بادره أمير المؤمنين بكتاب مع رسول من لدنه يدعوه :

« أما بعد .. »

فإن من أعظم الخيانات خيانة الأمة . وأعظم الفش على اهل المصر غش الإمام . وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فأبعث بها الى حين يأتبك رسولى . وإلا فأقبل .. ..

والسلام . »

ولم يكن لمصقلة معدى عن الذهاب إلى الكوفة ، بعد إذ لزمه الرسول لا يبرح عنه انصياعا لأمر الإمام :

« إن تبعث بهذا المال ، وإلا فاشخص معى إلى أمير المؤمنين .. »

فانطلق صاغرا . ومكث أياماً بالكوفة ، يحاول ان يتدبر الأمر بحيلة العاجز الذى آده الاداء . ثم وسعه أخيرا ، حين سأل الإمام ، أن يدفع مائتى ألف ، مكث بعدها يعالج القلق والحيرة ..

وكانما أغراه تريث على به كل هذا التريث بالطمع في الالتواء ببقية الدين ، حتى لقد قال ذات ليلة لذهل بن الحارث :

« إن أمير المؤمنين يسألنى هذا المال ، والله ما أقدر عليه .. »

قال صاحبه :

« لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمععه .. »



فأنف :

« ما كنت لأحمله قومي ، ولا اطلب فيه إلى احد .. » .

واردف يقول كاشفا عن امنيته :

« والله لو أن ابن هند مطالبى به ، أو ابن عفان ، لتركه لى .  
الم تر إلى عثمان كيف اعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج اذربيجان  
في كل سنة !.. » .

لكن جواب ذهل رده عن خياله :

« إن أمير المؤمنين لا يرى ذلك الرأى . وما هو بتارك لك شيئا .. »

افكان حقا في حاجة لمن يخرج من هذا الحلم الذى عاش فيه  
لحظات ، وود لو طال عليه امده ؟ .. إنه إذن لم يعرف الإمام ، ولا كان  
جديرا بالمنصب الذى شغله عاملا له أولى به ان يتخلق بخلق ، ويسير  
سيرته ، تنائيا عن هوى النفس ، وخضوعا لشرعة الحق ، وامثالا  
لما ينبغى ان ينتهجه كل من تصدى لقيادة الرأى والسياسة بين الناس .  
ولم يطلع عليه بعد ليلته تلك في الكوفة صباح !..

طوى الإمام سيرة اسرى بنى ناجية في كلمات ..  
 قيل له :

« اردد الدين سبوا ولم تستوف اثمانهم في اثرق .. » .  
 فابى ان يحرمهم حرية غنموها وإن من خطأ ، وان بتحيف على  
 المال العام :

وقال :  
 « ليس ذلك في القضاء بحق .. » .

فألحوا عليه :  
 « وفيؤنا ؟ .. » .

« صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه ! .. » ..  
 واطبق السجل على جدل طال في حرية الإنسان ، مسلما أو غير  
 مسلم ، كيف يتحمل المجتمع ضربيتها ، لأنها ، في اعتبار النظرة  
 الإسلامية ، لها الصدارة بين كافة الحقوق ..

وعرض الإمام في أحاديثه بالخريت ، صاحب محنة بنى ناجية :  
 قال عندما اتاه نبا مصرعه :

« هوت أمه ! .. ما كان انقص عقله واجراه ! .. » .

فما جنى هذا المتمرد الفاوى شيئا من وراء جراته الحمقاء ،  
 أو حمقه الجريء ، إلا أن حمل قومه على عصيان هم أغنى عنه ، وأوغل  
 بهم في مجاهله ومتأهاته على غير بينة ، حتى دل عليهم السيوف تذيقهم  
 مرارة الدلة وغصص الختوف .. وهل كان قصارى ثمره إلا أن أودى  
 بهم ، وأهلك نفسه ، وضع من عمر الأمة الإسلامية قرابة عامين في

صراع دموى ما كان أحرى الناس عندئذ بأن ينفقوهما في تثبيت أركان  
القيء سواء ، يردون عندى عليه ، ويصدرون عنه . . . » .

لكن الخريت بن راشد الناجى سلك المسلك الذى لا يستغرب من  
مثله ، لأنه الألبق بكل من هو على شاكلته من الالى آمنوا على حرف ،  
الذين يتأرجح بهم دائما فلقهم النفسى ، وافتقارهم إلى اليقين الركين ،  
من النقيض للنقيض ، شاطحين مرة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ،  
ثم عادلين أخرى عن أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، بغير ما قد يوجب  
ميلا ولا عدولا سوى التعصب الأعمى وما يجره من اضطراب التفكير  
وخلل التقدير .

ولا عجب ان يأخذ الخريت في تمرده بمذهب الخوارج الذين سبقوه  
إلى الانتقاض على الإمام بسبب التحكيم . فله ان يرى رايه . وان  
يدعو له . وان يحاول نسويده ، بالمجادلة أو بالثورة ، على غيره من  
الآراء ما دام قد اعتنقه عن اقتناع . لكن العجب كل العجب أنه كان  
إلى ما قبيل تمرده بقليل ، مخالفا لهذا الرأى ، زاربا عليه ، حتى لقد  
نحا في خلافه إلى تأليب الإمام على كل من أعلنوه التآليب الذى ينكر  
الترفق بهم ، وبرى استئصالهم ولما يخرجوا بعد على النظام العام . . .

فقد قال للإمام عندئذ يثيره على الخارجة :

« يا أمير المؤمنين . إن في أصحابك رجالا قد خشيت أن يفارقوك ،  
فما ترى فيهم ؟ . . . » .

فشرح له الإمام ما يرى أتباعه حيالهم وأمثالهم من مخالفيه :

« إني لا آخذ على التهمة ، ولا أعاقب على الظن ، ولا أقاتل من  
خالفنى وناصبينى وأظهر العداوة لى . . ثم لست مقاتله حتى أدعوه ،  
وأعذر إليه . فإن تاب ورجع قبلنا منه . وإن أبى إلا الاعتزام على حربنا  
استعنا بالله عليه ، وناجزناه . . . » .

ويبدو أن الرجل لم يرض من أميره بهذه السياسة ، فراح يلحف  
ويشتد ، حتى لقد ردعه الإمام :

« كف عني ما شاء الله . . . » .

لكنه عاود مرة أخرى الإلحاح عليه في معاقبة الزعماء :

« إنى خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي .. قد سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما حتى تقتلهما ، أو توثقهما فلا يزالان بمحبسك أبدا .. » .

عندئذ شاء أمير المؤمنين أن يسير غوره ، ليعلم مدى التزامه سياسته ، التي ترتب العقوبة على الجرم لا على الشبهة ..

فقال يسأله :

« إنى مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرني به ؟.. » .

قال الخريت :

« آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما !.. » .

فسفه الإمام قوله ، ورد عليه :

« .. لقد كان ينبغي لك أن تعلم أنى لا أقتل من لم يقاتلنى ، ولم يظهر لى عداوة .. وكان ينبغي لك - لو أننى أردت قتلهم - أن تقول لى : اتق الله ! بم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم يباذوك ، ولم يخرجوا من طاعتك !.. » .

فليس الخلاف في الراى مما يستوجب القصاص .

ومع ذلك ، فما لبث الخريت أن فعل ما أراد قتل غيره ، لا على فعله ، بل على مجرد القول به !..

عصى . ودفع قومه إلى العصيان . وخرج بهم عن الطاعة والولاء بحرب شعواء شنها على الإمام تنشر الدماء على رقعة فسيحة من البلاد امتدت إلى أقصى الجنوب على الخليج الهندى بمنطقة البحرين .. ولم يساعد بفعله هذا على تحطيم حكم على بقدر ما أعان على تفتيت وحدة الأمة ، بتأليب المسيحيين ، وإحياء عنصرية الجنس في نفوس الفارسيين والاكراذ بتلك الانحاء ، ثم على تلم الإسلام وإحداث خرق واسع في جداره بتحريضه الناس على منع الصدقات ، وإفساح المجال أمام كثيرين للارتداد عن الدين ..

وتبدأ هذه المحنة الخطيرة حين وسوس للرجل شيطانه أن يذهب عقب انتهاء التحكيم في ثلاثين من أصحابه إلى الإمام ، ذهاب زار مفاضب ، ليعلن في اجترأ أنه برم به ، خارج عليه ، آخذ حياله برأى الخارجية الذين طالما دعاه من قليل أن يعنف بهم ، ويقتل زعماءهم قبل أن يفسدوا عليه الناس !..

فأنى له هذا التحول ؟.. وكيف يقر ما نقم وكان يأمر بالبطش فيه ؟.. وهل هى نزوة نفسية أفرزها قلقه وتقلقل قدمه أن تثبت على موضع ، وضيق أفقه أن يتبين اليقين ؟.. أم كان يكن ميله الخارجى ويكبته حتى تبجس وتفجر ولم يجد وسيلة يعد لكتمانه ؟.. أم قد أراد من قبل أن يتفرد بزعامه المبدأ حين أثار الإمام على سواه من زعمائه فلما فوت عليه غرضه أثر الآن النهوض بدوره في العصيان ؟..

فلعله أقبل لهذا السبب أو لذاك . أو لعله لكل هذه الأسباب ، أو بغير أسباب ، إن وضعنا تذبذب أمثاله من الخارجية بين نقائص الدواعى والأسباب في الحساب !..

وبادر في اعتداد أرعن وخيلاء حمقاء يشور بالإمام :

« .. لا والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلى خلفك .. وإنى غدا لمفارق لك !.. » .

فاستطارت الدهشة بأمر المؤمنين ، وحذره :

« ثكلتك أمك !.. إذا تنقض عهدك ، وتعصى ربك ، ولا تضر إلا نفسك .. » .

ثم تريت به قليلا ، وسأله سر انقلابه :

« .. أخبرنى . لم تفعل ذلك ؟.. » .

أجاب :

« لأنك حكمت في الكتاب . وضعفت عن الحق إذ جد الجد . وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم . فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .. » .

نفس دواعى فرقة الخوارج ، ونفس حججهم ، كأنما تتردد على  
لسان زعيم القوم : الرأسى ذى الثغفات !..

ومع ذلك فقد ترفق به الإمام في الرد وهو يرجو أن لو أفسح له  
في التفكير ومراجعة النفس أن يرشد ، ويثوب عن هواه ..

قال :

« ويحك !.. فهل إلى أدارسك ، وأناظرك في السنن ، وأفاتحك  
أمورا من الحق أنا أعلم بها منك ، فلعلك تعرف ما أنت له منكر ،  
وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل .. » .

فبدا الخريت كأنما قد استراح للنصيحة ، وقال :

« فإنى غاد عليك غدا .. » .

« أغد ، ولا يستهوينك الشيطان ، ولا يتقحمن بك رأى السوء  
ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون .. فوالله أن استرشدتنى  
واستنصحتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد .. »

وافترقا على عدة ولقاء ..

لكنها العدة التى أسلف لها الخلف ، واللقاء الذى سبقه في نفسه  
التنكر له والمراوغة فيه .. فما أن عاد الخريت الى قومه حتى كشف  
لهم عما أضمر وعزم أمره عليه :

« يا هؤلاء !.. انى قد رايت أن افارق هذا الرجل . وقد فارقت  
الآن على أن أرجع اليه من غد ولست أرى الا المفارقة . »

فراجعه في عزمه كثيرون :

« لا تفعل حتى تأتبه . فإن اتاك بأمر تعرفه قبلت منه . وإن  
كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه .. .. »

فاظهر القبول .

غير أن الغد المرتجى لم تطلع شمسهُ !..

فقد أثر الرجل أن يلتوى بوعدهِ ، ويمضى لعزمهِ ، ويملا الدنيا

دما وشغبا وضغينة .. وإذا كان من الأولى علموا بما سلف من قبوله ذلك اللقاء بضعة صدقته فحسبته قد بات ليلته تلك على نية الوفاء ، فإن بضعة غيرها رابها أمره ، وقر في روعها أنه لا بد ناكث عهده ، وخارج بما أضمر من خلاف وشر على الأمة غدا إن لم يحاول أن يشق وحدتها قبل أن يسفر الصباح ..

من هؤلاء المستريين فيه عبد الله بن قعين ، الذي بادر فسعى ، مع ارتفاع النهار من غد ، إلى الإمام يطالعه بما دار ليلة أمس بين الخريت وأصحابه ، ويكشف عن شكه فيه ..

فكان جواب ما طرحه أن قال على :

« .. ان قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك ، وقبلنا منه .. » .

أهاب ابن قعين به ، توقيا وحيلة :

« فلم ، يا أمير المؤمنين ، لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟ .. » .

فرد الإمام :

« .. لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس ، ملأنا السجون منهم . ولا أراى يسعنى الوثوب بالناس ، والحبس لهم ، وعقوبتهم ، حتى يظهروا لى الخلاف .. » .

وعلت الضحوة . وطال الانتظار وصاحب الوعد لا يظهر له خيال ! .. فمال الإمام على عبد الله بن قعين ، يسر إليه :

« إذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل ، فإنه قل يوم لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة .. » .

فمضى .. فإذا داره خاوية . وإذا ديار أصحابه ليس بها ديار ! .. أنفذ العاصى إذن ما أراد .

وعند ما عاد عبد الله من وفادته ، لم يمهل الإمام أن ينقل إليه ما عرف . بل بادره لحظة أقبل :

« أفطنوا فأقاموا ، أم جبنوا فظعنوا ؟ .. » .

« بل ظعنوا ! .. » .

فقال وقد ملأ الأسف عينيه :

« أبعدهم الله كما بعدت ثمود ! .. » .

ثم ألقى بنظرة ثاقبة إلى الأفق البعيد ، كأنما ليخترق بها حجابيه ،  
وينفذ عليها إلى ما يكنه الزمان المقبل ..

وأضاف :

« .. أما والله لو قد اشرعت لهم الأسنة ، وصبت على هامهم  
السيوف ، لقد ندموا ! .. إن الشيطان قد استهواهم واضلهم .  
وهو غدا متبريء منهم ، ومخلّ عنهم .. » .

كذلك شام . ولسوف يتمخض الزمان عما شام ! ..

### ٣

قال قائل من أصحاب على ، حين ظهر لهم ما كان خافيا من نية  
عصبة الخريت :

« يا أمير المؤمنين .. إنه إن لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم  
إيانا لم يعظم فقدهم علينا . فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا  
معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا .. ولكننا نخاف أن  
يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقومون عليهم من أهل طاعتك .  
فأئذن لي في اتباعهم حتى أردهم .. » .

فاستجاب الإمام :

« فأخرج في آثارهم .. » .

ثم سأله :

« وهل تدري أين توجه القوم ؟ .. » .



قال زياد بن خصفه :

« لا والله . ولكنى اخرج فاسأل واتبع الأثر .. » .  
فوجهه :

« اخرج حتى تنزل دير أبى موسى ، ثم لا تبرحه حتى يأتيك امرى ،  
فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ، فإن عمالى  
ستكتب إلى بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك اخفى لهم ،  
وساكتب إلى من حولى من عمالى فيهم .. » .

وسارع فأرسل لكل وال من ولاته على الأقاليم والكور حول  
الكوفة ، وما جاورها ، كتابا يقول فيه عن أولئكم الأبهة الجانحين إلى  
العصيان :

« .. إن رجالا لنا عندهم تبعة خرجوا هرابا نظنهم خرجوا نحو  
بلاد البصرة . فاسأل عنهم أهل بلادك . واجعل عليهم العيون في  
كل ناحية من أرضك .. ثم اكتب إلى بما ينتهى إليك عنهم .. » .  
وامتثل زياد بن خصفة أمر الإمام ، وما لزم به نفسه .. فدعا  
اصحابه ان ينتدبوا معه . فلما أن اجتمع له منهم مائة وثلاثون ، اكتفى  
بهم ، وأخذ وإياهم على الطريق ، عبر الجسر ، إلى دير أبى موسى .  
ثم انتظر .

أما الخريت فقد تسربل ورفاقه بالليل ، يسلجون من الكوفة خلسة  
إلى موقع يأمنون فيه على انفسهم ، ويسمعهم منه ان يبدأوا دعوة  
الانتقاض على الدولة ، ويشعلوها نارا مدمرة ، تأكل الأمن والوحدة ،  
وتشيع الانقسام والخراب ..

ولم يكد أمرهم ، فيما بدا لهم ، يستتب حتى عملوا بسيرة  
الخارجة ، ينشرون الإرهاب بين أيديهم ، ليفتنوا بالرعب من لا يفتنه  
شعار جماعتهم المعلوم .. يظهرون آونة ، ويستخفون آونات . وهم ،  
بين هذا وذاك ، لا يعدمون ناصرا يلحق بهم ، ويمضى وإياهم في رحلة  
الشؤم ، من كل ناظم وجاهل وعدو للدين ..

في « نقر » التقوا برجلين : مسلم ويهودى فقطعوا عليهما  
الطريق ..

سألوا الأول :

« أمسلم أنت أم كافر ؟ .. » .

« مسلم .. » .

« فما تقول في على ؟ .. » .

« سيد البشر .. » .

فشاروا به :

« كفرت يا عدو الله ! .. » .

ومزقوه بالسيوف .

وسألوا الآخر :

« ما دينك ؟ .. » .

« يهودى » .

فتركوه ، وبعضهم لبعض يقول :

« خلوه .. فلا سبيل لكم عليه .. » .

ولعله ليس بآخر دم سفكوه ، ولا طريق قطعوه ..

وفي المدائن نزلوا يزيحون . فأقاموا بها يوما وليلة على أمان .  
جموا . وعلقت خيلهم . وتذاكروا الوجهة التي يممون ..

لكن العيون التي بثها الولاة والعمال كانت لهم بالمرصاد ، فما لبث  
أمرهم أن انكشف ، وبعث بنبئهم إلى الإمام ، عامله قرظة بن كعب ،  
في كتاب يقول فيه :

« .. فإنى أخبر أمير المؤمنين ، أن خيلا مرت من قبل الكوفة ،  
متوجهة إلى نقر . وأن .. » .

فبادر الإمام يرسل لزياد :

« .. وقد بلغنى أنهم أخذوا نحو قرية من قرى السواد ، فاتبع .

آثارهم ، وسل عنهم .. فإذا انت لحقت بهم فأرددهم إلى . فإن أبوا  
فناجزهم ، واستعن بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحق ، وسفكوا  
الدم الحرام ، واخافوا السبيل .. » .

ولث وراءهم زياد ، يشم ريحهم ، ويتأثر خطاهم ، من موقعه  
بدير أبي موسى ، إلى نفر ، فإلى المدائن حيث وجدهم مجنبيين الخيل ،  
آنسين للدعة والطمأنينة ، ورجاله عندئذ قد تقطعت أنفاسهم من  
السفر الطويل ، وكادوا يذوبون من لغوب !.. فما هو أن دنا منهم  
حتى وثبت العصاة جميعا على الأفراس ، وثابت إلى السلاح ..

ولم ير زياد ، في هذا المقام الذي لا رجحان له فيه ، إلا أن يرفق  
ويداور ما وسعه أن يفعل ، حماية لنفسه ولمن معه . فسار إلى القوم  
على مهل ، كمن لا يخاف منهم غدرا ، ولا يوجس شرا . لعله أن ينال  
بالرفق والهوادة ما لا ينال بالعنف والشدة ..

غير أن الخريت عاجل الشقة بينهما أن تضيق ، فصاح به  
وبأصحابه :

« يا عميان القلوب والأبصار !.. امع الله وكتابه انتم ، ام مع القوم  
الظالمين ؟ .. » .

فرد زياد في هدوء .

« مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه أثر  
عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفتنى لأثر الله  
عليها .. » .

ثم زار وهو يختم جوابه :

« .. أيها العمى الأبصار ، الصم الأسماع !.. » .

وكأنما أخذت زارته الرجل ، فجنح إلى اللين في الخطاب ..

قال يسأل :

« فأخبرونا ما تريدون ؟ .. » .

عندئذ رأى زياد أن يفارق الحدة ، ويركن إلى الرقة ، لأنها خليقة  
بأن تفسح له في الوقت ، وتسعف بالحيلة ..  
قال :

« قد ترى ما بنا من النصب واللغوب . والذي جئنا له لا يصلح  
فيه الكلام علانية على رءوس أصحابك . ولكن ننزلون وننزل .. » .  
مرفع الخريت حاجبه يستفسر ..  
واكمل زياد :

« .. ثم نخلو جميعا ، فنذاكر أمرا وننظر فيه .. فإن رأيت  
فيما جئنا له حظاً لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمرا  
أرجو فيه العافية لنا ولك . لم أرده عليك .. » .  
ونجحت الحيلة ..

أو هي في الحق كانت فرجة الخلاص لكلا الفريقين من صراع ليس  
يأمن أحدهما عقباه على نفسه بهذا المنزل الذي لم يتهياً فيه للقاء ..  
فإن هما إلا عدلان .. خيل كخيل ، وسلاح كسلاح ، وجمع كجمع  
لا يكاد ينقص فرد أو نحوه من عدد فريق لترجح كفة الآخر ..

وكيفما كانت الدوافع الخفية التي حملت الخريت بن راشد على  
الجنوح للسلم في تلك اللحظة ، وإرجاء المناجزة إلى حين ، فإنه لم  
يضق بنظرة غريمه ، ولم بنقضها . بل أخذ بها نقطة بدء للمفاوضة  
وتبادل الآراء ..

وقال لزياد يوافقه :

« أنزل .. » .

وعاد هو إلى عصيته .

ونزل زياد بصحبه على الماء ، فهم أولى بأن يرتووا من عطش ويجموا  
من إرهاق ، ثم يمهّلوا الأذهان قليلا لتتبين معالم الموقف واحتمالاته ،  
وما عسى أن يجمعوا الرأي عليه .

ولم تخدع هودة الخريت ، ولا سماحته البادية ، زيادا عن الحذر الخليق بمحارب متمرس في مثل هذا المقام . فما كاد يرى أصحابه قد علقوا على خيولهم مخاليتها ، وأنسوا للدعة يتفرقون هنا وهناك في غير مبالاة ، أو يتحلقون حلقات عشرة عشرة ، وسبعة سبعة ، وعددا عددا يتلهون بالحديث ، حتى أقبل عليهم في عجلة ، ينكر عليهم ما يفعلون ، ويزجرهم :

« سبحان الله !.. انتم أصحاب حرب !.. » .

فانتبهوا له من غفلتهم يصفون ..

ومضى يتابع لومه :

« .. والله لو أن هؤلاء جاءوكم الساعة وانتم على هذه الحالة ما أرادوا من غرتكم افضل من أعمالكم التي أنتم عليها !.. عجلوا !.. قوموا إلى خيولكم !.. » .

فاندفعوا على الأثر وما أشار ، يعدون أنفسهم فيحسنون الإعداد لكل مباغته قد تخطر بالبال ..

وقال لهم وقد غدوا على أهبة وانتباه :

« يا هؤلاء .. إنا قد لقينا العدو . وإن القوم لفي عدتكم .. لقد حذرتهم ، وما أظن أحد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر .. وإنى أرى امركم وامرهم سيصير إلى القتال . فإن كان ذلك فلا تكونوا اعجز الفريقين .. » .

ثملقى إليهم بخطته :

« لياخذ كل منكم بعنان فرسه . فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم ، فإن تابعتني على ما أريد .. وإلا فإذا دعوتكم فاستعدوا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معا غير متفرقين .. » .

وما نحسب الخريت كان ينتظر هذه النتيجة حين أباح زيادا وأصحابه النزول فأباحهم به الجمام بعد التعب ، والرى بعد العطش ، والشبع بعد الجوع ، والأهبة للقتال بعد اضطراب النظام .. إنما

كان ، فيما يلوح ، يظهر الهوادة ليأمنوا له ، والمسألة ليغفلوا عنه ثم يتحين منهم غرة فإذا هم صرعى تحت الأقدام !.. لكن ابن خصفة كان اعتى من المخاتلة والخداع ، فقوت عليه غرضه . حتى لقد راح المارقون العصاة يتلاومون لأنهم ضيعوا من أيديهم نصرا ما كان أسهل عليهم ان يجتازوه ..

قال بعضهم لبعض :

« جاءكم القوم وهم كالتون معيون ، وأنتم جامون مريحون .. فتركتموهم حتى نزلوا ، فأكلوا وشربوا وأراحوا دوابهم . هذا والله سوء الراى !.. » .

فرصة ولت ، ما لها ان تعود ..

ونادى زياد الخريت :

« اعتزل ننظر في أمرنا .. » .

فخرج في خمسة نفر من صحبه ، وخرج زياد في مثلهم ..

والتقى الوفدان ..

استهل زياد بن حصيفة الحديث :

« ما الذى نفمت على أمير المؤمنين وعلينا . حتى فارقتنا ؟ .. »

اجاب الخريت :

« لم ارض صاحبكم إماما ، ولم ارض سيرتكم سيرة .. فرايت  
أن اعزل ، وأكون مع من يدعو إلى السورى .. »

فهو إذن لا ينقم للمأرب خاص . ولا لخطا ذاتى فى مسلك للإمام  
أو لأصحابه يزرى عليهم به . ويمكن بمداواته أن يعود إلى حظيرة  
الولاء .. إنما قد خرج عليهم لمبدأ يناقض السياسة العامة ، ولا سبيل  
إلى تحقيقه إلا باجتثاث خلافة على من الأساس ..

السورى ! ..

رأى لا يحتمل الجدل . ولا تفنى فيه المناقشة بين الرجلين وإن  
طالت دهرًا ، لأنه لا التفاء بين نقيض ونقيض .. وهو الرأى الذى  
تستر به معاوية من قبل ليدرا عن نفسه تهمة التمرد . ونادى به  
عمرو وأبو موسى ابان مفاوضات التحكيم ، واتخذ كل ناظم على  
الإمام ، حاسد له ، موتور منه ذريعة للطعن فيه ، ونالبا للعامة عليه ،  
عندما أعوزتهم الوسائل ، وأعبتهم معها حيل السياسة ، وضربات  
الحرب ، للفضاء على حكمه الذى قام برغبة الشعب فى كل الامصار ..

وأصغى زياد للمتمرد الجديد :

« .. .. فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضا ،

كنت مع الناس .. »

أفلم يكن امس مع الناس ، وقد نذر سيفه ونفسه للدفاع عن  
الإمام ، ووقف للمناضلة عن بيعته فى وجه كل عاص ومقروح ؟ ..

وسأله زيد في استنكار :

« .. وهل يجتمع الناس على رجل بدانى عليا ، علما بالله وبكتابه

وسنة رسوله ، مع قرابته وسابفته في الإسلام ! .. »

فما عدل عن موقفه ، ولا أبدى ما لعله سمع عن عدول ، أصر في  
مكابرة وعناد . ضاف بهما مجال التفاهم ، وانقطع الرجاء في الالتقاء  
على حل جامع ، أو على آخر يقع من الجانبين في منتصف الطريق ! ..  
ونسب القتال .

علت ناره . وتلهب سعيه . حتى لقد اختلط الفريقان اختلاطا  
تسديدا اصطكت خلاله الهام بالهام ، والتصقت الأجسام بالأجسام .  
وتقطعت الرماح ، وانحنت الأسباف . وعقرت عامة خيل الجيوشين .  
وفشت في المقاتلة الجراح .. فلولا أن حاجز بينهم ستار الليل ،  
واجن بعضهم عن بعضهم سواده ، لتهدم الصبح ، إلا الأقبين ،  
صرعى وأشلأ ..

غير أن النهار لم يسفر عن أرض الواقعة ، بثرى المدائن . وبها  
الخراب .. فقد التف العاص وعصبته بالظلمة . وأولجوا مرة أخرى  
يسرون ، على مضض الإعياء ، بعيدا بعيدا إلى جنة جديدة يلحقون بها  
الجراح ..

وكانت جنتهم الأهواز . فما يجد الخريت خيرا منها مسرحا لدعوته  
وإن أهلها لتسهل فتنهم ، لكثرة فارسية بها كفار وبها من لم يقر  
في قلوبهم للإسلام قرار ، وفي جيرتها كذلك أعراب ندين منهم طائفة  
بمبدئه ، ولا يشق عليه ، مع جلالة بقيتهم وغلظة قلوبهم ، أن يلوهم  
كما يشاء ..

وانتأى الرجل بصحبه جانبا من الأهواز مستخفين . فلما  
استعزوا بمائتين من أقرانهم بالكوفة جاءوهم مددا ، راح يدور بدعوته  
بين أهل تلك النواحي ، يستميلهم بما يعطفهم . فما لبث إلا قليلا  
حتى لحقت به كثرة العلوج والأكراد . وفئة ضخمة من اللصوص  
وقاطعي الطريق . وأخرى من الأعراب الذين يدعون بدعواه . واجتمع



له بهذا الأسلوب خلق كثير من الأولى راوا في حركته سبيلا إلى ضرب الدين ، وكسر الخراج ، وتحطيم الحكم القائم ، والتحلل من قيود القانون ..

وبلغ الإمام - من كتاب لزياد - ما وقع ، فدعا إليه معقل بن قيس ، وندب معه ألفين من الكوفة :

« تجهز يا معقل .. » .

ثم كتب إلى عامله على البصرة ، عبد الله بن عباس :

« .. فأبعث رجلا من قبلك ، صلبا شجاعا ، معروفا بالصلاح ،

في الفئ رجل من أهل البصرة ، فليتبع معقل بن قيس .. فإذا خرج من البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقي معقلا . فإذا لقيه فمعقل أمير الفريقين .. ومر زياد بن خصفة فليقبل علينا ، فنعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله ! .. » .

ولم يفت الإمام أن أمير جيشه متوجه إلى بلاد خليفة بالأحسن استقباله ، ولا تخف إلى عونه لكثرة ما بها من غير أهل الإسلام ، فأراد أن يكف من غربه ، ويهدئ من فورة حماسه حتى لا يدفعه تشككه فيهم إلى الغلو في معاملتهم بما قد يميل به إلى التحيف ..

فأوصاه :

« يا معقل بن قيس ! .. لا تبغ على أهل القبلة . ولا تظلم أهل الدمة . ولا تتكبر .. » .

فأذن وأمن :

« الله المستعان .. » .

« خير مستعان .. » .

وخرج القائد بجيشه يقطع القفار والعمار حتى نزل به الأهواز ، فعسكر حيناً ينتظر بعث البصرة .. فلما أن أبطأ عليه ، نهض بمن معه من مقاتلته يأخذ سبيله إلى المعركة المنتظرة حيثما توجهه الأرصاد ..

وقال يطمئن رجاله :

« .. ليس بنا بحمد الله قلة ، ولا وحشة إلى الناس .. » .

وانطلقوا ..

فما مضى بهم يوم أو بعضه في سيرهم ذاك ، حتى أقبل عليهم من جانب البصرة رسول بكتاب من عاملها ابن عباس ، يقول فيه :

« .. لا تبرحن من المكان الذي ينتهى إليك رسولى وانت فيه ، حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك . فقد وجهت إليك خالد ابن معدان .. » .

وأقبل خالد بفرقتة بعد قليل . فالتأم الجيشان في عسكر واحد ، يقصد إلى عصابة الخريت يتعقبها . فإذا هى قد انفلتت من الأرض السهلة ، تحاول الرقى في المرتفعات بجبال رامهرمز ، نحو قلعة حصينة رأت أنها خير ما يحتفظ عليها شوكتها ، ويعزها عن المطاردين ..

غير أن خبر الهرب لم يخف طويلا عن جيش التأديب .. فما أسرع ما دله عليهم أهل الإقليم . وما أسرع ما أدركهم جنود معقل وهم بعد عند سفح الجبل لا تزال خطاهم تتقلع وهى تتدافع بهم إلى الارتقاء .. حتى إذا تراءى الجمعان ، ولم يعد معدى عن اللقاء ، بادر معقل فنظم قواته . ثم مشى بينهم يحرضهم على الجهاد والصبر عند اللقاء وهو لا ينسى في تذكيرهم واجب الجندى في الميدان ، أن يدعوهم إلى التمسك بتقاليد القتال الشريف ..

قال يحذرهم :

« عباد الله .. لا تبدأوا القوم حتى يبدأوكم .. » .

فتلك سنة سننها أمير المؤمنين ، ولزمها في كل حرب وإن كانت السنة عند ذاك الغدر في الحروب ..

ثم أردف يقول :

« .. غضوا الأبصار ، واقلوا الكلام .. وأبشروا في قتالهم بالأجر

العظيم وإنما نقالون مارقة مرقت ، وعلوجا منعوا الخراج ، ولصوصا  
وأكرادا .. » .

وكانت عينه قد رمت بنظراتها إلى من حياله ، فإذا هو بهم وقد منطلق  
الخریت بمن معه من العرب في الميمنة ، وصف الأكراد وعلوج العجم  
في الميسرة ، وبدا منه ما بشى بالتشرع للانقضاض ..

عندئذ وتب معقل إلى قلب جيشه ، وسط الصف ، وصاح برجاله :  
« ما تنتظرون ! .. » .

ومر بهم يفقد النظام ، وهو يلقي بمره :

« .. إذا حملت فسدوا .. » .

فالتفت عليه الأيصار ترى ما يفعل وما يشير .. أما هو ، فقد  
حرك رأسه يمنة ، ثم حركها يسرة ، كأنما يومئ لجناحيه أن يكونا  
على أهبة .. ثم أنصب على الأثر بحمل على الأعداء فإذا جيشه كله  
وراءه يحمل حملته . ويضرب ضربة واحدة ، كأنما عن يد واحدة ،  
بسيف واحد ، حتى لقد أوشك مناجزوه أن يذهلوا عن أنفسهم ،  
وتشلهم سرعة المفاجأة أن ينهضوا بما يكافئ الهجوم ..

فإن هي إلا ساعة أو نحوها حتى شاعت المقتلة ، سابحة على  
الذعر ، في جيوش الفاوين .. فقتل من بنى ناجية والأعراب سبعون .  
ومن الأكراد وعلوج العجم ثلاثمائة تمزقت بهم الصفوف وتهافت  
المقاومة ، ولم يبق بعدهم للخریت ومن نجا من عصابته غير الفرار ..

مروا . وامنوا . حسبما استطاعت أن تحملهم الأقدام . وحيثما  
يسع القلوب أن تثوب .. ولم يكن لهم أن يقرؤا بجيرة ترتد منها  
الأخبار أو تبلغها العيون ، فآثروا اللياذ بأبعد منأى ما كان أحراهم  
بأن يجاوزوه لولا أن حال دونهم اليم ، فضربوا خيامهم على الماء ..

عسكروا في البحرين ، بأبعد بقعة تطولها يد الطراد ، بعد أن  
تقطعت أنفاسهم على أرض فارس ، من الشمال للجنوب ..

وكتب معقل إلى الإمام :

« .. لقينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلنا منهم  
ناسا كثيرا . ولم نعد فيهم سيرتك . فلم تقتل منهم مدبرا ولا أسيرا ،  
ولم نذفف على جريح . وقد نصرك الله والمسلمين .. » .

وفرىء الخبر في الكوفة على الناس ، ليشيروا ..

فاجمعوا الراى :

« يا أمير المؤمنين .. نرى ان نكتب إلى معقل ، يتبع آثارهم ،  
ولا يزل في طلبهم حتى يقتلهم او ينفيهم من ارض الإسلام .. » .

فأنفذ ما راوا على الأثر . فما كان ليमطل قط بشورى الأمة ،  
ولا ليستبد دونها برأيه ..

وبعث إلى معقل ، يأمره :

« .. أحسنتم البلاء ، وفضيتم ما عليكم . فاسأل عن أخى بنى  
ناجية ، فإن بلغك انه استقر في بلد من البلدان فسر إليه حتى تقتله ،  
أو تنفيه .. » .

مرة أخرى عادت المطاردة تشتد بين الفريقين ، تباريا على طى الأرض ، وقطع الرمن ، إلى غاية تسود فيها إحدى الطائفتين ، فإما قرار وإما تغيير ..

قراءة عامين كاملين ، بعد صفين ، وغب التحكيم ، طارد النظام التمرد ، على رقعة الأرض الممتدة من حاضرة الدولة عند شط الفرات إلى سيف البحر عند الخليج ، يعاقبان تعاقب الليل والنهار ، ويتتابعان كفرصى رهان .. وكلما أوشك الفلج أن يقع في سهم الدولة ، سارع العصيان فنقض غبرة الهزيمة ، واستوى على سوقه .. ثم لقف انقاسه ، ونظم صفوفه ، وراح يبعث الصراع من جديد ..

إصرار مريد ، وعناد صارم ، وعزم متشبث من جانب الفئة الخارجة ، لو أنها انفقت في رفع راية الدين ، وإعلاء كلمة المسلمين ، لذهبت ، على مدى العصر ، مثلا في التمسك بالمبدأ لا يطاوله شبيه ولا يعلوه قرين .. ولكنها انفقت في نزوة انجبتها جهالة حمقة ضالة ، وعصبية آئمة عمياء كطلع خبيث !..

فللصلف والهوى والخيانة كانت دعوة الخريت . ولوجه الشيطان لا لوجه الله .. وها هو الآن يسفر عن خبيثة ضميره ، فإذا هو ينقض بفعله كل ما ادعاه وتنادى به بين الناس من دفاعه عن الحق ، وغضبه للكتاب ، لينصر الكافر والأبق والضليل على كلمة الحق وشرعية الكتاب ..

ليس امره إذن امر من يعمل لمبدأ ، ويجهد لفرسه في الصدور ، وتطبيقه في الحياة ، بمنطق اللسان ومقطع السنان .. وكيف يكون ، وإنه ليحالف - ليبلغ وطره من امرة الإمام - زمرة فاسقة تعيش في رحاب الشيطان !..

وكان امرا ذا خديعة ومكر . تستوى عنده الوسائل ، شريفها وخسيسها ، ما دامت تحقق له غرضه .. وما له اليوم من مقصد إلا نفسه التي غدت لعبة في ابدى مطاردية لن تلبث اصابعهم ان تتقبض عليها وتعتصرها بعد ان تحلقوه ، وأوشكوا ان يطبقوا عليه ..

فاستعان خبثه ..

مضى إلى الخوارج ممن حوله ، يرفع شعارهم ، ويؤكد لهم سلامة ما يعتنقون ..

لا حكم إلا لله ! ..

وقال لهم :

« إني أرى رأيكم .. إن عليا ما كان ينبغي له أن يحكم الرجال في دين الله .. »

وذهب للعثمانية ، الذين تقموا على الإمام حين وهموا أن عليه دم عثمان ..

تباكى لدعواهم ، وقال :

« أنا على رأيكم .. لقد قتل عثمان مظلوما معقولا .. »

وانثنى لمن منعوا الصدقات يزين لهم فعلهم إذ ثلموا ذلك الثلم في الإسلام ، ويحثهم ان يظلوا عليه :

« شدوا أيديكم على صدقاتكم ، تم صلوا بها أرحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم .. »

وعندما علم بارتداد كثيرين عن الإسلام إلى النصرانية التي فارقوها من قبل ، لم يحاول أن ينهاهم ، ولا أن يردهم عما وقعوا فيه .. بل اتخذ من ارتدادهم وسيلة لربطهم به ، وانتصارهم له ..

أسرع يدعوهم إلى الثبات على ردتهم :

« اتدرون ما حكم على فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟ .. لا والله لا يسمع له قولا ، ولا يرى له عذرا ، ولا يقبل

منه توبة ، ولا يدعو إليها .. وإن حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة  
يستمكن منه .. ولن ينجيكم من القتل إلا الصير لهؤلاء القوم ،  
وقتلهم ! .. »

وكذلك فعل بعروج العجم ، وناقمة الأكراد . ومن إليهم من انصار  
العنصرية ، وأعداء الدين ، وإنهم لأدنى من سواهم إلى الانضمام لكل  
حركة تبغى هدم الإسلام ..

دعوة ظالمة ، وأسلوب أظلم : نهج الرجل الذي ليس ثوب  
الإصلاح ، ليدو للناس وهو الشائر على الضلال . المدافع عن الحق ،  
الغاضب لكتاب الله ..

لكن الرياء شفاف . والخبث كسيح . وخداع الناس كلهم محال ،  
قصير عمره وإن طال ..  
.. وأطلت النهاية ! ..

فلم يكد معقل يبلغ البحرين ، حتى بادر - قبل أن يشهر سيفاً  
في وجه ذلك الخائن وعصبته - إلى إذاعة بيان من الإمام ، على أهل  
الإقليم يقول لهم فيه :

« من عبد الله على أمير المؤمنين

إلى من قرىء عليه كتابي هذا من المسلمين والمؤمنين ، والمارقين  
والنصارى والمرتدين .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد . فإني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه .. ..

فمن رجع منكم إلى رحله ، وكف يده ، واعتزل هذا المارق المهالك  
المحارب .. فله الأمان على ماله ودمه .

ومن تابعه على حربنا ، والخروج من طاعتنا .. استعنا بالله  
عليه .. » .

واتبع معقل إذاعة البيان على الناس ، براية أمان نصبها لهم على

أعين الخريت والذين لاذوا بشرذمته .. حتى إذا تطلعت إليها الخواطر،  
وتعلقت بها الأنظار ، انطلق ينادى على الملأ الحاشد ، ويعاود نداءه  
مرات ومرات :

« من أتى هذه الراية فهو آمن - إلا الخريت وأصحابه الذين  
نابذوا أول مرة .. » .

وفعل النداء فعله على الأثر . فكانما كسفة من سحب ثقيل بددنها  
الريح ، أو كأنما جدار وانهار كانت جموع الخريت ..!

الزحام حول المارق يرق . الصفوف تتخلخل . الحشود تنجاب ..  
ليبدو الخائن عاريا مكشوفاً بموقعه إلا من جنة واهية من عصابته  
كنسيج عنكبوت ، أو كديباجة رثة غزتها الخروق ..!

دقائق ولحظات من عمر قلقه طالت عليه كالأيام وهو يشهد الناس  
يتفرقون عنه . يتقطعون من شرذمته فرادى فرادى . وجماعات جماعات  
لينفضوا عنه . ويهرعون ، خيلاً ورجلاً ، إلى موقع الراية البيضاء كأنما  
يطيرون بجناح .. فإن هي إلا سويعة حتى غدا الخريت وما بجانبه  
من جيشه الكثيف إلا شوية قومه الذين لا يملكون تنائياً عنه بعد أن  
صدهم عن التناي النداء ..!

وتلفت فيمن بقوا إلى جواره كالمضييع . قد ثقل قلبه ، وغامت  
عينه ، واهتز لسانه يحاول أن يثبت في نفوسهم ما افتقرت نفسه إليه  
من ثبات :

« .. إمنعوا اليوم خريتمكم ! .. قاتلوا عن نساتكم وأولادكم ! .. » .

فتلاغظ عليه أصحابه ، حيرة وندما . وصاح به منهم عاذل ناظم  
يلوم :

« هذا والله ما جرته علينا يدك .. ولسانك .. » .

لما استطاع إلا أن يقول بلهجة اليائس المحسورة :

« سبق السيف العدل ! .. قاتلوا ! .. فوالله لئن ظهروا عليكم  
ليقتلنكم وليسبينكم ! .. »



وكان لا بد لامره ان يصير إلى ما خشى ان يكون ..

فسرعان ما نهض له معقل برجاله ..

بدا فحرضهم ، والإيمان دليله ، والثقة ملء قلبه ، والسلاح في  
الأكف على اهبة التبارى إلى الرقاب !..

« أيها الناس .. أما تدرّون ما سيق إليكم في هذا الموقف من  
الأجر العظيم ؟ .. إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن  
الإسلام ، وتكثروا البيعة ظلما وعدوانا .. وإني شهيد لمن قتل منكم  
بالجنة . ولمن عاش بأن الله يقر عينه بالفتح والغنيمة .. » .

وسرح ميمنته ، دون بقية الجيش ، تقاتل أعداءه ..

ثم ردها وسرح إليهم مبسرتة ..

حتى إذا رأى قتال جناحيه قد نال من القوم ، مع ما بدا منهم من  
صبر وعناد ، وأيقن أنه قد أوهنهم ، وثب على فرسه يحمل بكل جمعه ..

فإن هي إلا ساعة واحدة ثم اتهارت مقاومة الباغيين .. هلك صاحبهم  
بضربة سيف من النعمان بن صهبان .. وتناثر كثيرون حوله على الثرى  
قتلى وجرحى ، تناثر الورق الذابل من اعواده في عنقوان الخريف ..  
وتفرقت بقيتهم يمنة ويسرة بعيدا عن الحلبة كقطيع شرده الذعر ، يفرون  
من مناجل الموت إلى حبائل الأسر ..

وعندما تظهرت الأرض من هذه الفتنة ، وسبق سبى المعركة إلى  
الكوفة ، حلا لمصقلة بن هبيرة أن يشرف بمنه على الأسرى . فما بلغ  
هذا به إلا أن أضاف لصورة التنكر لمبادئ الدين وقيم الأخلاق التي  
رسمها الخريت !!.. أضاف خيانة الأمانة إلى خيانة العهد . والغرار  
من الوفاء إلى الغدر . والخوف من الحق إلى حربه . والانتقاص  
خشية وطمعا إلى الانتقاص عنوة بالسلاح ..

وأسدل الستار بعد عامين على محنة مما امتحن به عهد على ،  
فإذا هي محنة خلقية قبل أن تكون محنة سياسية . وشرح غائر في  
جدار الإسلام قبل أن يكون شرخا في إمرة الإمام !..

تم بحمد الله الجزء السابع  
ويليه الجزء الثامن والآخر